وقائع أيام الخليقة

(قراءة معاصرة لقصص التكوين)



بقلم :أنطوان نوِّي

وقائع أيام الخليقة

(قراءة معاصرة لقصص التكوين)

بقلم

أنطوان نوِّي

ترجمة

ميشيل وديع

و

يولاند يسري



Book Name :L'aujourd'hui de la Création
Author :Antoine Nouis
Publishing House :Réveil Publications
This book was originally published in France by
Réveil Publications under the title of
" **L'aujourd'hui de la Création by Antoine Nouis** ",

B.P.4464, 69241 Lyon Cedex 04
et Les Bergers et les Mages
Siège social: 47, rue de Clichy, 75311 Paris Cedex 09
Adresse administrative: B.P. 4464, 69241 Lyon Cedex 04

طبعة أولى

الكتاب : **وقائع أيام الخليقة**
المؤلف : **أنطوان نوي**
صدر عن : دار الثقافة - ص.ب ١٦٢- ١١٨١١- البانوراما- القاهرة
رقم الإيداع : ٣٩٥٠/ ٢٠٠٤
الترقيم الدولي : 977 - 213 - 683 - x
المطبعة : مطبعة سيوبرس ت: ٦ / ٦٢٢١٤٢٥
الإخراج الفني والجمع : دار الثقافة
تصميم الغلاف : نبيل ميخائيل

١٠/ ٩٥٥ ط١/١-١/ ٢٠٠٤

مقدمة الدار

قصة الخليقة ليست مجرد حقبة تراثية قديمة جامدة ، لكنها بداية عمل حيوي يتكرر كل يوم في إعادة الخلق . ولذلك فإن الكاتب يتحرك جيئة وذهاباً بين الصور القديمة التقليدية والواقع الديناميكي المعاصر ، والذي يشمل الطبيعة بكل مفرداتها ، والعلم بكل تطوره ، والتكنولوجيا بكل إبداعاتها ، والتطور البشري .

وإذ نرى في مشهد العصيان في الجنة أو قتل قايين لأخيه هابيل أو بناء برج بابل أو عبقرية الإنسان في إبداعاته التكنولوجية المتعددة وخاصة في وقتنا المعاصر ، أن هذه كلها مظاهر استبعدت الله من التاريخ ليكون الإنسان سيداً لحياته .

ومن خلال هذا الكتاب يطوف بنا الكاتب بين الأنماط الدينية التقليدية والأساطير القديمة وتفاسير الربيين ، وأيضاً الدراسات العلمية التحليلية الحديثة لإعادة قراءة التاريخ لمواجهة تحديات الحداثة .

ويسر دار الثقافة بالتعاون مع هيئة Action Chrétienne en Orient التي قدمت دعماً لإنتاج هذا الكتاب أن تقدم هذا النموذج الفكري الجديد وهو مترجم من الدراسات اللاهوتية الفرنسية ، كخطوة جديدة تنتهجها دار الثقافة لتقديم الفكر اللاهوتي الفرنسي إلى العالم العربي ، آملين أن يقدم هذا الكتاب رؤية لاهوتية جديدة ونموذجاً للفكر الإبداعي .

دار الثقافة



الفهرس

شكر

هذا الكتاب هو نتيجة لعمل بحثي « بحث » عن مجموعة النبوءات ، وقد قمت بعمله في الكنيسة المحلية بفالنس التي كنت أحد قساوستها لمدة سبع سنوات . ولذلك وجب عليّ الشكر لكل أصدقائي بالكنيسة والذين ساعدوني بملاحظاتهم على تصحيح وتعديل اتجاهي .

وأخص كنيسة (باري أنونسياسيون Paris Annonciation) بجزء من هذا الشكر والتي زكّتني لأكون قسيساً بها ، والتي سمحت لي بمزيد من الوقت المخصص للكتابة . وقد أفرطت في استغلال تلك الفرصة لكتابة وتعديل هذا العمل . فإلى الكنيسة ولكل من كان له دور في توفير الوقت لي أقدم شكري لهم .

وأخيراً فهذا الكتاب لم يكن يخرج هكذا دون مساعدة ثلاثة أصدقاء أفادوني بالملاحظات التي كانت مناسبة جداً ، وخاصة بالنسبة للعمق وليس الشكل (ميراي جرو/سابين دافين/جينيڤياڤ بارنو) . ويتبقى لي الآن أن أهدي هذا الكتاب لـ (آرميل) وهي زوجتي وأيضاً رفيقة أفكاري ولياليّ ، وتحياتي لـ(ماري/ مارتن/ سيمون/و فيكتور) وذلك لسوء حظهم بكوني أبيهم المشغول في العمل طوال الوقت .



المقدمة

الكتاب المقدس كتاب كبير ، ففي أولى صفحاته (الأحد عشر أصحاحاً الأولى من سفر التكوين في العهد القديم وكذلك أولى آيات الأصحاح الثاني عشر) نجد جزءاً كبيراً من علم اللاهوت . ما هو الإنسان ، الرجل والمرأة ، علاقته بالألم ، بالحرية ، بالقانون ، بالعمل ، بالمستقبل ؟ . . . وكما أن الإنسان يعرف من خلال علاقته مع الآخرين ، هكذا تعرفنا هذه الفصول بعض الشيء عن الله .

قد يكون أمراً ثانوياً أن يُظهر الإنسان المسيحي الاهتمام بالعهد القديم ، إذ إن اهتمامه وإمانه يرتكزان في شخص يسوع الناصري الذي يعرفه بأنه المسيح الذي ظهر في قيامته . ولكن إذا كانت القيامة توضح حقيقة لله الأخيرة ، فهي توضح أيضاً الحقائق قبل الأخيرة : الطبيعة والثقافة . الاعتراف بيسوع المسيح هو الإيمان بأن الله دخل العالم وبذلك لم يفعل سوى إكمال ما بدأه في التكوين . إذن فلا يمكن أن يكون هناك (كريستولوچي) (علم المسيح) إلا إذا كان مسبوقاً بـ (كتيسيولوچي) (معرفة الخلق) . كما أن أول مادة في قوانين الإيمان تتكلم عن الله خالق السماء والأرض . فإن فهم الخليقة يقوم على إدراك إيماني .

ولإجابة هذا السؤال ، لم أتبع الطرق التقليدية للتفسيرات المسيحية . كل الكتب المُفسَّرة التي استعنت بها تتكلم عن المصادر المختلفة التي ساهمت في كتابة الكتاب المقدس ، والتي تدور حول أساطير الخليقة لدى الشعوب المحيطة بإسرائيل ، والأكثر شهرة منها قصص وأشعار « جلجامش » . وقد اعتمدت على سفر التكوين كمجموعة كتابات أدبية منتظمة ومتماسكة وراقية مثل ما تُقدمه . ومن الواضح أن أول أصحاحين ، واللذين يضمان كتابات عن البدايات والتكوينات المختلفة ، تمت كتابتهما في عدة عصور ، وفي أماكن مختلفة . ولكن بافتراض أن اتصالهما معاً له معنى ، ورسالتهما لا تتعارض بل تتكامل . وأرى أن مبدأ الخلق مهم جداً ومن الصعب أن تصل إلينا رسالته في نص واحد فقط . وكان المصدر الذي رجعت إليه كمصدو واقعي عن الوحي هو التفسير الحاخامي (الربيني) وذلك لسببين : من جهة أولى لإسداء الاحترام إلى التقليد الذي يتميز بالغنى ، فكبار الحاخامات (الربيين) هم رجال يتمتعون بثقافة واسعة ، ومنهم من أمضى حياته في دراسة نصوص اعتبرتها الكنيسة إعلاناً إلهياً ، ومع ذلك فإن أغلب كتب التفسير المسيحي لم تلجأ إلى التقليد كمرجع لها . وهذا يشبه عمل دراسة عن الموسيقى الكلاسيكية مع إهمال المؤلفين الألمان ، أو الرسم مع إهمال الفنانين الإيطاليين .

ولكي لا أكتفي بمثال واحد ، فقد رجعت إلى كتاب معروف في تاريخ تفسير هذه النصوص في التحليل المسيحي وهو كتاب لـ« جيرار ڤون راد » الذي ظهر في ١٩٣٦ بعنوان (المشكلة اللاهوتية في فكر العهد القديم) . وفي نهاية دراسته ، استنتج **ڤون راد** أن نظرية الخلق تعتبر ثانوية بالنسبة للخلاص ، وأنها لم تنشأ في إسرائيل إلا بعد أن تأيدت بالخلاص المتمثل في سفر الخروج . هذا الاكتشاف ، والذي يظهر وكأنه مقتبس من التفسير المسيحي ، هو حقيقة أثبتتها دراسات الربيين من قبل ، وفي زمان سابق على الزمن المعاصر . وفي القرن الحادي عشر ، كان « راشي » من (تروي) ، وهو من أكبر المفسرين اليهود للتوراة ، كان قد بدأ في تفسير العهد القديم بالقول : « كان يجب أن تبدأ التوراة بالأصحاح الثاني عشر لسفر الخروج » والذي هو بالضبط وثيقة التحرير والخلاص .

وفي تعليم السنن اليهودية (التلمودية) فإن الله قد صنع العالم مع سابق معرفته أن إسرائيل ستقبل التوراة . ومع تأكيد أن العالم لن يكون له وجود دون وجود التوراة ، فإن الحكماء يقولون إن الخليقة وُجدت أولاً للأسباب التاريخية ، إلا أنه لاهوتياً وُجدت الخليقة باعتبارها مشروع الله للتحرير والخلاص .

أما السبب الثاني الذي دفعني للرجوع إلى التحليل الحاخامي (الربي) ليس هو عدم الاهتمام بمصدر النص وإنما توجهنا حول التفسير ، أي المغنى الذي نستطيع نحن أن نعطيه للنص ، ولهذا يكون مصدر إلهام للواعظ مثلي أنا . وموضوع هذه الصفحات ، وهدفي من هذا التفسير هو بعث الحياة في بعض الأصحاحات من العهد القديم والوصول إلى ما يمكن أن نستفيد منه اليوم .

وكلمة « معاصرة » الموجودة بالعنوان مهمة جداً لقراءتنا . وإذا كان الفصل بين العلم وسفر التكوين يعتبر إنجازاً آخر للتفسير العصري ، فبهذا الصدد نستطيع أيضاً التذكر أنه منذ ثمان قرون ذكر « الزوهار » والذي هو ثالث أكبر كتاب في اليهودية بعد الكتاب المقدس والتلمود : « الويل للإنسان الذي يعلن أن التوراة مجرد سرد لتاريخ العالم ونقل أحداث ووقائع البشر في تلك الفترة » . وكلمة التوراة لها أصل يحمل معنى « الإرشاد للطريق بالإشارة بالإصبع » . التوراة لا تتكلم في الأمس بل اليوم . فهي لا تعلّم الماضي فقط بل الواقع الحالي . وهناك فقرة من التثنية تبدأ هكذا : « هذا اليوم قد أمرك الرب إلهك أن تعمل بهذه القوانين والأحكام » . وتعليقي يقف عند كلمة « اليوم » هل قبل هذا النص لم يكن اتّباع الله ضرورياً ؟ وهذا هو ما يجب فهمه : وعلى نفس المنوال يقول لإسرائيل : « يجب أن تكون التوراة ثمينة لديك . كل يوم عندك يجب أن يكون مثل يوم الظهور ، والأصحاح الأول من العهد القديم لا يذكر لنا ما حدث منذ البداية كوصف تسجيلي للماضي فقط ، ولكنها تتكلم عما يحدث اليوم ، إنه « اليوم » الذي به يفرق الله النهار والليل ، السماء والأرض ، القارات والمحيطات . وكما ورد في الكتاب الطقسي لـ (روش حاشانه) والذي يحتفل به في بداية السنة اليهودية بخلق الكون ، يقول الكاهن في الصباح ما لا يقل عن عشرين مرة « اليوم هو يوم خلق العالم » .

وفي قراءاتي ركزت كثيراً على كلمة « مدراش » وهي تعني تفسير وشرح . مدراش هي طريقة قراءة تبحث دائماً في المعنى اللفظي للكلمات والجُمل لفتح مجالات جديدة ومتعددة للتفسيرات . وقد لجأت للقصص

والأساطير والأمثال لتجديد نظرتنا للنص ، وهناك تفسير يثبت استخدام القصص في زيارة الملائكة لإبراهيم في شكل سلاسل ، هؤلاء الملائكة قد ظهروا في أشكال أناس عاديين تناولوا الطعام مع إبراهيم قبل تسليم الرسالة التي كانوا يحملونها معهم . إذا كانوا قد ظهروا في هيئة أناس ، فذلك لأن إبراهيم لم يكن يحتمل نورهم المبهج ، إذا ما ظهروا في صورة الملائكة الحقيقيين . ولذلك ، فإن التوراة بهذا تظل صعبة الفهم على مسامع البشر في حالة عدم الاستعانة بالأمثال والقصص ، ويجب أن أعلن عن إعجابي بتلك الحكايات الصغيرة التي تفتح الطرق دائماً لمعان جديدة . ولهذا لم أتردد في اقتباس تلك الطريقة بكل سرور .

وفي النهاية ، فإن كل فصل ينتهي بإطارين ، هما عبارة عن حقائق ومنافذ تدعو دائماً وأبداً لتجديد قراءتنا وسماع الكلمات بوعي جديد بالنسبة ليومنا هذا .



١

في البدء

خلق الله العالم كما فعل البحر مع القارات.. عندما انسحب منها

(هولدرلين Hölderlin)

في البدء خلق الله السموات والأرض (تكوين ١ : ١)

في بداية تكوين الجنين ، تلتقي المنى مع البويضة لتلقيحها فتنتج الخلية الحية . اليوم نحن نعرف أن في هذه الخلية الأولى ، سجلاً لجميع خصائص الإنسان القادم : طوله ، لون عينيه ، شعره ، شكل وجهه ، بعض علامات من صفاته ، ميله لظهور بعض الأمراض . بنفس الطريقة ، إذا استطعنا قراءة كل ما تحمله الأصحاحات الموجودة في بداية العهد القديم ، فسوف نجد الشيء الأساسي في رسالة الكتاب المقدس . وبتوالي قراءتنا سنكتشف أن تلك النصوص تتكلم عن الإنسان وعلاقته مع الله ، مع أخيه ، مع الآخر في اختلافه في الجنس ، الطبيعة ، العمل ، الألم ، الحرية . . .

مؤلفات كاملة كُتبت عن الآية الأولى من سفر التكوين في العهد القديم ، بل عن الكلمة الأولى الواردة في الآية الأولى وهي « في البدء » . إن ما يحدث في (بدء) الكتب المقدسة مهم جداً ، كما قال الواعظ (أرماند آبيكاسي) « يجب التفكير في فكرة البدء بحسب ما هي موجودة في اللغة العبرية ، فهي تشمل أفكار الموضوع ومعانيه » [(١)].

إن البدء هو الأساس الذي يحمل المبنى بأكمله .

الله

الكلمات الأولى من العهد القديم تقول : « **في البدء خلق الله** » ثلاث كلمات بالعبرية والتي ترد بهذا

(١) Armand Abécassis, ***A Bible ouverte,*** Albin Michel 1991, collection Spiritualités vivantes 95, p.28.

الترتيب . وهناك تعليقات حاخامية (ربينية) تساءلت (لماذا لم يظهر الله سوى في الموضع الثالث ؟) (ولماذا كُتب : « **في البدء خلق الله** » وليس « **خلق الله في البدء ؟** ») . (ألا يثير هذا الترتيب الحيرة عند التفكير بأن البدء هو الذي خلق الله ؟) . فأجابوا بلا ، فهذا الترتيب يدل على تواضع الله ، هو لم يرد وضع اسمه في البداية كما يفعل الملوك وغيرهم ، بل في وسط الأشياء ، ثم أضافوا أن الله لا يستطيع أن يعرف بنفسه . فنحن لا نستطيع أن نصل إليه سوى بما يفعله .

لا يكفي لفظ كلمة الله لقول شيء عن الله . كل جنس من أجناس البشر له إله ، المسيحيون مثل الوثنيين ، اليهود مثل المسيحيين ، الأصفر مثل الأبيض ، الأخيار مثل الأشرار حتى كبار الملحدين أو الماديين لهم إله ، يسمونه المال أو الأخوة أو القدرة أو العمل أو . . . كل البشر لهم إله . لذلك عندما نقول إله فنحن لم نقل شيئاً . المأساة أن الإنسان عندما يفتح الكتاب المقدس يكون لديه فكرة عن الله قبل قراءة أول آية . ويحتفظ في فكره بما يسمى إله الحكماء والعلماء وحسب ما يتخيله ذكاؤه أو أوهامه .

لكي يعرف الإنسان الله ، فإنه دائماً يبدأ بما يشعر به من نقص في ذاته :

- الإنسان غير قادر على فعل بعض الأشياء ، ولذا فإنه يقول إذن الله هو القادر على فعل كل شيء (كلي القدرة) .
- الإنسان لديه معرفة محدودة ، فيقول إن الله هو العالم بكل شيء (كلي المعرفة) .
- الإنسان محدَّد بالفضاء الكوني ، فيقول إن الله هو اللا محدود .
- الإنسان معرَّض للتغيير ، فنقول إن الله هو الثابت .

وبذلك نرسم صورة الله القادر ، العارف ، اللامحدود ، الثابت . . مع ربط تلك الصفات عن الله المقروء ، أي الذي نقرأ عنه في الكتب المقدسة . وبذلك فقبل أن نفتح أول صفحة في العهد القديم ، فنحن نعرف كل شيء يقوله الكتاب المقدس عن الله . هذا الرأي كان موضع نقد ممن نسميهم أصحاب المذهب النقدي . نيتشه اتهم الإنسان بأنه خلق لنفسه إلهاً لمواجهة صعوبة الحياة . ولكنه يضيف أن هذا وهم ، لأنه إن لم تكن الآلهة إلا نتاج يأس البشر ، فهي تصبح غير قادرة على القيام بالدور المُعطى لها[٢] . وفي حديثنا عن الله الخالق ، تكلم الكتاب المقدس عن الله الآخر الذي لا يستطيع الإنسان أن يكتشفه ، عبر تخيلاته الذهنية ولكن بالطريقة التي أُعلن بها .

ولكي يدرك الطلاب معنى هذا السر ، فإن المعلم الروحي يقوم بطرح سؤال : « أين كان وجودكم قبل أن يولد أباؤكم ؟ » هذا السؤال الماكر يهدف إلى أخذ طبيعة اللا معرفة في الاعتبار . فنحن لا نستطيع قول شيء عن وجود الشخص قبل ميلاد أهله . وبنفس الطريقة ، يجب تعلُّم السكوت عن موضوع الله قبل فحص الكتب ، وأن نقف عند علم اللاهوت بالنسبة للتواضع الذي ظهر به في ثالث كلمة من خليقته .

الآية الأولى بالكتاب المقدس تتكلم عن خلق الوقت (في البدء) والفضاء الكوني (السماء والأرض) .

---

(٢) *Humain trop humain*, III, 118 : La religion est fille du désespoir.

وبمقدار الخالق ، الله هو سابق على الوقت والفضاء الكوني فهو أيضاً يسكن بُعداً آخر من الحقيقة التي تفوق إدراكنا ، وهذا هو السبب الذي من أجله لا نقول في علم اللاهوت ، إن الله موجود ، إذ إن كلمة « موجود » تفترض وجوده في وقت وفضاء كوني محددين ، فنحن نقول « إن الله هو الكائن » . ومن هنا لا نستطيع قول شيء عن كينونته أكثر من ذلك وبدلاً من ذلك ، نعطيه آذاننا لنسمع ما يقوله لنا عن نفسه .

وإذ ذُكرت كلمة الله في الآية الأولى مسبوقة بكلمتي « البدء » و« خلق » ، فهذا لكي نتعلم البحث عنه بالطريقة التي يظهر بها في البدء وفي الخليقة . وبالعبرية يبدأ بـ beth والذي يأخذ شكل مربع مفتوح من الأمام . يبدأ الكتاب المقدس بهذا الشكل ويوضح المدراش أنه بما أن الكتاب المقدس يبدأ بهذا الشكل ، فهذا يشبه عدم مقدرتنا على معرفة ما قبل الخليقة ولا ما تحتها أو ما فوقها . ولذلك فعلينا دائماً أن نتساءل عما حدث منذ بدء الخليقة .

في البدء

قبل ذكر الفضاء الكوني (السموات والأرض) تكلم الكتاب المقدس عن وقت الخليقة ، يبدأ الأصحاح الأول من العهد القديم ببدء الوقت ، وينتهي بالسبت (سابع أيام الأسبوع) ، فالروحانيات اليهودية تقدس الزمن ، وهذا الأصحاح يضع الخليقة في ديناميكية خاصة بمفهوم الزمن ، وتنتهي بتقديس الزمن . وإذا اعترفنا « بالبدء » فهذا يدل على معرفتنا بوجود « بقية » ، « التاريخ » . أما بقية الكتاب المقدس فهو تاريخ لذلك التاريخ .

تُرجمت الكلمة الأولى في العهد القديم بـ« في البدء » أو « عند البدء » . هذه الكلمة تعني أيضاً باكورة ، الأولى ، الأثمن . ففي النص الكتابي يتم التركيز على إسرائيل وعلى التوراة ، إسرائيل هو الشعب المختار ليكون شاهداً لـ « الله » وللتوراة . وبالنسبة لإسرائيل والتوراة وجدت التفسيرات الربانية (الحاخامية) التي تتوقع ما يلي : هذه الكلمة والتي تبدأ بالـ « beth » مثل أول حرف من كلمة bénédiction التي تعني النعمة والبركة . وقصة العالم التي تفتتح بالخليقة متعلقة ومستمدة من نعمة الله .

في أول آية تصادفنا عن صفة الله المعترَض عليها ، وهي ثباته وعدم تغيره . الله كان يستطيع أن يخلق العالم كله في لحظة واحدة . فبكل بساطة كان يمكن أن يخلق الله الخليقة كانبعاث من نفسه كما في الفلسفة اليونانية .

ولكن زمن الخلق الذي يظهر في سبعة أيام ، يدل على أن الله منذ البدء أخضع نفسه لمصاعب عمله [3] . المكتوب يقدم الله الذي يبدأ القصة ليسجل نفسه في البداية ويظهر في مقدمة البدء في الكتاب المقدس ، الله في الكتاب المقدس صبور بالنسبة للخليقة ، والإنسان وحريته . أما عن معاملاته مع شعبه ، فقد حاول معه كل المحاولات : حرره ، أعطاه قانوناً ، أرسله منفياً في الصحراء ليجعله يفكر ، ناداه بواسطة الأنبياء . ويضيف المسيحيون قائلين عندما بذل الله كل محاولاته وفشلت تبقى لديه « كارت » أخير في يده ، وهو حقيقة شخصه . . . الله تنازل في ألوهيته بذهابه لمقابلة البشر في صورة ابنه الوحيد يسوع المسيح . فهل تسمُّون هذا « الله الثابت » ؟ !

(٣) كتب (Von Rad) : لم تكن فكرة الخلق حقيقة فلسفية واضحة يمكن فرضها على كل إنسان له عقل ، لكنها تأكيد على الإيمان والذي يجب الدفاع عنه دون رفض أي تصورات جديدة

In *Théologie de l'Ancien Testament*, Tome 2, Labor et Fides, Genève 1965, p.303.

الخلق

هناك أثر آخر لله يتعارض مع تلك الثلاث كلمات الأولى : إنها مقدرته الكاملة التي تعودنا أن نسمع عنها . فكرة الخلْق ذاتها التي تفترض إرادة ذاتية متفردة لوضع يد الخالق على الخليقة ، عبَّر عنها « أندريه نهير » في تلك الكلمات : « الله غير غائب (مثلما قال أرسطو) ، الله ليس خصماً (مثلما جاء في الأساطير) الله ليس « الكل » (مذهب القائلين إن الإله الواحد إنما هو كل الكائنات والذي لم يترك مكاناً للإنسان) . الكل في الله وفي هذا « الكل » فإن الإنسان له مكانته المميزة في عمل الله » [٤] .

عندما يكتب المؤلف كتاباً ، ففي اللحظة التي يضع فيها نقطة النهاية ويقوم بتسليمه للناشر ، فإن عمله يُنتزع منه ويسير الكتاب في خطواته التالية بطريقة ذاتية . وعندما يقرأ القاريء ذلك الكتاب ، يبدي بعض أحاسيس أخرى غير تلك التي أراد المؤلف إظهارها . قد تصل إلى اتخاذ مواقف وتداخلات لم يتوقعها الكاتب . وهذا الأخير قد يأخذ موقفاً ويكتب مقالات لشرح ما أراد قوله . إنه لا يستطيع منع أي من القرَّاء من الوصول إلى شيء آخر في كتابه غير ما أراد وضعه . في العبرية ، كلمة خلْق تعني أيضاً (قطع) ، والقول بأن الله « خلْق » ، تعني أنه فصل الخلق عن خالقه مع إعطائه حكمه الذاتي . تساءل الربي « اسحق لوريا » واحد من أصحاب مبدأ الـ « الكابال Kabbale »* : (كيف يمكن وجود عالم به الله في كل شيء ؟) إذا كان الله موجود بكل ما هو محيط ، إذن فليس هناك مكان للعالم . وقد أجاب على ذلك بالاستعانة بنظرية تسيمتسوم (Tsimtsoum) للتراجع [٥] ، (الإخلاء) . فحسب لوريا ، كان العمل الأول لله هو الانسحاب من نفسه وعن نفسه ، لكي ما يصنع مساحة يمكن أن يوجد فيها .

وفي نهاية أول أصحاح من العهد القديم ، أتم الله الخلْق بإعطاء وصاياه للإنسان [٦] ثم تراجع إلى ثباته .

وفي بعض الأحيان يخرج الله من ثباته . الفصول القادمة ستظهر أن الله تدخل ليصحح ، ليدعو ، ليشرح كيفية معاملة الخلْق . ولكنه لا يستطيع منع البشر من سد آذانهم إذا ما أرادوا عدم الإصغاء ، لا يستطيع منعهم من اضطهاد إخوتهم ، ومن انغلاقهم على أحقادهم . لا يستطيع منعهم من الانغلاق داخل أبنيتهم إذا لم يريدوا أن يتقدموا ، الله لا يستطيع إرغام الإنسان على سماع كلمته .

حقيقة أن الله قادر على كل شيء ، لكن بما أنه هو الخالق ، فقد وضع الاختيار لترك بعض الحُكم للخليقة . لقد وضع الاختيار في عدم كونه القادر على بعض الأحداث في عالمنا ، ولكنه بكل بساطة دائم الوجود .

ولإدارة الخلق الذي وضع فيه ثقته ، فإن الإنسان يستطيع دراسة المكتوب وسماع كلمته حيثما تظهر . يستطيع أن يدعو الله ليرعاه ويعززه ، وأيضاً ليتدخل في العالم ، وهذا هو سبب الصلاة . ولكي يوكل الله الخلق للإنسان ، تعامل الله كالمالك الذي سلَّم ملكه لمديره وأعطاه الخيار وتركه حر التصرف لما هو أفضل .

---

(٤) *L'identité juive,* Seghers, Paris 1989, p.63.

(٥) in Gershom Sholem, ***La Kabbale,*** Cerf, collection patrimoines: Judaïsme, Paris 1998, p.220.

(٦) ***Soyez féconds et prolifiques, remplissez la terre, et dominez***- la (Gn 1.28).

* الكابال : أي القبلانية وهي طريقة تفسير اليهود للتوراة صوفياً ورمزياً حسب التقاليد كما كان القدامى يفعلون (المحرر) .

بداياتنا

الحياة تتشكل بالاختيار . إنها ثمرة بعض البدايات والتي قد يضعها شخص في خطته .

وحقيقة الإنسان هي أنه حر ، ولكن الإنسان الذي لا يختار أبداً ويظل في أبدية اللا قرار ، ولا يعيش الحرية ، فهو منقاد وراء الأحداث . إنه مثل الفلّين الذي تتقاذفه الأمواج ويحركه الهواء السائد . أن تكون حراً ، هو أن تختار .

تُحكي قصة عن إنسان ترك أهله ليقضي بعض الوقت بجانب أبوه الروحي . وعند رجوعه سأله أبوه ساخطاً عما تعلّمه . فأجاب الابن : لقد تعلّمت أن هناك خالقاً . فقال له أبوه : « إن هذا لم يكن يستدعي ترك بيتك ، فالكل يعلم أن هناك خالقاً » ، فشرح الابن : « الكل يقول ذلك ، لكن هل هناك من استطاع أن يتعلّمه ؟ » (٧)

يعترف التكوين بالله منذ بدء العالم . الإيمان هو خطوات الإنسان التي تضع الله في بداية وجوده . فإنه عندما يخطو خطوة ثقة فإن تاريخه الشخصي يصبح مماثلاً لتاريخ العالم ، فهو يتتابع بكل أحداثه من نجاحات وكوارث ، تقدُّمات وتراجعات ، صبر وفشل . لا يكفي أن نقرأ « في البدء خلق الله السماء والأرض » في الكتاب المقدس ، بل علينا دراستها أيضاً .

---

(٧) D’après Martin Buber, ***Les récits hassidiques,*** Editions du Rocher, Monaco 1978, p.291.

التسيمتسوم Le tsimtsoum

أطلق إسحق لوريا (التسيمتسوم) على التراجع الإلهي في نفسه لإخلاء مساحة ، وفيها يبدأ الخلْق في التعامل . في علّم اللاهوت المسيحي هذا الفعل قد حدث بالتجسُّد . وبالتحول لإنسان ، تنازل الله عن جزء من ألوهيته ليسمح للبشر بأن يعيشوا إنسانيتهم كاملة . لقد ترك سماءه لينضم للبشر ، وأيضاً لزيادة مساحة حياتهم . ويسوع المسيح ذهب إلى بداية ما بدأ في اليوم الأول (٨) .

وعندما تساءل التلاميذ عن الأكبر ، أجاب المسيح بأن الأكبر ليس من له القدرة بل هو الصغير والخادم لإخوته . على الصليب ، مات وحيداً ، تاركاً كل شيء . ترك يسوع كل ما لديه من مقدرة وسيادة . اعترف المسيحيون بأن موته يوجد حياة جديدة للإنسانية . لأنه في يسوع المسيح ، الله مات ، لنستطيع نحن العيش .

اليوم ، انطلق الكون . لم يعد الله هو الحاكم الذي يحكم مستخدماً مميزاته الإلهية ، لقد اقترب من الإنسانية تماماً ، إنه يمشي بجانب الإنسان ويدعوه ليقترب منه ، وذلك ليس لأن الإنسان يستحق بل أن دعوة الله للإنسان جاءت بينما الإنسان في قمة سقطاته .

(٨) في اللاهوت المسيحي ، ندعو هذه الحركة الـ *kénose* والتي تُعرف بالإخلاء

٢

ليكن نور

يزداد الضوء عندما يتكلم أحد

(فرويد Freud)

١- في البدء خلق الله السموات والأرض. ٢ - وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه. ٣- وقال الله ليكن نور فكان نور، ٤- ورأى الله النور أنه حسن، وفصل الله بين النور والظلمة. ٥- ودعا الله النور نهاراً والظلمة دعاها ليلاً. وكان مساء وكان صباح يوماً واحداً. (تكوين ١:١-٥).

بالعبرية ، كلمة « الليل *erev* » تعني فوضى وامتزاج ، ومن نفس الأصل أخذت كلمة douceur عذوبة ، فقد يكون هناك بعض العذوبة والحلاوة في العيش في الفوضى وشبه الظل الذي يفصل بين حالة الظلام والنور . عندما نكون في الظلام ونشعل النور ، تصدم أعيننا من كثرة الوهج ، ولكن النور ضروري للعيش والحركة .

هناك ثلاث كلمات تصف اليوم الأول للخليقة : كانت الأرض خربة وخالية – قال الله ليكن نور – وفصل الله بين النور والظلمة . ولنستمع لما يمكن أن تقوله لنا تلك الكلمات .

خربة وخالية

وقبل « خربة وخالية » تقول الترجمة التقليدية إن الأرض كانت « غير منتظمة وخالية » ، « صحراوية وخالية » أو « غامضة وخالية »[١] .

الكلمات العبرية المستخدمة للتعبير عن الأرض قبل خلق الله هي « tohu-bohu » « توهي –بوهي » .

(١) Selon respectivement la traduction de la Colombe, La TOB ou la Bible de Jérusalem.

فالأرض كانت « توهي – بوهي » .

عادة ، عندما نترجم كلمة غير معروفة تماماً ، نستخرج عدد المرات التي وردت في النص لمحاولة فهم المعاني التي شملتها . فاللفظ « توهي –بوهي » في الكتاب المقدس لا يستخدم بهذه الطريقة . إلا لوصف حالة الكون قبل حركة الخلق . وهذه الطريقة لا تعطي احتمالات كافية لمعرفة المعنى . إن الدراسة المتأنية للأصحاح الأول من العهد القديم ستسمح لنا بمعرفة البنية العمومية وإحاطة أفضل لمعنى هذه الكلمة . في ستة أيام تظهر خليقة الله تدريجياً ، وقد ظهرت الخليقة خلال الأسبوع الأول كما نعرفها . ولكن ومع الوقت والتغيير ، نستطيع خوض الطريق في الاتجاه الآخر غير الثابت ، وذلك لإعطائنا فكرة عما كان في الأصل .

في بداية الخليقة ، الله فَصَلَ . في اليوم الأول ، فَصَلَ النهار والليل . وفي الثاني ، فَصَلَ السماء والبحر . وفي الثالث اليابسة عن المحيطات . في أول الوقت ، كانت الخليقة إذن عمل تنظيمي . قبل فصل الله ، كان هناك ارتباك وامتزاج وهي خربة .

وفي الثلاثة أيام التالية ، عمَّر (ملأ بالسكان) ما فصله قبلاً . وفي اليوم الرابع ، عمَّر النهار والليل بالشمس والقمر والنجوم . وفي الخامس ، عمَّر السماء والبحر بالطيور والأسماك ، وفي اليوم السادس عمَّر اليابسة (الأرض) بالحيوان والإنسان . وقبل أن يعمِّر الله ما فصلهُ ، كانت الأرض خالية ، وساكنة ، فهذا هو الخراب . ولإدراك « التوهي بوهي » رجعنا إلى تقليد الربيين والذي يقول : إن الأرض كانت خربة في حالة فوضى . فإن « التوهي – بوهي » هو كيان مظلم وغير منتظم ، بارد وساكن .

وكلمة الله لم تخلق من الفناء ، إنها تنظِّم الخراب وتعمِّر الخلاء . وهذا التأكيد يبحث في سؤال جديد : ما هو أصل التوهي – بوهي ؟ ، هناك تفسيران يتعارضان :

- الأول يقول إن « التوهي – بوهي » خلقه الله في أول الوقت ، في هيئة تمهيد للخليقة .

وعندما قال العهد القديم : في البدء ، خلق الله السموات والأرض ، فهو يعني « التوهي – بوهي » الأول . لاحظ **راشي دي تروي**[٢] أن الفعل خَلَق (bara) في العهد القديم يتعلق دائماً بالله . إذن هناك حركة محددة لله وهي الخلق من الفناء . بدأ الله الخلق « بالتوهي – بوهي » من اللاشيء ، ثم رتَّب الخراب الأول بوضع النظام وبإعماره .

- التفسير الثاني يقول إن أول آية « في البدء ، خلق الله السموات والأرض » هي طريقة نوعية لتعلن عن الجدول لكل الأسبوع . إذن يجب فهمها على النحو التالي : « هكذا خلق الله السموات والأرض : اليوم الأول صنع هذا وذاك ، الثاني . . . » فإذا أخذنا بهذا التفسير ، فإن « التوهي – بوهي » هو مقدِّمة الخلق . الله لم يخلق من الفناء بل من الخراب والخلاء .

---

(٢) Rabbi Chlomo yitshaki وهو Rachi والذي وُلد وعاش الجزء الأكبر من حياته في تروي Troyes (١٠٤٠ – ١١٠٥) وقد كان من أكبر المفسرين اليهود للتوراة .

الموقف الأول يؤكد على سلطان وسيادة الله : لا يوجد شيء في الكون . وهذا الموقف هو ما نجده في بداية إنجيل يوحنا : « كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان » [٣] . **والموقف الثاني** يمثل الله في صراع ضد الخراب . وهي فكرة نجدها في سفر أيوب ، عندما أجاب الله الإنسان الذي سأل عن منبع الشر ، فكلّمه عن الخلق : « ومن حجز البحر بمصاريع حين اندفق فخرج من الرحم إذ جعلت السحاب لباسه والضباب قماطه وجزمت عليه حدي وأقمت له مغاليق ومصاريع وقلت إلى هنا تأتي ولا تتعدي وهنا تتخم كبرياء لججك »[٤]. ففي العهد القديم « التوهي – بوهي » هو الخراب المائي ، وسفر أيوب يتعمق في ذلك الرأي عندما تكلم عن كلمة الله الخالقة التي تقيم حاجزاً (جسراً أو سداً) لاحتواء الخراب .

وهذان الرأيان يتفقان في معارضة الفلسفة اليونانية القائلة « إن الأرض سرمدية الوجود » [٥] ، فالخليقة تقول إن الله خلق المادة .

وكما أنها ضد الرأي الذي يميل للقول إن الله بعيد أو غريب في الأصل عن العالم المادي [٦] ، إنه يتكلم عن الله الذي في حالة صراع دائم مع الخراب ، ليستطيع العالم العيش . وأياً كان فهمنا لأصل « التوهي – بوهي » فكلمة الله تظل هي التي وضعت النور في الظلمات ، ووضعت التنظيم في الخراب وعمَّرت الخلاء . واليوم فإن كل مظاهر الخراب والظلمات والخلاء تعتبر « ما قبل الخلق » . وعندما يظهر اللا ترتيب في أماكن كثيرة في العالم الحاضر ، فالظلمات تزداد في سجون الديكتاتورية . والخلاء يكبر في المعتقلات ، حيث أنه تحول عكس تيار خليقة الله . فهم يسعون لتكوين خليقة سلبية . الشر ، اللانظام ، الظلمة ، والخلاء فهذه غير منسوبة لله ، لقد تواجدوا من غياب الله .

قال الله: ليكن نور

ما هو ذلك النور الذي خُلق أولاً ؟ المقصود بالسؤال أن النور جاء قبل الشمس التي لم تكن قد خُلقت إلا في اليوم الرابع . أراد **هالي** الفلكي أن يدافع عن النص الكتابي فتكلم عن السديم الكوني ، هذه النجوم تقضي تماماً على الصعوبة الخاصة بالخلق في النص الكتابي ، وبأن النور لم يكن ممكناً أن يصدر بدون الشمس [٧]

تقترح التقاليد الربية قراءة أخرى : النور المخلوق من الله ليس هو النور الذي نعرفُه ، ولكنه انعكاس لمجد الله . وهناك تفسير يحكي أنه لكي يخلق الله النور لبس الله معطفاً وأخذ يرسل بريقاً من بهائه على الطرف الآخر من

---

(٣) يوحنا ١ : ٣ .

(٤) أيوب ٣٨ : ٨ – ١١ .

(٥) ترى الفلسفة اليونانية أنه : لا أحد من الآلهة أو البشر قد خلق هذا العالم ، لكنه كان موجوداً دائماً وسيظل كذلك .

(٦) بالنسبة لأرسطو ، الله هو فكر الفكر ، بمعنى الكمال المطلق ، في مقابلة أصيلة للعالم المادي أي عكس العالم المادي .

(٧) ذكر **إيلي مانك** في كتاب « صوت التوراة » ، العهد القديم ، مؤسسة صامويل وأوديت ليفي ، باريس ١٩٩٢ ، ص ٧ .

الكون . وبهذا التصور أعلنت الرؤويات أنه لن يكون هناك ليل على أورشليم السماوية [٨] . الليل يعبرّ عن مملكة الخراب والظلمات التي تحدد الخليقة . لا يتشابه ظهور النور مع ذلك الذي نقوم به عند فتح مكبس الكهرباء ، بل هو فعل ، والذي به أدخل الله الخلْق بكلمته ، ليطرد الظلمات . ونجد صورة شبيهة لذلك في قصة رواها **فرويد** وهي أن طفلاً كان خائفاً من الظلام فدعا خالتهُ التي في الغرفة المجاورة وقال لها : تكلمي معي فإنني خائف ، فأجابته خالتهُ : بماذا سيفيدك هذا ، حيث إنك لا تراني ؟ فأجاب الطفل قائلاً : يزداد النور عندما يتكلم أحد [٩] .

وبين العهد القديم وفرويد ، توجد مقدمة إنجيل يوحنا وقد ربطت الكلمة والنور بالقول إن المسيح هو في ذات الوقت الكلمة الخلاقة والنور القادم للعالم [١٠] . وفي الأناجيل ، نجد أن موضوع النور مشترك مع موضوع الحقيقة[١١] : فالبشر قد دُعوا للعيش في النور بينما أعداء الله يحبون الظلمات ، حيث يختبئون ، ويضعون حساباتهم الخاصة ، ويمشون في طرقهم المعوجّة . عندما قال المسيح : « لأنه ليس شيء خفي لا يظهر ولا صار مكتوماً إلا ليعلن » [١٢] . فكلمته هي مبعث الضوء . فهي النور في الظلمات ، الحق في الأكذوبة والكلمة في السكون . وموضوع النور يمتليء ببعد عقلي مثلما يظهر في تلك النصيحة الحكيمة من أم لابنها : في كل مرة تكون على وشك فعل أمر ما وتشعر أنك غير متأكد تماماً إذا كان أمراً سيئاً أم لا ، فعليك أن تتخيل أن هذا الفعل سيكون الخبر الأول بجريدة الغد . لو أن تلك الفكرة لا تؤثر فيك ، إذن فلتفعل[١٣] .

إن الكلمة العبرية التي تُترجم « النور » تعني أيضاً « الصباح » ، « الضياء » ، « البهاء » ، « السطوع » . ونور الله لا يقاس بالفولت أو الوات ، ولكنه ناتج من الكلمة المنيرة لتعطي معنى لأحداث الحياة . وهناك مثال يعطيه لنا زجاج الكنيسة الملون . فحياة البشر تتشابه مع تشابك قطع الزجاج الفاتحة مع الداكنة ، والخطوط المستقيمة مع المنحنية . بالنظر من الخارج يكون الزجاج داكناً ومعتماً ، ولكن عندما ما ندخل للكنيسة وتكون الشمس ساطعة بالخارج فنرى منظراً رائعاً بسبب أشعة النور المتلاعبة على قطع الزجاج المختلفة . وهي مثل حياة كل شخص : عندما تتعرض للنور الإلهي فإنها تتحول لقطعة فنية .

فصل الله النور في الظلمة . هذا هو اليوم الأول

ما هو معنى اليوم الأول ؟ . الذي يذكر « الأول » فكأنه يقول : إنه يوجد التالي ، ونحن نعلم أن الخلق

---

(٨) « ولا يكون ليل هناك ولا يحتاجون إلى سراج أو نور شمس لأن الرب الإله ينير عليهم » (رؤيا يوحنا اللاهوتي ٢٢ : ٥) .

(٩) *Introduction à la Psychanalyse*, Payot, Paris 1982, Petite Bibliothéque Payot 6, p.384.

(١٠) يوحنا (١: ١ -٩) .

(١١) لأن كل من يعمل السيئات يبغض النور ولا يأتي للنور لئلا توبخ أعماله وأما من يفعل الحق فيقبل إلى النور لكي تظهر أعماله أنها بالله معمولة (يوحنا ٣: ٢٠ -١٢) .

(١٢) مرقس ٤ : ٢٢ .

(١٣) Cité par Joseph Telushkin, *Le grand livre de la sagesse juive*, Calmann- Lévy, 1999, p.393.

سيتتابع في ثاني وثالث . . . وسادس يوم . ولكن ماذا كان يوجد قبل الأول ؟ والاعتراض الكلاسيكي (التقليدي) : إذا كان الله قد خلق العالم ، فماذا كان يفعل قبل الخلق ؟ أجاب آباء الكنيسة أنه قبل الخلق كان الله يُعد الجحيم .[١٤] تلك الإجابة تتعلق بأهمية الجحيم الكبير ، والذي لا يستحق الكثير . إن القراءة المتأنية للأصحاح الأول من العهد القديم تفتح حلقة جديدة .

وكما رأينا ، فالأسبوع الأول من الخلق مُقسم على جزئين . ثلاثة أيام حيث نظم الله « التوهي – بوهي » بأن قام بعملية الفصل ، وثلاثة أيام حيث عَمَّر ما فصل . الأيام مشتركة اثنان مع اثنين : الأول والثالث ، الثاني والرابع ، الخامس والسادس . اليوم الأول يتماثل مع اليوم الرابع حيث خلق الله الشمس والقمر والنجوم . وهو ما يعطي صدى جيداً لخلق النور . وتثبت القراءة المتأنية لليوم الرابع أن الله خلق الكواكب والنجوم لتنير النهار والليل . . وأيضاً لحساب الوقت . اليوم الرابع يوازي اليوم الأول ، ويُقترح أنه بخلق النور ، فقد خلق الله أيضاً الوقت . وهكذا نستطيع الإجابة على سؤال « ماذا يوجد قبل اليوم الأول ؟ » والإجابة هي أنه سؤال غير مناسب . إذ إنه قبل اليوم الأول لم يكن هناك وقت ، فلا نستطيع قول أي شيء كهذا[١٥] .

فإذا كان الله قد خلق الوقت ، فما هو غياب الوقت ؟ إن ذكاءنا عاجز عن إدراك الصغر اللامتناهي والكبر اللامتناهي وهي كميات يعجز الفكر الإنساني عن إدراكها سوى عن طريق النظرية . فإن ما ينطبق على الكميات والفضاء الكوني هو أيضاً صحيح بالنسبة للوقت . وبالعيش داخل الوقت ، فالإنسان لا يستطيع **إدراك** غياب الوقت .

هذا التأمل لليوم الأول يؤكد الفكرة التي استنتجناها في الفصل الأول : أنه بما **أن الله** فوق **الوقت ،** فنحن لا نستطيع قول شيء كهذا من خارج ما أظهرهُ عن نفسه . وحتى لا نكون مثل نملة تريد حل مسألة في علم الجبر ، فنحن نكتفي بالقول إنه منذ اليوم الأول بالعالم ، فصل الله النهار والليل ليضع **النور** في **العالم** .

---

(١٤) إيريني دي ليون كان لها في ذلك المجال الكثير من الحكمة بإحساسها بخشوع التقاليد الربية (بالنسبة للأسئلة : كيف دعا الله العالم من الفناء ليكون ؟ أو : ماذا كان يفعل الله قبل لحظة الخلق ؟ تلك هي أسئلة من وحي الفضول والتي يستطيع الله فقط الإجابة عليها (***Contre les hérésies*** ضد البدع الدينية) (II.28) .

(١٥) القديس **أغسطينوس** هو الأول الذي جرؤ على قول : « إنه من اليقين أن العالم لم يخلق في وقتٍ ، بل مع الوقت » (***La cité de Dieu***, XI.6, Bordas, Paris 1979, p.102) . إذن نستطيع القول إن البحر والوقت لهما نفس العمر . فالوقت يعد من خليقة الله ، وليس خارجاً عنه . ومع أخذ هذه الأبعاد في الفكرة اليونانية التي وضعها **أرسطو** والقائلة إن الوقت أزلي (أبدي) ، فإن اغسطينوس أعطى معنى إيجابياً للقصة . فقد أجاب على سؤال لبدء الوقت ، فأب الكنيسة قد عرف بتأمل كتابي ، حقيقة افترضت اليوم كما لو كان ذو قيمة علمية .

لغز الوقت

طالما كان مولد الوقت لغزاً فلسفياً . فبكل تأكيد تعلمنا كيفية قياس الوقت ، ولكن ماذا نستطيع قوله عن طبيعته ؟

إدراكنا للوقت متغير ونسبي : ففي اللحظات غير المهمة من حياتنا ، يكون الوقت وكأنه ممتد والدقائق تمر كالسنين ، ثم عندما نكون متعجلين ، يمضي الوقت بكل سرعة . أثبت « **كانط** Kant » أن الوقت غير موجود في الأشياء ، بل في الإنسان : فالوقت لا ينشأ إلا عند اللحظة التي يكون هناك إنسان يؤمن بالوقت .

يقول العلماء إن العالم بدأ منذ خمسة عشر مليارا من السنين ، ولكن ماذا يعني ذلك ؟ من ناحية العلم فإن بعض مليارات السنين هي تصور رياضي ، ولكن بالنسبة للإنسان نحن غير قادرين على إدراك معنى هذا العدد مقارنةً بخبرتنا الإنسانية .

وإذا أخذنا بكلام كانط ، فإن الكلام عن الوقت منذ بضعة مليارات السنين ليس له معنى حيث أنه لم يكن هناك بشر ، وبالتالي لا نستطيع أن نفهم الوقت .

لقد توجهنا بالسؤال لأحد علماء الـ « إثنولوچي » وهو علم أصول السلالات البشرية ومميزاتها : متى ظهر الإنسان الذي يعرف الوقت ؟ فأجاب : منذ حوالي ستة آلاف سنة ، احتمال أقل قليلاً . وحسب التقويم اليهودي عام ٢٠٠٠ هو عام ٥٧٦٠ [١٦] .

(١٦) D'après Chlomo Aviner, *Le verger de Joël*, éditions Sifriat 'Hava, Beth-El Israël 5754, p.200.

نسبية الوقت

في مقابلة بين بالغ وشاب صغير حيث الحياة عند المنعطف .

طلب الشاب من محدثه أن ينظر إليه وأعلن له متفاخراً :

انظر ماذا وجدت ؟ وقدم له كراسة عليها رسم لمربعات صغيرة : كل يوم ، أقوم بتظليل واحد من تلك المربعات .

– وما هي غايتك ، ماذا يحدث عندما تنتهي من تظليل كل تلك المربعات ؟

– لا شيء ، أبدأ من جديد في صفحة جديدة .

– إذا كنت لا تنتظر شيئاً ، فلماذا تقوم بهذا ؟

– لا شيء ، حتى يمضي الوقت أسرع !

هذا الانطباع الأخير يشهد على الغياب الأكبر لله . هذه هي صورة للوحدة الكاملة ، في عالم حيث الوقت ليس له أي ثقل ، ولا أي اتجاه ولا أي معنى . إنه عدم الاختلاف . الكل متشابه ، الكل مظلم . . هذا هو الليل الخراب (التوهي – بوهي) .

● قصة أخرى تحكي قيمة الوقت . مقابلة بين بائع وأمير صغير

الأمير الصغير : صباح الخير .

البائع : صباح الخير .

(كان البائع يبيع حبوب مصنّعة لتسكين العطش) ، وقال للأمير : عندما تبتلع واحدة من هذه الحبوب أسبوعياً ، تشعر بعدم احتياج لشرب الماء .

سأله الأمير : لماذا تبيع هذا ؟

فقال البائع : إنه اقتصاد كبير للوقت ، فقد قام المتخصصون بعمل حساباتهم ، وبذلك نوفر ثلاث وخمسين دقيقة أسبوعياً .

– وماذا نفعل بتلك الثلاث والخمسين دقيقة ؟

– نفعل بهم ما شئنا .

ويتمتم الأمير الصغير قائلاً : لو كنت أمتلك تلك الثلاث والخمسين دقيقة ، لكنت تمشيت بكل هدوء في اتجاه نافورة ماء [١٧] .

---

(١٧) Antoine de Saint-Exupéry, *Le Petit Prince*, Gallimard.



٣

خلق السماء والأرض

جمال الدنيا، هي ابتسامة الله لنا، عبر المادة

(سيمون ويل Simone Weil)

٦- وقال الله ليكن جلَد في وسط المياه وليكن فاصلاً بين مياه ومياه. ٧- فعمل الله الجلَد وفصل بين المياه التي تحت الجلَد والمياه التي فوق الجلَد، وكان كذلك، ٨- ودعا الله الجلَد سماء وكان مساء وكان صباح يوماً ثانياً. ٩- وقال الله لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد ولتظهر اليابسة وكان كذلك. ١٠- ودعا الله اليابسة أرضاً ومجتمع المياه دعاه بحاراً، ورأى الله ذلك أنه حسن. ١١- وقال الله لتنبت الأرض عشباً وبقلاً يبزر بزراً وشجراً ذا ثمر يعمل ثمراً كجنسه بزره فيه على الأرض وكان كذلك. ١٢- فأخرجت الأرض عشباً وبقلاً يبزر بزراً كجنسه وشجراً يعمل ثمراً بزره فيه كجنسه. ورأى الله ذلك أنه حسن. ١٣- وكان مساء وكان صباح يوماً ثالثاً. (تك ١:٦- ١٣).

الكائن البشري يولد ويحيا ويموت . وفي بعض الأحيان عليه أن يتقدم وفقاً لإرادة أهله ، ويعيش لبعض الوقت في ذاكرة من عرفوه . الحياة البشرية هي قصة تُكتب في (الوقت) وهذا هو السبب الذي من أجله خلق الله الوقت في أول يوم بالعهد القديم .

ما بين ميلاده وموته ، يحتاج الإنسان إلى بُعد آخر ليعيش كل لحظة من تاريخه (قصته) . ليدخل في علاقة ، لينظر ، ليقابل ، ليعمل ، ليتحرك ، . . . إنه بحاجة لفضاء كوني .

وبعد خلق الوقت الذي به سجلت حياة الإنسان . خلق الله الفضاء الكوني والذي أظهر فيه النشاط الإنساني .

السماء والأرض

قبل الخلق كان الكون « توهي – بوهي » والذي يظهر في صورة الخراب الصحراوي ، غير المنتظم ، الرطب والمظلم . خلق الله بكلمته بوضع النظام في اللانظام ، وترتيب في المتبعثرات . وبعد أن فصل النور عن الظلمة ، فصل المياه عن المياه ليظهر اليابسة التي أسماها بالأرض . في الخرائب المائية « بالتوهي – بوهي » ، صنع الله في اليوم الثاني ، ما يشبه الكرة الهوائية . لقد صنع الفضاء الكوني ، الهواء الذي نستنشقه والسماء التي نتأملها[١] كان القدماء يتصورون القبة السماوية مثل جرس كبير حيث النجوم متدلية .

وفي اليوم الثالث اهتم الله خصيصاً بالماء في الأسفل . فقد فرّقها ليظهر اليابسة وهي الأرض ، والتي نمشي عليها . وهي مغطاة بالعشب والأشجار ، وكلها تبزر حسب جنسها . الأرض خُلقت على خطوات ثابتة .

وفي مساء اليوم الثالث ، خلق الله الهواء للتنفس والأرض للتحرك ، والغذاء للتغذى وزُرعت النباتات ، كل شيء جاهز لاستقبال الكائن الحي . الرجل والمرأة سيكون لهما أرض ليمشيا عليها وسماء ليتأملاها .

الأرض هي المادة ، الجمود ، الملموس ، الحياة البيولوجية . السماء تطرح الأسئلة ، وترمز للروحانية . الإنسان يبحث فيها عن معنى لوجوده ، وسبب لعيشه ، وكلمة لتواجه الموت . وبملاحظة السماء ، يتساءل الإنسان عن أصله ، موقعه في الدنيا ، ومصيره . ويتأملها ويطرح سؤال الألوهية .

الله والطبيعة

خلْق السماء والأرض يعكسان الطبيعة والطريقة التي يتكلم بها الله ، وداود النبي قد أشركنا في ابتهاجه : « السموات تحدث بمجد الله . والفلك يخبر بعمل يديه »[٢] . ومن بين القُرّاء الذين قرأوا هذا المزمور ، كثيرون يشعرون بلغة الطبيعة وكان بإمكانهم كتابة تلك الآية . رجال ونساء اكتشفوا طريقة لتأكيد وجود الله عن طريق تأملهم للخلق .

وفي كتاب الذكريات[٣] ، يحكي « ايلي ويسل » أنه رافق قائد أوركسترا أوروبي في سفره لأول مرة للولايات المتحدة . وفي اليوم الأول الذي أخذه لزيارة الوادي الضيق الكبير بكلورادو ، توقف الموسيقار أمام منظر ، ظل ثابتاً

---

(١) توجد نفس الفكرة في الميثولوجي (علم الأساطير) اليوناني . چايا وهي الأرض الأم تحمل كلا من التميز والتفرقة في الخراب الأول وهي تتحد مع « أورانوس » السماء النجومية ، ولكن هذا الأخير أحاط الأرض بأكملها ولم يترك أي مساحة لكي يسمح لأبنائهم بالمجيء للوجود . وچايا محملة بثمار تزاوجها ولكنها لا تلد . وكان أحد أولادها كرونوس قد صنع منجلاً وبتر أورانوس . فأطلق هذا الأخير صرخة ألم ، وترك چايا ، وبهذا أُطلق سراح جزء ليسمح « للتيتان » بالمجيء ، تحرر « الفضاء الكوني » . « وكرونوس » « Cronos » الذي هو الوقت أصبح بإمكانه المجيء . هذه القراءة تذكرنا « بالتسيمتسوم » عدا أن الرجوع لم يكن اختيارياً بل قهرياً . وفي الميثولوجي اليونانية لم يكن الخلْق من صنع الله الذي صنع « الفضاء الكوني » ليسمح للبشرية بالوجود بل هي ثمرة الصراع بين الآلهة . أما القهر الأوّلي فلن يبقى بلا عقوبة ، بما أن بتر « أورانوس » قد ترك نقاط الدم التي تعطي الحياة للإرينيس ووظيفته المحافظة على ذكرى العار . تلك هي آلهة الانتقام من الجرائم المرتكبة ضد أصولهم .

(٢) (مزمور ١٩ : ١) .

(٣) *Tous les fleuves vont à la mer,* Seuil, Paris 1996.

لبعض الوقت مع الالتزام بالسكوت . . وأخذ يصفق دون الوصول للوادي الضيق . كان منظر الجبل ، وغروب الشمس على البحر ، وسرب الفراشات على حقل الخشخاش البري حيث صوت همس في الغابة ، يدعو أي شخص للقول بدوره : براڤو للفنان الذي أبدع كل هذا !

الطريقة التي يظهر بها الله عن طريق تأمل الطبيعة أو أبعاد الكون ، تسمى « علم لاهوت الطبيعة » ، وقد عرَّفه **كانط** Kant عندما قال : « شيئان يملآن قلبي بتأمل وباحترام دائمين متجددين ومتزايدين هما سماء النجوم فوق ، والقانون العقلي فيَّ » (٤) .

الإعلان الطبيعي قد يشير معنوياً إلى يسوع المسيح . فعلى قدر فلسفة « باسكال Pascal » ، فإن اللاهوتيين يعتقدون أن إله الفلاسفة والعلماء (وأيضاً المتحابين والشعراء) لن يسمح أبداً للإنسان بالدخول إلى قلب الإعلان الكتابي . تأمل الطبيعة تحدثنا عن عظمة وجمال الله ، ولا يحدثنا أبداً عن الله المتحد مع البشرية . لا شيء في الطبيعة يوجد فكرة الله الذي اقترب ، والذي يدعو للتغيير ، والذي مات على الصليب لحبه للإنسان . وعندما قال بولس عن الصليب أنه فضيحة وحماقة(٥) فلنتذكر أن كلامه يعود على حكمة البشر ، وأن الصليب غريب عن منطق البشر . اللاهوت الطبيعي هو النظام الذي يقوم عليه الدين أي أنه « بحث الإنسان عن الله » ، بينما يتكلم المكتوب عن أعمال الله لخدمة الإنسانية ، وهناك تعريف للإيمان يقول إنه : « القبول الكامل لكل ماهو غير مقبول » . هذا التقريب لم ينبع أبداً من الإعلان الطبيعي والذي يتكلم عن عظمة الله وصغر الإنسان .

فإذا كان اللاهوت الطبيعي لا يسمح بالدخول إلى قلب الإعلان الكتابي ، فهو يجد مكانه في النقطة التي يتلقى فيها الإيمان – والذي يكتشفه المسيحيون – في يسوع المسيح .

● قبل يسوع المسيح ، كان تأمل الطبيعة يجلب ما نستطيع تسميتهُ بـ« ما قبل فهم » الله . فهو يوقظ قلب الإنسان على حساسية روحية والتي تطرح سؤال الألوهية . فهي تدفعه لفتح الكتاب المقدس للبحث عن هذا الإله الذي يستشعره . وهي تقوده لفتح يديه وقلبه ليكتشفه . ألا تتكلم النصوص عن الله الذي يترك نفسه للاكتشاف ، والذي يجيب عمن يدعوه ؟

● بعد يسوع المسيح ، وعندما يستقبل الإنسان ويقبل كلمة الإيمان ، فإن التأمل في الخلْق يدفعه إلى التمجيد والتعبد ومعرفة عظمة الله وجلاله . ويذكِّره بأن الله غير محدود ، وأنه أيضاً فوق ما يستطيع تخيله . وأمام تعقيد الخلْق وتوازنه ، والآيات الكونية والبيولوچية ، بدءاً من المجموعات الشمسية إلى أصغر الخلايا الحية . . فإن الإنسان لا يستطيع سوى الانحناء أمام تلك العظمة . وعندما يدرك أن هذا الإله هو الذي ذهب إلى الصليب ، لأن كل

---

(٤) Théophile d'Antioche : أحد أباء الكنيسة وهو ثاوفيلس الأنطاكي تأمل التنوع المحبب للطبيعة : تنوع الأجناس ، النبات ، والفاكهة ، حشد المخلوقات من الحيوانات ذوات الأربع والعصافير والزواحف . وغريزة الحيوانات التي أعطيت لهم للتكاثر وإطعام صغارهم ، ليس لمصلحتهم بل لمصلحة الإنسان . (الكتاب الأول) ، *La femme et les Pères de L'Eglise* « المرأة وآباء الكنيسة » ، DDB ، باريس ، ١٩٩٧ ، ص ١٩ .

(٥) رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس (١ : ٢٠ – ٢٥) .

شخص هو ثمين في عينيه ، إذن فنعم التمجيد والتعبد ، لكن ليس بكلمات باطلة ! !

يتساءل الإنسان في المزامير « فمن هو الإنسان حتى تذكره وابن آدم حتى تفتقده ؟ » وقد أجاب الإنسان في نفسه ، صنعت أنت إلهاً ، توجته بالمجد والبهاء . ومعه يبتهج : أبدي هو إلهنا ، يتمجد اسمك في كل الأرض[٦] .

تكلم يسوع عن الطبيعة مرتين ليعلّم تلاميذه : في الموعظة على الجبل ، دعاهم ليحبوا كل البشر ، إذ أن الشمس تشرق فوق الجميع والمطر يسقط على الكل . وبعد ذلك بقليل دعا المؤمن ليترك اهتماماته مع أخذ مَثَل عن بساطة عصافير السماء وورد الحقول .

الشمس والمطر

«أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلي مبغضيكم وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم. لكى تكونوا أولاد أبيكم الذى فى السموات فإنه يشرق شمسه علي الأشرار والصالحين ويمطر علي الأبرار والظالمين[٧] » . الله هو سيد الخلق ، وبهذا عارض كل المحاولات لوضع حدود وموانع بين البشر ، الأجناس والديانات . إن قول الله (في البدء) هو الاعتراف به كخالق لكل الأرض ، كل البلاد وكل البشر .

وثمة مَثَل يُحكى عن قصة غابة بها عصافير تغنّي في الصباح وحيوانات تتنزّه بالليل ، الأشجار تثمر والزهور تتفتح وكل أنواع الخليقة تعيش بكامل الحرية . وكل ما كان موجوداً فيها كان يقتاد إلى الاتحاد . وكان هذا هو بيت الله حيث يسكن في سكون الطبيعة وجمال الخلْق . ثم يأتي عصر عدم الإدراك ، حيث يصبح ممكناً للإنسان أن ينشيء عمارات بارتفاع آلاف الأقدام ، ويدمر الأنهار والغابات والجبال . في غضون شهور صنع الإنسان أماكن للعبادة من أشجار الغابات وصخور مسحوبة من أسفل تربة الغابات ، أجراس وأبراج ومآذن تعلو في السماء . وامتلأ الهواء بأصوات الأجراس ، والغناء ، والعظات . ومنذ ذلك اليوم . . . لم يعد هناك بيت لله[٨] .

وعندما دُعي بولس ليأخذ الكلمة في أريوس باغوس في أثينا خاطب الفلاسفة بدءاً من إدراك الله الذي يمكن لمستمعيه أن يفهموه : « الإله الذي خلق العالم وكل ما فيه هذا إذا هو رب السماء والأرض لا يسكن في هيا كل مصنوعة بالأيادي ولا يُخدم بأيادي الناس كأنه محتاج إلى شيء إذ هو يعطي الجميع حياة ونفساً وكل شيء ، وصنع من دم واحد كل أمة من الناس يسكنون على كل وجه الأرض ، وحتم بالأوقات المعينة وبحدود مسكنهم »[٩] .

القول بأن الله خالق يعني بأنه خالق شامل . وهذا يعني ؛ أن كل البشر إخوة ، حيث إن الله يشرق شمسه

---

(٦) مزمور ٨ : ٥ و ٦ و ١٠ .
(٧) متى ٥ : ٤٤ –٤٥ .
(٨) Raconté par Anthony di Mello, ***Dieu est là dehors***, DDB, Paris 1995, p.55.
(٩) أعمال الرسل (١٧ : ٢٤ –٢٦) .

على الصالحين والأشرار . في كل مرة يقر فيها أي دين من الأديان مبدأ التفرقة بين البشر –ولسوء الحظ هذا ما يحدث دوماً– فهو يخون دعوة الله خالق السماء والأرض .-

الزنابق والعصافير

« لذلك أقول لكم لا تهتموا بما تأكلون وبما تشربون ولا لأجسادكم بما تلبسون . أليست الحياة أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس . انظروا إلى طيور السماء ، إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن . وأبوكم السماوي يقوتها ألستم بالحري أفضل منها . ومن منكم إذا اهتم يقدر أن يزيد على قامته ذراعاً واحداً . ولماذا تهتمون باللباس ، تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو ولا تتعب ولا تغزل . ولكن أقول لكم إنه ولا سليمان في كل مجده كان يلبس كواحدة منها »[١٠] .

بما تتصف الزنابق والعصافير في هذا النص ؟ إنه ليس الجمود كما يتضح منا القراءة السطحية . فعندما نلاحظ عصافير باحثة عن طعام ، فهي لا تعطي الإحساس بالتراخي . وإذا كانت الزنابق تستطيع التكلم ، لتكلمت عن العمل الشاق الذي تبذله لتغرس جذورها الضعيفة في أرض صلبة جداً . الصفة الأولى لطيور السماء وأزهار الحقول هي تواضعهم . إنهم يظلون في مكانهم بالطبيعة ، إنهم لا يبحثون عن التحول لشيء آخر سوى ما هم عليه . وبملاحظتهم يتعلم الإنسان الخشوع ، إذ يفهم أنه ليس أعظم من الله بل هو مخلوق من خلائق الله بحسب خطته . فالعالم ليس ثمرة تخيل الإنسان ولا مجهوده . ولأن العالم خلق قبله ، فالعالم لا يخصه بل يخص صانعه . في العبرية ، كلمة « الصحة » Beriyout والصحة (صحي) هي Bari . تلك الكلمات هي من نفس الأصل لفعل (خلق) (Bara) وكلمة (Berriya) والتي تعني « خلق العالم » ، وبالنسبة للفكر العبري ، أن تكون في صحة جيدة تعني أن تعتبر نفسك واحداً من المخلوقات في هذه الخليقة .

أمام عظمة ودقة الكون ، وجمال وكَرَم الطبيعة ، دُعي الإنسان للخشوع والمسئولية . وهذا هو ما قاله بولس الرسول عندما أعلن أن الله يظهر في الخلق ، والذين لا يعرفونه هم متأثرون بكبريائهم وضائعون في أفكار خاطئة[١١] .

الخلْق يتكلم ، يكفي أن نكون على مسمع لما تقوله الشمس والمطر ، العصافير والورد ، إنهم يتركون رسالة أُخوَّة وكلمة خشوع .

---

(١٠) متى ٦ : ٢٥ –٢٩ .

(١١) رسالة بولس إلى أهل رومية (١ : ١٨ –٢٣) .

الحق في السعادة

الخلق هو هبة ، هو عطية ، والإنسان له الحق بالتنعم بها ، له الحق في الوجود . . الحق في السعادة . حتى لو تظاهر (بأنه) متواضع وغير مستحق ، فتلك الرسالة أساسية : لك الحق في الحياة ، لك الحق في السعادة .

كان « سيمون بار يوهي Simeom Bar Yahai » طبيباً يهودياً عاش في القرن الثاني من عصرنا . حُكم عليه بالموت على يد الرومان ، وقال التاريخ إنه عاش لمدة اثنى عشر عاماً داخل كهف يختبيء داخله . وقد استثمر ذلك الوقت لأعمال دراسته . وعند السنة الثانية عشر ، علم بموت الإمبراطور الذي حكم عليه . فخرج من الكهف ورأى مزارعاً يحرث الأرض . فقال له : ألا تخجل من نفسك ! كيف تستطيع أن تمضي وقتك في حرث الأرض بينما تستطيع أن تمضيه لدراسة التوراة ؟ وعندها نزل صوت من السماء قائلاً : « بار يوهي ، بار يوهي » ، لقد خلقت العالم ، إنه ليس لك وحدك فلا تدمره بهذا الفكر[١٢] .

معرفة الله الخالق ، هو إعلان يقول إن لكل إنسان مكانه في العالم ، ليعيش فيه وليزرعه . . وليحب . إنه لا يحتاج أن يكون قديساً أو زاهداً أو حتى بطلاً : لقد أُعطي الخلق ، كي يُعاش بالمعرفة والخشوع . يوجد نوع من الحكمة الطبيعية في الطبيعة ، وهي تكفي الإنسان ليوجه حياته .

(١٢) D' après le ***Talmud de Jérusalem*** Traité Shabbat 33b.

هل من المحتمل أن يكون الله موجوداً؟

« نستطيع القول إن الخلق هو ثمرة الصدفة . ولكن إمكانية ذلك لا تزيد عن إمكانية أن يضرب قرد على لوحة مفاتيح الكمبيوتر فيكتب بالصدفة البحتة رواية « الجريمة والعقاب » لديستوفسكي !

ذهب فيلسوف عقلاني ذات يوم ، ليرى الحكيم السيد « حاسيدي يتزاك دي برتشيف Hassidique Yitzhak de Bertichev »* . فوجده يقرأ كتاباً ويتأمل فيما يقرأه ، وقد بدا أن الحكيم لا يلحظ وجوده ، وبعد لحظات رفع الحكيم عينيه وقال : « قد يكون ذلك صحيحاً بالرغم من كل شيء » !! ثم عاد لدراسته . وعندما بدأ الفيلسوف في المناقشة ، أجابه السيد : « كبار علماء التوراة والذين تحدثت أنت إليهم ، قد أضاعوا وقتهم (ونشف ريقهم) معك ، وأنت لم تفعل شيئاً سوى الضحك على كلماتهم ، ومن بعدها ذهبت وراء فكرك أنت ، لم يكن باستطاعتهم أن يضعوا ملكوت الله على تلك المائدة ، ولا حتى الله نفسه ، وأنا أيضاً لست قادراً . فإذن ليس أمامي إلا شيء واحد لأقوله لك : قد يكون ذلك صحيحاً بالرغم من كل شيء » ! أراد الفيلسوف العقلاني أن يستوضح الإجابة ، لكنه لم يستطع .

فقط كلمة واحدة وهي : « محتمل » ، حُفظت في أعماقه وتركته دون كلمات[١٣] . فلم يُثبت الخلْق لكثيرين شيئاً . ولكنه يطرح سؤال الله ، إن الخلْق يقول « محتمل » ، هذا الـ« المحتمل » يجب أن يقود الإنسان للبحث بأكثر بُعداً .

الإيمان هو أكثر من بحث عن الله ، إنه معرفة الله .

---

(١٣) Martin Buber, *Les récits hassidiques*, Editions du Rocher, Monaco 1978, p. 318.

* هناك استخدام لكلمة حاسيدي بمعنى « إنسان تقي » وهو المقصود هنا (المحرر) .



٤

مكان الكواكب

لا يولد أحد تحت نجمة خاطئة، بل هناك أناس لا يستطيعون قراءة السماء

(دالاي لاما Dalaï Lama)

١٤- وقال الله لتكن أنوار في جَلَد السماء لتفصل بين النهار والليل. وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين. ١٥- وتكون أنواراً في جَلَد السماء لتنير على الأرض. وكان كذلك. ١٦- فعمل الله النورين العظيمين. النور الأكبر لحكم النهار والنور الأصغر لحكم الليل والنجوم. ١٧- وجعلها الله في جَلَد السماء لتنير على الأرض. ١٨- ولتحكم على النهار والليل ولتفصل بين النور والظلمة. ورأى الله ذلك أنه حسن. ١٩- وكان مساء وكان صباح يوماً رابعاً (تك ١: ١٤- ١٩).

كلمة « نجم » في اليونانية « Aster » وفي اللاتينية « Sidus » ومن كلمة « Aster » جاءت « Desastre » أي مصيبة ، وهي الحدث الكائن تحت نجم خاطيء . ومن كلمة « Sidus » جاءت « Désir » أي الرغبة وهي الحنين للنجم ، والاشتياق إليه . وما بين الحنين والمصيبة ، هناك دائماً نور في أعين البشر عندما ينظرون للسماء ، ولكن ما هو مكان النجوم في خلْق الله ؟

بعد مقدمة الترتيب والتنظيم في الخراب في أول ثلاثة أيام للخلْق ، عمَّر الله ما فصلهُ في الجزء الثاني من الأسبوع . في اليوم الأول ، خلق النور ليفصل بين الليل والنهار وحدد بدء الوقت .

وفي اليوم الرابع ، دعا الله الشمس والقمر والنجوم لكي ترأس النهار والليل ، وتحدِّد الوقت وتنير الأرض .

الكواكب

يقع مركز الكواكب في تلك الآيات كأعمال الله المخلوقة لتعطي النور وحساب الوقت ، تلك الفكرة تدخل في تضاد مع أديان الجماعات المحيطة بإسرائيل في ذلك الوقت .

ففي مصر ، الشمس هي الإله « رع » الذي يحكم العالم ويرأس الآلهة الأخرى ، وكان أكثرهم أهمية « حورس » و« أوزوريس » . وفي بلاد ما بين النهرين ، فالآلهة الأساسيون يمثلون الأرض والسماء والمحيط (البحر) ثم تأتي آلهة القمر والشمس والنجوم . نشأ في مصر وبلاد ما بين النهرين أكبر حضارتين في الشرق الأوسط وكلاً من الحضارتين يتميزان بمميزات كونية مختلفة ، ولكنهما يتقابلان في ألوهية الكواكب . وبالتفكير في أهمية الشمس التي تعطي في ذات الوقت النور والحرارة ، ندرك لماذا صُنع لها تمثال مخصوص في الديانات القديمة . في العصور القديمة ، وعلى الأسوار المحيطة بالمدن ، يترقب الحرَّاس الفجر تحت نجوم السماء وهم يتساءلون هل ستسطع الشمس مرة أخرى ؟ هل ستظل تمنح نعمة نورها أم أن العالم سيظل دون تحديد في الظلمات[1] . عندما يُسطر الأفق أول شعاع نور ، يعلن قيام الشمس ويحمل وعداً بيوم جديد . وأمام الطابع المقلق والأليم الذي يوحي بهما الليل ، فإن تأليه الشمس كان أسلوباً لطرد المخاوف التي تنتج عن اختفائها .

وبعكس تلك البيانات الدينية ، فالعهد القديم يقدم الشمس والقمر والنجوم كأعمال الله التي خلقها لتحديد الوقت وإنارة الأرض ، بذلك لايجب عبادة الكواكب بل تأملها .

تلك المقدسات الكونية هي الشرط الأول في كل الأبحاث العلمية . في القرن التاسع عشر ، كان المفكر « أوجست كانط August Cante » واحداً من الأوائل الذين أوضحوا علاقة اليهودية – المسيحية في تاريخ الحضارات والتي سمحت بتقدم العلم وذلك بتأمل الطبيعة[2] . الطبيعة ليست شيئاً إلهياً يجب عبادته ، فهي نفسها من الخليقة حيث يستطيع الإنسان تأملها تحليل مكوناتها دون أن يخشى غضب الآلهة .

القَدَر والحرية

عبادة الكواكب مشتركة في فكرة القَدَر ، وهي كلمة ذات شأن كبير في علم الأساطير (mythologie) اليوناني . واحدة من الصور الجميلة التي توضح صفات القَدَر الذي لا يقاوم توجد في أسطورة « أوديب Oedipe » . كان « لايوس Laïos » ، ملك « التاب Thébes » وامرأته « جوكاست Jocaste » قد عرفا من النبوة أن ابنهما أوديب سيقتل أباه ويتزوج بأمه . ولكي يهربا من القَدَر ، وضعا الطفل بعد ولادته على جبل . فوجده راعي غنم وتبنَّاه ملك « كورينس Corinthe » . وكبر أوديب ، وجاءته النبوة نفسها ، ولكنه كان يعتقد أن أهله الحقيقيين هما الزوجان اللذان تبنَّياه ، فقرر أن يهرب ليتخلص من تلك النبوة المشئومة . وفي طريقه ،

---

(١) في الكتاب المقدس ، هناك مزمور حول توقُّع البحث عن الله : نفسي تنتظر الرب أكثر من المراقبين الصبح أكثر من المراقبين الصبح (مز ١٣٠ : ٦) .

(٢) *Philosophie de Aciences*, Gallimard, Paris 1996.

قابل مسافراً حيث تشاجر معه وقتله . وقد كان لايوس Laïos أباه الحقيقي ، ولكنه لم يعرف . ووصل إلى « تاب Thèbes » ، وحل ألغاز « الوحش Sphinx » . وهكذا هزم الوحش . وكمكافأة له دعاه أهل المدينة للصعود على العرش . وتزوج بجوكاست التي هي أمه .

تلك القصة التراجيدية توضح مقياس أنه على قدر الهروب من القَدَر ، يقوم أوديب « Oedipe » بتحقيقه .

وبمواجهة المصير المسحور ، يقول التلمود (Talmud) إن الكواكب لا تؤثر على إسرائيل [٣] . فكلمة « إسر–ئيل » مكونة من جزءين في العبرية ، الأولى تستدعي فكرة التسلط والسيادة ، والثانية تدل على الله الذي يحكم ويحدد الكون . واحدة من المعاني لكلمة إسرائيل تعني الأقوى من القَدَر ، الذي يعلو ما هو مكتوب في الكواكب والنجوم . ليس لإسرائيل أن تخضع لقَدَر معين ، حتى إذا ما كان مكتوباً في النجوم . إن إسرائيل ، هي إعلان حرية الإنسان من وجه القَدَر المكتوب في النجوم . ويظهر من النصوص أن الإنسان دُعي للحرية وهو يجب أن يخرج من المصير ليدخل في التاريخ ويبني المستقبل . وقد ورد في التثنية ما يمنع تقديم السجود للشمس والقمر والنجوم ، أي عدم عبادتها .

تقول الآية بدقة : «**ولئلا ترفع عينيك إلى السماء وتنظر الشمس والقمر والنجوم كل جند السماء... فتغتر وتسجد لها وتعبدها**»[٤] . وذلك يعني أن الشهوة موجودة وأنها قادرة . نعم ، هذا صحيح ، رغبة الإنسان في الاعتقاد أن مصيره وتاريخه قد تم كتابته نوعاً ما ، وليس عليه سوى التحمل ، هي رغبة كبيرة ، أي الشهوة التي تقول إنه مدعو ليكون متفرجاً على قَدَره ، عن أن يكون بانياً طريقه !

تكلم الله مع إبراهيم في رؤيا ذات يوم . وقال له « لا تخف يا أبرام ، فأنا ترس لك » . ولكن أجاب الأخير : « أيها السيد الرب ماذا تعطيني وأنا ماضٍ عقيماً » . وهكذا جدد الله له الوعد بالنسل . ثم أخرجه للخارج وقال انظر إلى السماء وعدّ النجوم إن استطعت أن تعدّها »[٥] . وفي تفسيره قال (راشي التروي Rachi de Troyes) عندما دعا الله ابرام ليخرج من خيمته ليتأمل النجوم ، فيمكننا أن نفهم الدعوة بالطريقة التالية : اخرج من قَدَرك والذي هو مكتوب في النجوم ، لقد نظرت في الكواكب أنك لن تُرزق بأطفال . ولذلك ، فأبرام لا يجب أن يكون له طفل ، ولكن سيكون له ، سارة لن يكون لها طفل ، ولكن سيكون لها واحد ، سأعطي لكليكما اسماً مختلفاً وقصتكما ستكون مختلفة ، ومعنى هذا التفسير قوي جداً . يقول الله : إذا كان مكتوب في النجوم أنه لن يكون أطفال لأبرام ، إذاً أغيِّر اسمه لإبراهيم ويكون له أطفال[٦] . التفسير لا يقول إن القَدَر غير موجود ، ولكن الله ينتزع الإنسان من قَدَره ، ليفتح طريقاً جديداً ، فالله يثور في وجه القَدَر ، فهو لا يتفق مع اختلاط الإنسان بسير الأشياء كما هي . وهو يقطع الخط الواصل والذي يربط الحدث والحدوث .

---

(٣) *Talmud de Babylone*, Traité Shabbat 156a.

(٤) تثنية ٤ : ١٩ .

(٥) تك ١٥ : ١ – ٥ .

(٦) Rachi, *Commentaire du Pentateuque, La Genèse*, fondation Samuel et Odette Lévy, Paris 1993, p.85.

وعكس نظرية الفلك ، فإله النصوص المقدسة غير قَدَري . دعوة الإنسان هي في الله وليس في القائلين بالأحداث الطيبة . فطريقه هو في الاكتشاف بالصلاة وليس في النجوم . الدعوة التي وجِّهت له هي بحب قريبه ، وليس التسليم للقَدَر . وفي اليوم الذي يترك الإنسان فيه الله ، يكون فوق منحدر أملس وفيه يخاطر بقوة الوقوع في القَدَر .

الإنسان الذي لا ينتزع نفسه من قَدَره ، يعيش في جمود ، فهو لم يدخل في التاريخ ، ولا يزال فيما قبل التاريخ . ما قبل التاريخ ليس هو فترة زمنية ، ولكنه موقف أمام الحياة ، تسليم للأحداث ، استسلام أمام المصير والقَدَر . وللدخول في التاريخ ، يدعو الله الإنسان بعدم الاختباء خلف أي قَدَر . وعندما سأل آدم « أين أنت ؟ »[٧] ، حواء « ما هذا الذي فعلت ؟ »[٨] ، قايين « أين هابيل أخوك ؟ »[٩] . فإنه يدعوهم للمسئولية عن أفعالهم ، بسبب حريتهم . فهو يفتح طريقاً أمام الإنسان ، ويوجهه إلى الطريقة التي يمشي بها فيه .

التنجيم

نستطيع أن نفكر أن التضاد بين ألوهية الكواكب وتقديسها تصلح لعالم أوَّلي ، وأنها غير مناسبة لليوم . والجهل هو أن واحداً من المعالم الأكثر تميزاً للعصرية هو العودة لما قبل التاريخ مع تنمية نظرية التنجيم . وقد جاء في خطاب الإعلان للـ« BVP » (مكتب مراجعة النشر) مارس ١٩٩٩ حرفياً ، اتخذ التنظير للتنجيم مساراً يشبه الصناعة وله سوق في غاية الاتساع . ويكفي القول إن هناك عشرين ملياراً من مجموع مبيعاتهم تستخدم أكثر من مئة ألف دجال وساحر ومنجم[١٠] .

مئة ألف شخص ، يعني أن هؤلاء الأشخاص عددهم أكثر بخمس أضعاف من الآباء والقساوسة والرهبان ورجال الدين ، في جميع الطوائف !!

ولتأكيد هذا الانبثاق ، يكفي مراقبة تطور فقرات الحظ والطالع في وسائل الإعلام ، حتى إنها قُدمت أيضاً في إذاعات الأطفال . ما هو الطالع إن لم يكن بحث يقود الشخص للسعي لمعرفة مستقبله في النجوم ؟[١١] .

وحقيقة الكواكب هي أنها ذات حركة في غاية الانتظام ، منتظمة كما في السلَّم الموسيقى . في الواقع يستطيع العلماء القول إن انتظامها يصل في الدقة لدرجة أنه يمكن تحديد ساعة ووقت كسوف الشمس الذي سيحدث بعد عدة قرون لأقرب ثانية . فالرسالة الضمنية للطوالع تفيد بأن حياة البشر تتمثل في مسارات النجوم ، وهي مبرمجة تماماً . ونلتقي كثيراً بأشخاص مقتنعين بأن موقعهم من النجوم والذي وضع عن طريق منجم

---

(٧) تك ٣ : ٩ .

(٨) تك ٣ : ١٣ .

(٩) تك ٤ : ٩ و١٠ .

(١٠) حسب *Réforme N°2823* ، ٢٠ –٢٦ مايو ١٩٩٩ .

(١١) الفلكيون المتخصصون ، والذين ليسوا بمشعوذين ودجالين ، هم الأوائل الذين نقضوا الطوالع التي تقوم بتقديم موقع الشخص بالنسبة للنجوم C.F. Denis Miller دنيس ميلر « *Fascinante astrologie* سحر التنجيم » ، جنيف ، ١٩٩٠ .

« جيد » ، حيث يصف شخصيتهم ، حتى في أدق التفاصيل[١٢] . هذا ممكن ، ولكن يجب ملاحظة أنه لا يوجد أي شيء أكثر ذاتية من نظرة الإنسان لنفسه في حقيقة شخصه[١٣] . إذا كانت قراءة الطالع تقول إني أتمتع بصفة الكَرَم ، والالتزام ، والخيال ، مع ميل خفيف للنقص في الثقة بالنفس ، عندها سأتعرف تماماً على نفسي في تلك الصورة . . . ولكن هل يوجد شخص لا يتعرف على نفسه في تلك القراءات ؟ الجميع يرى نفسه كريماً ، وملتزماً ، الجميع لهم طموح خيالي في قلوبهم ، وكذلك يعلم الجميع أنه في قاع نفوسهم يترسَّب ضعف والذي يعرف بنقص الثقة بالنفس[١٤] !

وهناك دراسة علمية جرت بالولايات المتحدة بأخذ عيِّنة من الناس يحبون التنجيم ، وطُلب من المنجِّمين القيام بوصف طباعهم حسب تاريخ وساعة ميلادهم ، وتمت إضافة شخصين آخرين إلى قائمة الأشخاص المذكورة مع وضع بيانات عنهما بطريقة عشوائية . ثم تم توزيع وصف شخصياتهم لكل منهم . كانت نسبة الإجابات الصحيحة ٣٣ ٪ أي نفس النسبة لمن اختيروا بناء على توافر معلومات والذين تم اختيارهم عشوائياً[١٥] .

وإذا ثبت غداً أن تلك الدراسة كانت غير صحيحة ، وأن هناك إثباتاً علمياً صارماً يعلن الحقيقة الموضوعية للتنجيم ، فسيكون ذلك سبباً قوياً لبحث الفرد عن قَدَره . أما إذا تحوَّل حكم الطوالع إلى كونه احتمالات فسيكون من الضروري البحث عن طريق للخروج من قَدَر النجوم ، لإعادة البحث عن طريق الحرية .

ذات يوم ، ذهبت إحدى الشابات إلى راعي الكنيسة . وكانت خائفة بشدة ، إذ أنها استشارت دجَّالة والتي قالت لها إنها ستغير عملها . وفعلاً ، بعد بضعة أشهر وجدت عملاً آخر . واكتشفت الشابة أنها تشعر بالضيق إذ أنها انجذبت لتلك المرأة التي تنبأت بمستقبلها . وقد قاومت تلك الرغبة لأنها تعلم ، أنها إذا رجعت لها كمم كان لديها سؤال ، فإنها بذلك تقيد حريتها كلياً حسب رغبة النجوم . . أو تخيل بحسب رغبة الدجالة .

وحكى المدراش Midrash أنه عندما ذهب موسى لفرعون ، استشار الأخير السحرة المنجِّمين فأجابوه بأنهم رأوا نجمة خاطئة في الصحراء ، ودماء لدى اليهود ، وبناء على تلك النبوة ، ترك فرعون اليهود ليرحلوا . ولاحقاً ، عند أقدام جبل سيناء ، وعندما أراد الله أن يدمر شعبه بسبب عبادتهم الوثنية لعجل من ذهب ، ذكَّره موسى باستشارة

---

(١٢) الثقة المرتبطة بنتائج سحر التنجيم تجعل الاستشارة تتناسب مع ثمنها .

(١٣) يجب إضافة أن التنجيم يرتكز على رؤية الكون والذي بدأ منذ أربعة آلاف سنة . غير أن هناك ثلاثة كواكب جديدة قد أضيفت في سياق القرنين الأخيرين .

(١٤) مثلما كتب « مشيل چوكيلان Michel Gauquelin » : كل واحد منا يريد أن يجعل من الطالع مرآة لنفسه . ذكرت عن طريق دنيس ميلر Denis Müller ص ١٩ .

(١٥) أي البحث عن طريق « شون كارلسون Shawn Carlson » وهو فيزيائي بجامعة كاليفورنيا « In Signe des Temps ٥/١١١ إشارة إلى الأوقات » ٥/١١١ . تجربة مشابهة أجريت بمجلة Science et vie (العلم والحياة) في ١٩٦٨ في شكل مشروع خيالي فقد بعثت المجلة لـ (١٥٠) شخصاً يشتركون في نفس البرج مع القول بأن طالعهم النجمي أُعد إحصائياً بالكمبيوتر . وأُلحق بالرسالة ورقة للإجابة تسأل إذا كان الشخص يجدها مناسبة لشخصيته حسب الطالع المرسل إليه وأيضاً ما إذا كان المحيطون يؤكدون صحة هذا الطالع . وكان هناك جواب للإجابة مرفق بالرسالة (٩٤ ٪) من الأشخاص الذين أجابوا وجدوها مناسبة لهم نفسياً و(٩٠ ٪) من المحيطين أكدوا التماثل . وأما الطالع الذي أُرسل لهم فقد كان للدكتور بتيو Petiot الذي قتل العشرات من الأشخاص مع إخفاء أجساد ضحاياه في الجير (ذكرت في دراسات *Études*) مارس ١٩٧٣ ، ص ٢٧٧ .

فرعون : « لئلا تقول الأرض التي أخرجتنا منها لأجل أن الرب لم يقدر أن يدخلهم الأرض التي كلمهم عنها ولأجل أنه أبغضهم أخرجهم لكي يميتهم في البرية »(١٦) .

ولإثبات أن مشروع تحرير شعبه أقوى من قَدَر النجوم ، صنع الله رحمة . وحسب نبؤة المنجمين بالنسبة لدم اليهود ، أضاف الربيون مع القليل من الدهاء ، أنه سال فعلاً : ولكنه كان دم الختان .

رسالة بولس الرسول إلى أهل كولوسي تقول في كلامها عن يسوع : « إذ محا الصك الذي علينا في الفرائض الذي كان ضداً لنا وقد رفعه من الوسط مسمراً إياه بالصليب . إذ جرد الرياسات والسلاطين أشهرهم جهاراً ظافراً بهم فيه »(١٧) . ضد كل « الأقدار » التي تريد إغلاق الإنسان داخل قَدَره ، يعلن الإنجيل الحرية ومواجهة لشهوة المصير العظيمة ، يذكر المكتوب بأن الحرية ليست هي حالة إنما هي دائماً طريق .

النجوم هي بريق النور ، والتي وضعها الله في الأفق ، لتجمّل السّماء وتبهج نظر الإنسان ، وليس بالبحث فيها عن مستقبل غير أكيد ، فالأفضل شراء نظارة فلكية لرؤيتها وتأمل سماء النجوم .

---

(١٦) تثنية ٩ : ٢٨ .

(١٧) رسالة بولس إلى أهل كولوسي ٢ : ١٤ – ١٥ .

والمجوس؟

والذين يدافعون عن التنجيم يشيرون إلى قصة المجوس الذين ذهبوا ليسجدوا ليسوع في المغارة، تبعاً للاكتشاف الذي تبعوه في النجوم[18]. غير أن قراءة متأنية لنص متّى تقود للإجابة عن شيئين.

- في أول الأمر، هناك تفاصيل ننسى دائماً ذكرها عن المجوس، وهي أنهم كانوا بطريقة غير مباشرة مسئولين عن كارثة إنسانية، بسبب ذهابهم لسؤال هيرودس. وتبعاً لرؤيتهم السماوية، أن هذا الأخير أمر بقتل أطفال بيت لحم، فالذي رآه المجوس في النجوم تحوَّل إلى كارثة. وإذا كانوا باحوا بسر السماء المختص بملك اليهود فرؤيتهم تلك تحوَّلت إلى مذبحة.

- كما يجب ملاحظة أن المجوس وجدوا شيئاً آخر غير الذي يبحثون عنه. فهم يريدون تحية ملك، في قصر بأورشليم، إلا أنهم اقتيدوا ليسجدوا أمام طفل، في مغارة بيت لحم. وأمام الطفل وضعوا هداياهم ومعرفتهم.

وبقراءة هذا النص كتب دينس ميلر Denis Müller: «ليس مستبعداً على الإطلاق أن نتخيل -في شكل حلم يقظة- أن المنجمين المعاصرين يمكن أن يصطدموا في يوم من الأيام كما فعل منجمو الأمس، بصورة يسوع، وأن يتحولوا بدورهم من علماء إلى حكماء[19]».

وعندما قال بولس الرسول: «ليس يهودي ولا يوناني، ليس عبد ولا حر ليس ذكر وأنثى[20]». كان من الممكن أن يضيف: ليس هناك لا برج العقرب أو الجدي. قدَرُكم ليس في النجوم، طريقكم في المسيح. أنتم أحرار. عيشوا الحرية ولا تقعوا مرة أخرى في متاهات القدَر. وذات مرة سئل إنجيلي عن برجه الفلكي. فأجاب: أنا وُلدت تحت علامة معموديتي.

---

(١٨) متى ٢: ١-١٢.

(١٩) Denis Müller, *ouvrage cité*, p.106.

(٢٠) رسالة بولس لأهل غلاطية (٣: ٢٨).

نداء للحرية

المعلمون الربيون اعتادوا القول إن الطوالع ليست بصحيحة ، إلا لمن يؤمنون بها ، فهناك قصة تلمودية تصور ذلك المبدأ :

كان هناك رجل ثري جداً ، ويكره اليهود . وكان له جار يهودي اسمه يوسف ، وكان الثري يريد معرفة مستقبله ، فاستشار منجّمة والتي تنبأت له أن يوسف سيرث ثروته . وليغيِّر الطالع ، دخل بيته ، وباع كل ممتلكاته ، واشترى بالنقود جوهرة ضخمة وقام بخياطتها داخل قبعته . ولكم أن تستنتجوا بقية القصة . وكان يمر فوق جسر وكانت الرياح قوية ، فطارت القبعة ووقعت في الماء ثم أكلتها سمكة عملاقة . ثم أُصطيدت السمكة عن طريق صياد الذي تساءل عمن يستطيع أن يبيع له مثل تلك السمكة الضخمة . وكما أنه كانت ليلة السبت ، كان يعرف أن اليهود يبحثون عن أطباق مميزة ليحتفلوا بهذا اليوم ، وهكذا ورث يوسف لثروة جاره[٢١] .

إذا لم يقم الرجل باستشارة الدجَّالة ، لكان قد احتفظ بثروته دائماً . ولكن الطوالع تصبح حقيقية لكل من يؤمن بها . كما تقولها حكمة هزلية : لا يجب أن تكون من ذوي المعتقدات الخاطئة إذا إنها تجلب السوء .

(٢١) D'après A. Cohen, *Le Talmud*, Petite Bibliothèque Payot 65, p.341.

٥

الله والحيوانات

من يَعلَم روح بني البشر هل هي تصعد إلى فوق

وروح البهيمة هل هي تنزل إلى أسفل إلى الأرض؟

(سفر الجامعة ٣: ٢١)

٢٠- وقال الله لتفض المياه زحافات ذات نفس حية وليطر طير فوق الأرض على وجه جَلَد السماء. ٢١- فخلق الله التنانين العظام وكل ذوات الأنفس الحية الدبابة التي فاضت بها المياه كأجناسها وكل طائر ذي جناح كجنسه. ورأى الله ذلك أنه حسن. ٢٢- وباركها الله قائلاً: أثمري واكثري واملإي المياه في البحار وليكثر الطير على الأرض. ٢٣- وكان مساء وكان صباح يوماً خامساً. ٢٤- وقال الله لتخرج الأرض ذوات أنفس حية كجنسها. بهائم ودبابات ووحوش أرض كأجناسها. وكان كذلك. ٢٥- فعمل الله وحوش الأرض كأجناسها والبائهم كأجناسها وجميع دبابات الأرض كأجناسها. ورأى الله ذلك أنه حسن. (تك ١: ٢٠-٢٥).

يحكي « تيودور مونود Théodore Monod » أنه ذات يوم كان يعظ في معبد عن موضوع الطبيعة والحرية. وفي نهاية الخدمة، صلى صلاة شفاعية حيث قال فيها: « لإخوتي الحيوانات ضحايا الحماقة والقساوة الدائمة البشر » وعندما فتح عينيه، رأى في وسط الحشد أمامه كلباً أبيض ضخماً[١] ومنذ ذلك اليوم، وهو يدعو لافتتاح أماكن دينية للحيوانات!

(١) *Le chercheur d'absolu,* Gallimard Folio N°3120, p.102.

وقبل أن نكمل قضية الطبيعة بأعين مغلقة ، أو الاستقبال باستخفاف ، يجب أن نتساءل ما هو وضع علم اللاهوت بالنسبة لعالم الحيوان .

لذلك ، سنتقصّى الأمر بسؤال نص الخلق وخاصة اليوم الخامس ، وأول جزء من السادس . بعد خلق السماء والبحر في اليوم الثاني ، فقد عمرّهما الله في اليوم الخامس بالطيور والأسماك . وبعد ظهور اليابسة في اليوم الثالث ، خلق الله الحيوانات الأرضية والإنسان لإعمار الأرض .

وعن خلق عالم الحيوان ، سنبدأ بثلاث ملاحظات .

- مثل النباتات ، خُلقت الحيوانات بحسب أجناسها . بالعبرية ، تقال : « كل واحدة نحو جنسها » أو « كل واحدة في اتجاه جنسها » . في تلك الآيات ، النص مفتوح على تصوُّر التحوُّل ، فهو يرفض التضاد بين الخلق والتطور . لايتكلم التكوين عن خلق ستاتيكي (ساكن) دائماً . خلق الله عالماً في تحوُّل ، وكل جنس حيواني مسجل في تلك الديناميكية الحركية [٢] .

- الأسماك والطيور موضوع بركة بأمر الله : « وباركها الله قائلاً أثمري واكثري واملإي المياه في البحار وليكثر الطير على الأرض » ، وبكلمته التي وجهها لهم ، أعطاهم بذلك كياناً فاعلاً وليس مفعولاً به بسيط .

- وفي نهاية الأصحاح الأول ، وبعد خلق الإنسان ، رجع كاتب العهد القديم لعالم الحيوان : « ولكل حيوان الأرض وكل طير السماء وكل دبابة على الأرض فيها نفس حية أعطيت كل عشب أخضر طعاماً . وكان كذلك »[٣] . كل الحيوانات كانت منذ البدء آكلة للعشب . وكان خلْق الله يتميز بطبيعة هادئة دون عنف ، فمعظم لوحات الفنانين الكبار أعطت وصفاً لجنة عدن حيث يقف من حول آدم وحواء حيوانات متوحشة : الثعابين ، والذئاب ، أو الحملان ، يعيشون في صحبة جيدة الواحد بجانب الآخر .

الإنسان والحيوان، متضامنين في الخلْق

قبل ظهور الإنسان ، كان عالم الأحياء هادئاً ومنسجماً دون خوف ولا عنف ، فمنذ الأصحاح الثالث ، ومع ما نسميه بالسقوط ، قد دخل العنف العالم وأصاب كل الخلق . وللإشارة إلى التضامن بين الإنسان والحيوان ، في الخلق كما في السقوط ، علق المدراش على الآية الدالة على العصيان : « فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضاً منها فأكل »[٤] . يقول المفسِّر : لماذا كُتب : أعطت رجلها أيضاً معها فأكل ؟ لأن هناك أيضاً تورط آخر . وهي الحيوانات التي عصت كلمة الله . هذا التفسير يظهر وكأنه شاذ ، فهو يرتكز على إحدى أفكار

(٢) ذهب « تلهار دي شاردين Teilhard de Chardin » بفكرته إلى أقصى حد ليؤكد أن كمال الخليقة لم يكن في بدايتها ، ولكن في نهايتها . ومهما بدا هذا الاقتراح غير معقول فإن الكون ينتهي حتماً في تقدمه إلى قمة الإدراك حيث تتعايش -وتتسامى في التعايش- جميع البذور المكوِّنة للإدراك. إن هذا الكون يتجمع في نقطة أو ميجا لقراءة الخلْق في التحول ***Pour lire la Création dans l'évolution,*** Cerf Paris 1984

(٣) تك ١ : ٣٠ .

(٤) تك ٣ : ٦ .

العدالة . بما أن الحيوانات أصابها السقوط ، فيجب أن تكون حاصلة لجزء من مسئولية الخطأ ، هذا المفسِّر أثار مفهوماً خاصاً عن عالم الحيوان ، إذ أنه يؤكد أن الحيوانات كائنات أخلاقية ، قادرة على الاختيار .

وفي نفس الاتجاه عندما بدأ الله الخلْق مرة أخرى مع نوح ، أنقذ زوجاً من كل جنس حيواني ، وفي اليوم التالي للطوفان ، انتهي بميثاق مع جميع الأحياء : «**ها أنا أقيم ميثاقى معكم ومع نسلكم من بعدكم. ومع كل ذوات الأنفس الحية التى معكم. الطيور والبهائم وكل وحوش الأرض التى معكم من جميع الخارجين من الفلك حتي كل حيوان الأرض**»[٥] .

وهكذا كما أنهم متضامنون في السقوط كما في المعاهدة الأولى ، فإن الإنسان والحيوان يتشاركان في نفس الأمل المسيحي . وفي سفر إشعياء ، هذا الأمل كان نتيجة الشفاء من كل العنف الذي يشمل الخليقة . يتحدث النبي عن الذئب والحمل اللذين يتشاركان في نفس المرعى ، وعن البقرة والدب اللذين يأكلان التبن ، وعن الطفل الذي يستطيع اللعب على عنق الحية[٦] . الذئب والدب تحولا لآكلي عشب ، والحية فقدت سمها . وهناك « فرنسيس الأسيسي François d'Assise » الذي وعظ للطيور وآنس الذئاب وغنَّى مع البلابل وأسكت عصافير الجنة الثرثارة .

التضامن بين الإنسان والحيوان هو أيضاً ظاهر في سفر يونان ، ولو أنه بطريقة مختلفة ، فبواسطة حيوان (سمكة ضخمة) ، أنقذ الله خادمه من قاع البحر ، وعن طريق دودة صغيرة كلَّمه عن حنانه ورحمته لأهل نينوى[٧] . وعندما أعلن النبي حكم الله لنينوى ، سمع الملك عظاته وأمر البشر والحيوانات بالدخول في مسيرة **التوبة**[٨] . **ولكل** من يدَّعون بأن ملك نينوى لم يكن عالماً باللاهوت ، وأن موقفه يأتي نتيجة خرافة وليس **إيمان** ، فنهاية **السفر** تجيب بأن الله لم يكن غير حساس تجاه الحيوانات . وقال الرب ليونان الذي قرَّب له رحمته « **أنت أشفقت على اليقطينة** التي لم تتعب فيها ولا ربيتها التي بنْت ليلة كانت وبنْت ليلة هلكت . أفلا أشفق أنا على نينوى **المدينة العظيمة التي** يوجد فيها أكثر من اثنتى عشر ربوة من الناس الذين لا يعرفون يمينهم من شمالهم وبهائم كثيرة[٩] » .

الحيوانات، علامات الرحمة

في سفر أيوب ، كان أيوب مثلاً للإنسان المرهق بالتجارب ، يتكلم مع أصدقائه عن أسباب آلامه . وفي أكثر من ثلاثين أصحاحاً يتناقشون في مواضيع ذات أهمية أيضاً غير الألم ، منها العذاب والحرية والإيمان والثقة . ولكن تلك الحوارات لم تصل لشفاء أيوب في أوجاعه . وأخيراً عندما خرج الله من سكوته بعد خمسة وثلاثين أصحاحاً أخذ أيوب من يديه في جولة لفهم الخلْق ، وذلك لملاحظة سلوك العالم الحيواني[١٠] .

---

(٥) تك ٩ : ٩ -١٠ .

(٦) إشعياء ١١ : ٦ -٩ .

(٧) يونان ٢ : ١ و ٤ - ٧ .

(٨) ودعي وقيل في نينوى عن أمر الملك وحكمه بعدم تذوق الناس ولا البهائم ولا البقر شيئاً . لا ترع ولا تشرب ماء . ويلبس الناس والبهائم المسوح ويصرخوا إلى الله بشدة (يونان ٣ :٧ -٨) .

(٩) يونان ٤ : ١٠ -١١ .

(١٠) أيوب أصحاحات ٣٩ -٤١ .

وفي مواجهة الأسئلة المهمة ,كالمسئولية والتوبة ، أجاب الله بالإشارة إلى نسل الوعل وحماقة النعامة وشجاعة الخيل . قد يدخل إلى روعنا بأن الله يسخر من الإنسان إذا لم تكن زيارة الرب قد انتهت باقتناع أيوب . وتبعاً لتلك الزيارة ، عرف ذلك الأخير أن الكلام الذي تشارك فيه مع أصدقائه كان باطلاً . فليس النقاش مع محدثيه لكن المقابلة مع الحيوانات التي قادت أيوب للاعتراف بالإيمان : « بسمع الأذن سمعت عنك والآن رأتك عيني »[١١] .

الرخاء والتنوع ، والزيادة في الحياة الحيوانية قد حلّت مشكلة أيوب ، وقادته إلى نظرة مختلفة لحياته . عالم الحيوان قد سمح له بالعبور إلى ثورة المعرفة .

وفي الكتاب المقدس دائماً يكون للحيوانات معنى رمزي . والحيوان الذي ذُكر كثيراً هو الحَمَل ، إذ إنه استخدم للتقدمات . والحمار الوحشي يرمز للحرية بينما الحمار العادي رمز للفناء . الجمل هو رمز للفناء الكبير ، حيث أن الجمل يساوي عشرة حمير . القطة مثّل للنظافة حيث تدفن نفاياتها ، والنملة تحترم خاصية الآخرين ، وطائر اللقلق يحمي نقاء حياته العائلية . والثور ملحوظ حيث أنه آكل للعشب بالرغم من حجمه ، والثعبان حذر ومكّار إذ إنه عار ، والقنفد للشفقة . وفرس النهر غليظ وسميك . إذاً لماذا خلق الله بهيموث (فرس البحر) ؟ هذا هو سؤال لاهوتي حقيقي والذي نستطيع أن نجد إجابته في نهاية سفر أيوب ، فخلق فرس البحر أكمل اقتناع الإنسان المجرَّب .

ما هي النظرية التي نستطيع إيجادها عن فرس البحر والتي تستطيع أن تقود إنسان مثل أيوب للإيمان ؟ ربما عدم فائدته . فبذل الجهد في خلق فرس البحر ، أثبت كرماً وإغداقاً يؤدي لحل مشكلة الإنسان الصغيرة ، وليفتح له العبادة الحرة والمضمونة . فالعالم الحيواني في غناه وتنُّوعه يتحدث عن عظمة وإبداع وكرَم الخالق .

وقد استخدم الله عالم الحيوان ليجيب على أسئلة الوجود لأيوب وليعالج اكتئابه ، وهذا ليس هو الموقف الوحيد ، فهناك مواقف أخرى ظهرت فيها الحيوانات لتتكلم مع الإنسان . فعندما أخطأ بلعام الطريق ، عندها أفهمته آتانه[١٢] . وعندما كان الشعب جائعاً في الصحراء ، بعث لهم الله بالسلوى (السمان)[١٣] . وعندما اختبأ إيليا عند نهر كريث ، أعالته الغربان[١٤] . وحسب التقاليد الميدراشية ، فعند فرار داود من أمام جموع الملك شاول وجد ملجأ في مغارة ، وكان هناك عنكبوت قد نسج خيوطه بعد دخوله على مدخل المغارة ، وعندما جاء الذين يتعقّبونه ورأوا النسيج غير الممزق ، استنتجوا أنه لا أحد بداخل المغارة ! فقبّل داود العنكبوت وقال له :« مُبارك أنت للأبد ! ومبارك صانعك » .

واليوم أيضاً ، تستطيع الحيوانات أن تكون عوامل فضل ونعمة . ففي إسرائيل ، يستخدم الأطباء الدرافيل

---

(١١) أيوب ٤٢ : ٥ .

(١٢) عدد ٢٢ : ٢١ -٣٥ .

(١٣) خروج ١٦ : ١٣ .

(١٤) الملوك الأول ١٧ : ١ -٧ .

للاتصال مع الأطفال الانطوائيين ، فهم يعتقدون أن لديهم قدرة اتصال خاصة ، وهذه القدرة برغم أنهم لا يفهمون كيفية عملها ، ولكن يدركون آثارها غير القابلة للمجادلة !

وأخيراً يجب عدم نسيان الحيوانات الأقرب للإنسان ، والمسماة حيوانات مستأنسة ، والتي ترافق الأشخاص الوحيدين دائماً . وهناك دراسات أكدت أن ملاطفة القط أو الكلب تخفض الشد العصبي ، ووجودها مفيد لجهاز الأوعية الدموية والقلبية .

وبما أن الوحدة هي علامة من أكبر معالم الأمراض النفسية في العالم الحديث ، فالحيوانات المستأنسة تكون دائماً المصاحبة والتي تهوّن من جفاف الحياة . وعندما يجلب الحيوان السعادة لمن هو حزين وتكون دواء للمحتاج ، فلنا الحق في أن نرى فيها بكل بساطة رمز الحنان ورعاية الله[١٥] .

وهناك شاهد قوي ومؤلم على التعامل بين الإنسان والحيوان ، وهو موجود في كتاب يدوّن فيه أحد الأشخاص ذكرياته قائلاً : « ذات ليلة ، في غابة حيث كنت أختبيء ، قابلت كلباً مريضاً وجائعاً مع احتمال أن يكون مسعوراً أيضاً ، وكان ذيله بين فخذيه . وقد شعرنا في ذات اللحظة نحن الاثنين بأننا في ظروف متشابهة ، لأن حالة الكلاب ليست أبداً أفضل من حالنا . وجرى نحوي ووضع رأسه في حجري وجلس يلحس يدي . . وإذا قلت إنني في ذلك الوقت ، كنت أحسد الحيوانات ، فلن يندهش أحد ، ولكن الذي شعرت به في تلك اللحظة كان أكثر من الحسد ، لقد كان الخجل . كنت خجلاً أمام ذلك الكلب بكوني لست كلباً بل إنساناً . وهكذا إذن هو ما قد وصلنا إليه : التفكير بأن الحياة أصبحت مأساة ، وأن الموت هو الخلاص ، وأن الإنسان كارثة ، أما الحيوان فهو مثالي »[١٦] (بدون تعليق) .

الحيوانات هم شركاؤنا في الخلق

إذا كان صحيحاً كما يعتقد غاندي ، أن درجة حضارة الأمم تُقاس على الطريقة التي يعاملون بها الحيوانات ، فحالة حضارتنا الغربية مدهشة . الحيوانات فيها إما معشوقون وإما مجمّدون .

ذات يوم ، ذهب رجل ليرى قسيساً في جلسة فردية ، فقد كان يتمنى في يوم دفنه أن يكون هناك عند مدخل الكنيسة ، صفاً من كلاب جمعية حماية الحيوانات ، وهذه الفكرة تشهد عن معاناة حقيقية ، إذ إنه في حياته كان يشعر بغدر عميق من البشر ورأى أن الكلاب فقط كانت هي القادرة على الوفاء الحقيقي[١٧] .

هذا الطلب المؤثر هو علامة العبادة للحيوان (العبادة الصنمية للحيوانات) والتي لها صفة باثولوچية (في علم الأمراض) . فمن الأسهل حب الحيوان عن حب القريب ، إذ إن الحيوان المستأنس لا يعارض . فهو أهدأ من

(١٥) في الإنجيل ، عندما لم يعرف يسوع كيف يـ رح ـن الله ومعنى تقربه ، استخدم صورة استعارها من عالم الحيوان : يا أورشليم ، يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا (متى ٢٣ : ٣٧) .

(١٦) Zvi Kolitz, ***Yossel Rakover s'adresse à Dieu,*** Calmann- Levy 1998, p.14- 15.

(١٧) هذا الطلب كان علامة عن ضيقٍ عميق ، حيث إن بعد بضعة أشهر ، انتحر هذا الرجل .

الإنسان ، وهو أكثر وداعة . هل هذا وراء المقولة المسموعة دائماً « كلما عرفت الآدميين ، كلما أحببت كلبي » يوجد رفض للقريب ؟ وماذا عن الذين يوصون بنصيب كبير من ميراثهم لحيوان في وصيتهم .

حسب الكتاب المقدس يبقى هناك اختلاف أساسي بين الإنسان والحيوان : فالإنسان خُلق ككائن ، فرد ، بينما الحيوان خُلق حسب جنسه . يتكلم الكتاب المقدس عن فردية الشخص التي لا توجد عند الحيوان . الإنسان فقط هو صورة الله ، هناك مسافة نوعية في مجال الحياة بين الحيوان والإنسان . عكس الأديان التي وجدت في بلاد الشرق الأقصى القديم (الهندوسية ، والبوذية) والتي تنادي بوحدة عميقة بين كل الأحياء ، يضع الكتاب المقدس اختلافاً أساسياً بين الإنسان والحيوان .

ولأن الحيوانات ليست موضوعاً لحقوق وواجبات ، فمن الصعب التكلم عن حقوق الحيوانات ، مثلما نتكلم عن حقوق الإنسان .

وخلف طلب استرداد أنسنة الحيوان ، لا ندرك خطر (حيونة) الإنسان أي تحويله إلي حيوان . رفض أنسنة الحيوان لا يعني أن نرجعه لمستوى الشيء ، ولكن يجب أن نجد له مكانه الصحيح في الخلْق ، حيث الإنسان هو الحارس . فإذا كان من الصعب التكلم في حق الحيوانات ، فمن الصحيح والضروري التكلم عن واجبات الإنسان نحو عالم الحيوان . وهذا يقود للإعلان عن الاشتقاق الثاني لحضارتنا والذي هو عشق بعض أجناس من الحيوانات لدرجة تحويلها لصنم ، وتقليل شأن أجناس أخرى من الحيوانات لتكون ماكينات حية أو أشياء للاستهلاك . عندما نتكلم عن الصناعات الخاصة بتربية الحيوانات ، نعتبر الحيوان كما لو كان سلعة بسيطة . كما في كل المصانع ، فالجهود مركّزة على الأبحاث الدائمة لمزيد من الإنتاج . وهكذا يتخيل الإنسان بناء مصانع والتي فيها يتم حبس أرجل الدجاج في الطين لتوفر كل طاقتها لوضع البيض . وأنشأنا زرائب للخنازير حيث تعيش الخنازير على مستوى مائل لينتجوا لحم فخذ ضخم . وأطعمنا آكلي العشب دقيقاً صناعياً يحتوي على لحم . . . مع نتائج نعرفها مسبقاً .

إذا كانت أنسنة الحيوان تعتبر مخاطرة تقود إلى تحويل الإنسان لحيوان ، فتجميده لا يخلو أبداً من الخطر . إن من يقومون بتشريح الحيوانات وهي حية هم مجرد أطباء وباحثين اعتادوا على تلك الممارسة ، وبسبب اعتيادهم على ذلك ، فهم إذاً وجدوا الفرصة ليطبقوا ذلك على البشر .

الحيوان لا هو صنم (معبود) ولا هو جماد ، هناك مكان صحيح لإعطائه للحيوانات في خلْق الله . وكما قال « البيرت شفايتزر Albert Schweitzer » : « مثل الخادمة ، عندما تنتهي من تنظيف الغرفة ، تقوم بغلق الباب ، حتى لا يأتي الكلب ، وبأقدامه المبللة يقوم بتوسيخ عملها الجميل ، فإن المفكرين الأوروبيين يحرضون على ألا (يتنزّه) أي حيوان داخل مجالهم الأدبي » . سنعرض ثلاث نقاط لنضع أسس هذا المجال الأدبي :

- في الوصايا العشر ، أعطى الله أمر السبت ، وحدد الطريقة :

«أما اليوم السابع فسبت للرب إلهك لا تعمل فيه عملاً مّا أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وثورك

وحمارك وكل بهائمك»[18] . الأمر أُعطي للإنسان ، ولكنه يختص أيضاً بالحيوانات التي تعيش معه . عالم الحيوان له حق أيضاً في الراحة ، ونوع من الاحترام .

● عالم الحيوان هو ثمرة المعاهدة التي عقدها الله مع نوح ، وفي سفر يونان ، هو موضوع الرحمة . الحيوانات تنتمي للمخلوقات الحية والتي دعاها الله . فعندما تنفق المنظمات الدولية مبالغ ضخمة لحماية وحيد القرن (الخرتيت) والذي هو مهدد بالانقراض ، لاهوتياً هذا الفعل هام جداً .

● حتى إذا لم نكن نعرف جيداً أي موضع نعطيه لعالم الحيوان في لاهوتنا ، فعلى الأقل يجب أن نحافظ على الشق الكنسي المفيد : « من يعلم روح بني البشر هل هي تصعد إلى فوق وروح البهيمة هل هي تنزل إلى أسفل إلى الأرض »[19] .

(١٨) تثنية ٥ : ١٢ -١٤ .

(١٩) جامعة ٣ : ٢١ .

عظة للعصافير

يُحكى أنه ذات يوم دخل فرانسيس الأسيسي في حقل ليكلّم العصافير . فقال لهم العظة التالية : « أعزائي العصافير الصغيرة ، أنتم مدينون بشدة لخالقكم الذي يجب أن تهللوا له في كل وقت وفي كل مكان : فقد سمح لكم بالطيران في كل مكان ، وأعطاكم ضعف بل وثلاثة أضعاف من الملبس ، حفظ جنسكم في فلك نوح حتى لا تنقرضوا . . . أنتم لا تبذرون ولا تحصدون ، ومع ذلك فالله يطعمكم ، وهو يعطيكم الينابيع والأنهار لتشربوا وترتووا ، وهو يعطيكم التلال والوديان لتأووا وتلتجئوا ، وأشجاراً عالية لتصنعوا أعشاشكم . . . إذن فخالقكم يحبكم جداً حيث إنه ملأكم بكل تلك النعم . فاحفظوا نفسكم جيداً من شباك نكران الجميل ، أعزائي العصافير الصغيرة ، اهتموا دائماً بتهليل وتسبيح الله » (٢٠) .

وبنصح العصافير أن تدرك الجميل والنعمة لله لما هم عليه ، يدعونا فرنسيس لسماع رسالة الخلق . كما يذكرها « ابكتيتوس Epictete » : « ماذا أستطيع أن أفعل أيضاً ، أنا مُسنّ عاجز ، سوى أن أسبح الله ؟ لو كنت بلبلاً لفعلت وظيفة البلبل . ولو كنت بجعة لكنت مارست ما تعرفه البجعة ، أنا كائن عقلاني ، إذن فيجب أن أسبح الله » .

دفاع الحملان

في الطبيعة ، أعطى الله لكل جنس من الحيوانات وسائل للدفاع عن نفسها ضد أعدائها ، فالذئب ينقضّ على فريسته وعلى عدوه ، والحرباء تتنكر ، والقنفد ينتفش ، العصفور يطير ، الثعبان يعضّ ، الغزالة تجري بسرعة ، والأرنب ولود (مثمر) .

حيوان واحد فقط ليس له أي دفاع ، الحمَل ، كيف نفهم كونه رمز المسيح ؟

(٢٠) Les Fioretti de Saint François , Seuil Points Sagesses N°73, p.81- 82.

٦

خلْق الإنسان

إذا كانت تحركاتكم وشعوركم وأفكاركم أيضاً ليست إلا تحركات بسيطة ناتجة من الخلايا، وهي عمل كيمائي وميكانيكي شبيه بما يحدث في عملية الهضم، فباسم من؟ واسم ماذا، تريدون مني أن أحترمكم؟

(برنانوس Bernanos)

٢٦- وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا. فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض. ٢٧ - فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه، ذكراً وأنثى خلقهم. ٢٨- وباركهم الله وقال لهم أثمروا واكثروا واملأوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض. ٢٩- وقال الله إني قد أعطيتكم كل بقل يبزر بزراً على وجه كل الأرض. وكل شجر فيه ثمر شجر يبزر بزراً. لكم يكون طعاماً. ٣٠- ولكل حيوان الأرض وكل طير السماء وكل دبابة على الأرض فيها نفس حية أُعطيت كل عشب أخضر طعاماً. وكان كذلك. ٣١- ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جداً، وكان مساء وكان صباح يوماً سادساً. (تك ١: ٢٦-٣١).

الحيوانات ذات أهمية في أعين الله . هي مهمة لدرجة أنها مباركة وأخذت وصية . ولكن الأهم من الحيوانات ، هو الإنسان . فالحيوانات الأرضية تتشارك مع الإنسان في كونها خُلقت في اليوم السادس . ولكن

هناك فرق بين الحيوانات والإنسان : فرق العدد أساسي فالحيوانات خُلقت بالجمع ، بينما الإنسان يتم الكلام عنه بضمير المفرد ، الحيوانات خُلقت بأجناسها ، بينما الإنسان كفردٍ هو وحده على صورة الله .

ولفهم ذلك التفرُّد ، سنسأل ثلاثة أسئلة :

١ - ما هي صورة الله ؟

٢ - لماذا خلق الإنسان في اليوم السادس ؟

٣ - ما هو معنى الوصية التي أعطيت للزوج الأول (آدم وحواء) ؟

صورة الله

الوصايا العشر تطالب بعدم عمل تمثال لله ، لأن الله يتخطَّى جميع تصورات البشر . ولكن الله له صورة ، وهي تنعكس على الإنسان ، هذه الصورة ليست مجرد فاعل خارجي ، بل هي اعتراف بوجود إلوهي داخل كل شخص إنساني[١] حتى الأكثر دناءة ، هو حامل لتلك الصورة . وهناك قانون اقتصادي يقول بأن الإنتاج الكمي يسمح بخفض الأسعار ، كلما كانت السلعة مطلوبة وقليلة كلما كان لها قيمة . واليوم البشر هم أكثر وأكثر عدداً على الأرض . أساس الأديان هو التفكير بأن كل حياة إنسانية ، حتى لو كانت محاطة بعشرة مليارات من الحيوانات الأخرى ، لها قيمة كأول (أو آخر) حي من الجنس الإنساني . ويحكي أن إبراهام إسحاق كوك Abraham Isaac Kook والذي كان أول ربيني أورشليمي ، والذي كان معتاداً على الاهتمام الشديد بالملحدين ، واللصوص ، والمشعوذين ، والمنافقين ، كان يفعل ذلك بسبب الآية القائلة بأن الإنسان صُنع بقدر أقل قليلاً من الملائكة[٢] .

وعندما نبهه أحد تلاميذه : « إنهم يأخذون وقتك ، ويستغلون طيبتك » أجابه الربي : « إذا كان الله يصنع رحمة لكل خليقته ، فلماذا لا أعطف على واحد من أولاده »[٣] .

القول بأن الإنسان خُلق على صورة الذي حرَّم أن نصنع صورته ، يعني أن الحقيقة النهائية لشخصه أبعد من رؤيتنا وتقديرنا له ، فهي توجد عند الله ، وفي الله وحده .

تحكي أسطورة هندوسية بأنه ذات مرة كان كل البشر آلهة ، ولكنهم لا يتوقفون على التحاور لمعرفة من هو الأكبر . وهكذا قرر « براهما Brahmâ » سيد الآلهة نزع النور الداخلي الذي يصنع منهم آلهة . ولكن أين يضعه ؟ فاقترح ملاك بدفنه في أعماق الأرض . فأجاب براهما : لا ، فسيحفر الإنسان الأرض ويجد النور . فاقترح

(١) الكثير من النقاد أشاروا إلى العلاقة بين نية الله : نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا ، والتحقيق : فخلق الله الإنسان على صورته . خلق الإنسان على صورة الله ولكن ليس بعد كشبهه . يقول الأديب Patristique والمتأثر بالازدواجية التي تصنع التضاد بين الروح والجسد ، إن الصورة تُصطحب بالجسد والشبه بالروح . هذا الرأي لا يتوافق مع التنبيه الأنثروبولوچي Anthropologique للعالم في الوصية الأولى ، ولهذا السبب نفضل النقد والرأي القائل بأن الإنسان خُلق غير كامل ، له صورة الله في ولادته ، وله كل حياته ليصل إلى التشابه . وأخيراً هناك آخرون يقولون إن الصورة تخص هذا الوقت والتشابه يخص الزمن المسياني . ومهما كانت قراءتنا يظل المهم هو : هناك صورة الله في كل إنسان مهما كان .

(٢) مزمور ٨ : ٦ .

(٣) W.B. Silverman, ***The sages speak: rabbinic wisdom and jewish values,*** Aronson 1989, p.22.

آخر بوضعه فوق القمر . فقال براهما : لا ، إذ إنه ذات يوم سيصل الإنسان فوق القمر ، وسيجد النور . وعندها لم تجد الملائكة أي أفكار أخرى . فقال براهما : أنا أعرف أين سأحبس النور حتى لا يجده الإنسان . سأضعه في أعمق أعماق قلبه . فهذا هو المكان الوحيد الذي لن يفكر أبداً بالبحث فيه (٤) . واليوم يتسلق الإنسان أعلى الجبال ويطأ أرض القمر ويغوص لأعماق المحيطات ، ولكنه يظل لا يعلم أن أكبر رحلة يجب أن يسلكها هي على بُعد ثلاثين سنتيمتراً ، وهي المسافة التي تفصل بين رأسه وقلبه ، ويظل الإنسان لا يعلم أن سر الله مُدفون في عمق شخصه .

والكلمة المستخدمة لقول « صورة » يمكن أن تُترجم بـ« ظِل » ، وحرف الجر « على » تعني أيضاً « في » ، فنستطيع أن نقول إن الإنسان « خلق على صورة الله » ، « وخلق في ظل الله » . فالظل يصنع أكثر من خيال للشكل ، هو يتحرك معه . في الله ، الله ليس ستاتيكياً ساكناً : فهو يتكلم ، يفصل ، يعمّر ، يسمّي ، يرى ويقدّر . صورة الله هي دعوة تنادي الإنسان ليكون هو أيضاً بدوره خالقاً . إنها لا تحجز الشخص في الثبات ، بل تدعوه للخلْق ، والحب ، والمقابلة ، والمشاركة ، والحياة .

نستطيع فعل خطوة إضافية في قرائتنا لصورة الله بانتباهنا للتشكيل* (في العبرية الحديثة) . فالآية تُكتب عادة :

خلق الله الإنسان على صورته .

على صورة الله ، خلقه .

ذكراً وأنثى خلقهم .

في العبرية (القديمة) لا يوجد تشكيل ، والربيّون لاحظوا أن النص يمكن أن يُقرأ أيضاً كالتالي :

خلق الله الإنسان على صورته .

على صورة الله خلقه ذكراً وأنثى .

فإذا كانت « خلقه » ، فإن الرجل هو الذي على صورة الله ، أما فإذا كانت « خلقهم » فهي تنعكس هذه الصورة في الرجل والأنثى . صورة الله ليست شخصاً واحداً ، ولكنها زوج مع ما يعنيه ذلك من تغيير ، تجاذب ، تنُّوع وحب . تظهر الصورة في العلاقة ، وتوجد في المقابلة مع الآخر مع ما له من تباين ، فهي تتضح عندما يحيا ذلك التنُّوع في الحب والتغيير . يصنع الزوج الإنساني صدى الجمع لـ : « لنصنع الإنسان على صورتنا » . الله لا يقول : سأصنع الإنسان على صورتي ، ولكن ، لنصنع الإنسان . . . هذا الجمع يوحي بتنوع وحركة مخلوق متحرك في الله ، ولن تستوفى صورته في شخص واحد .

لم يصنع الإنسان ليكون وحيداً ، فهو يحتاج لمن يكون في مواجهته حتى يعكسا معاً صورة الله . إن منع

---

(٤) D'après Vernette, ***Paraboles d' Orient et d'Occident***, Droguet et Ardant, Paris 1993, p.23.

* التشكيل في العبرية له دور في المعنى . (المحرر) .

شخص من علاقة أو تقليل العلاقة التي يتخاطب بها مع أقربائه ، هي طريقة لإتلاف صورة الله التي فيه . عالم بلا علاقات هو عالم يكون فيه الإنسان مجرد شخص مكوّن من نواة ، يجلس أمام التليفزيون أو شاشة الكمبيوتر وهو عالم يختفي منه الله .

اليوم السادس

لماذا انتظر الخالق حتى اليوم السادس ليخلق الإنسان ؟ تعطي تفاسير الربيين (المدراش) إجابتين على هذا السؤال :

- عندما يدعو ملك ضيفاً فهو يعدّ أفضل القصور ، ولا يجعله يأتي إلا بعد الإعداد . . الإنسان هو المدعو في الخلق .
- لم يُخلق الإنسان إلا في اليوم السادس حتى لا يعطي لنفسه الكثير من الأهمية ، فإذا تحوَّل للتباهي والوقاحة ، فسنقول له : بماذا تتباهى ؟ النملة تسبقك ، والناموسة تسبقك ، والدودة تسبقك[٥] حتى البراغيث كان لها الأسبقية عليك في ترتيب الخلْق .

هما إجابتان متضادتان . الأولى تعلن أن الإنسان خُلق في اليوم السادس إذ إنه قمة الخلْق ، والأخرى تقول إنه الأخير في الخلْق .

القمة أو الأخير ؟ من المحتمل أننا نستطيع الاحتفاظ بالنظريتين ، كما تقترح هذه المقولة الربية : يجب دائماً على الإنسان أن يكون له جيبان (اثنان من الجيوب) ليستخدمهما حسب الاحتياج . في أحدهما تُكتب هذه الكلمات « خُلقت الأرض لتحيتي » وفي الآخر تُكتب « تذكَّر بأنك لست إلا رماد وغبار »[٦] القمة أو الأخير ؟ التحية أو الغبار ؟ نحن نشعر بديهياً أن هاتين النظريتين هما بالتساوي صحيحتان . إذا كنا مهددين بالتباهي والفخر فيجب علينا التذكر أننا قد خُلقنا بعد البراغيث ، وأننا لسنا إلا رماد وغبار . ولكن عند الاستحقار ، والاكتئاب الحائم حولنا ، عندها نستطيع أن نقول : الأرض خُلقت لتحيتي . وكما قال « بال شم توف Baal Shem Tov »* مؤسس الحسيدية Hassidisme : إن الألم الأكبر ، هو نسيان أنك ابن ملك[٧] .

في هذا التصور الثاني ، وضع الله الإنسان في سياق الخلق كموجز لكل عمله . لاحظ المفسرون الربيون أن رأس الإنسان هي مَثَل مصغَّر للأرض : شعر رأسه يماثل الغابات ، دموعه مثل الأنهار وفمه مثل المحيط . ورأى ، آخرون العالم في عيني الإنسان : المحيط الذي يحيط بالأرض هو بياض العين والأرض هي الحدقة ، أورشليم الحدقة والهيكل هو النور المنعكس في النظر[٨] .

إذا كان الإنسان هو قمة الخلْق ، فقد خُلق الكون ليستقبله ، ولهذا سيطلب الله من البحر أن ينشق أمام

---

(٥) Midrash Rabba, ***Tome 1 Genèse Rabba 8.1,*** Verdier 1987, p.105.

(٦) Idem p.32.

(٧) Martin Buber, ***la légende du Baal-Shem***, Editions du Rocher, Monaco 1993, p.39.

(٨) Lois Ginzberg, ***Les legendes des Juifs,*** Cerf, Colletion Patrimoines: Judaisme 1997, p.39.

* مؤسس الحسيدية في أوربا الشرقية ويُعرف أيضاً باسم يزرعيل بن ألعازار . (المحرر) .

موسى ليترك الشعب يعبر في مسيرته ، إلى الحرية[٩] . وسيأمر الشمس أن تتوقف لساعات في مسارها لتسمح ليشوع أن يقهر أعداءه[١٠] . أما بالنسبة إلى الغربان ، فعليها تموين إيليا عندما يعتكف على حافة النهر[١١] .

خلق الإنسان في اليوم السادس ، الرقم ستة في الكتاب المقدس ، هو رمز عدم الاكتمال ، إذ إنه يسبق السابع والذي هو رقم الكلية ، والكمال[١٢] . وحتى الآن ، لكي يقوم الله بالخلق أعطى أوامره للمادة وهي نفّذت : ليكن نور . . لتتجمع المياه في مكان واحد . . . لتنتج الأرض كائنات حية ! وبالنسبة للإنسان تعامل الله بطريقة مختلفة . فلم يقل : ليكن هناك رجل وامرأة ! إذ إن خلْق الإنسان لم يكتمل بعد . وهناك مفسر يقول إنه بعد خلْق آدم ، قال له الله : « لنجمع قوانا ونصنع إنساناً » ! « والذي فعلته بخلقك يا آدم ليس إلا بداية ، نقطة انطلاق لبعض الأشياء التي قد تكون الأمثل إذا أردت . معاً نستطيع أن نصنع منك إنساناً . إذاً لنصنع إنساناً ، أتريد ؟[١٣] .

وفي مساء اليوم السادس ، وقد استعد الله أن يدخل في سبته (راحته) ، كان الخلْق لم يكتمل بعد ، فعلى الإنسان أن يكمل صنعه ، وسيفعل إذا سمع الوصية التي أُعطيت له .

الوصية

وبعد خلْق الإنسان ، بارك الله الرجل والمرأة وأعطاهما وصية : كونوا مثمرين ، تكاثروا ، املأوا الأرض وأخضعوها . تسلطوا على الحيوانات . . . أنا أعطيكم العشب وثمر الأشجار كطعام لكم . وبعد الخلْق ، بارك الله ، وبعد المباركة أعطى وصية . لا يوجد اختلاف بين كلا من فعل (خلَق) وفعل (بارك) في اللغة العبرية سوى في حرف واحد ، هذا الحرف يعطي معنى التكاثر . في اللغة الفرنسية يعني الفعل (بارك) (قول الحسن) وفي العبرية (كما في العربية) يعني « الغزارة والوفرة) » أي أنه عندما يقال : بارك شيئاً فهو يعني (يزداد) ، وبمباركة الله للإنسان فهو لا يدعوه لكي يظل ساكناً بل ليعمل في الخلْق الذي قد وُضع فيه ، وليتكاثر فيه . والوصية التي تتبع « أثمروا واكثروا » هي في مجال حركة المباركة حسب التعريف الذي يعطيه « كارل بارت Karl Barth » : « يبارك الكائن عندما يسمح له كائن آخر بإكمال فعل محدد ويجعله ممكناً ، مع إعطائه في الوقت نفسه الوعد بالنجاح »[١٤] .

في الكتاب المقدس مباركة الله مصحوبة دائماً بنداء ، فالمباركة هي إعطاء ألوهية للإنسان عن طريق السماح له بقبول الهبة التي صنعت له . في تفسير ربيني (مدراش) طلبت الملائكة من الله أن يلاحظ أن أبناء إسرائيل لا

---

(٩) خروج ١٤ : ٢١ .

(١٠) يشوع ١٠ : ١٢ -١٣ .

(١١) ملوك الأول ١٧ : ١ -٧ .

(١٢) في رموز الأرقام ، ثلاثة هو رقم الله (للمسيحيين -الثالوث) وأربعة هو رقم الأرض (العوامل الأربعة ، الأربع نقاط الأصلية) . سبعة ، وهو مجموع ثلاثة وأربعة يمثل إذاً الكلية . ومنهم ، ستة تمثل ما هو غير مكتمل .

(١٣) Jean Schwarz, ***Une règle de vie, La genèse,*** édition de l'Espérance, Jérusalem 1993, p.23.

(١٤) Karl Barth, ***Dogmatique*** N°10: ***La doctrine de La création,*** Labor et Fides 1960, p.181.

يطيعون التوراة . فاقترحوا أن يتحملوا بأنفسهم دعوة الإنسان وكانت إجابة الله عليهم هي ، ذكر الله للوصية الأولى : أثمروا وتكاثروا . وذكر أيضاً الوصية عن الأكل ، ثم قال للملائكة : أنتم لستم مثمرين ولا منتجين . أنتم لا تأكلون . لم تعط التوراة للملائكة ، بل أعطيت للكائنات البشرية الذين يأكلون ويتكاثرون . تلك الوظائف هي جزء من التقديس .

خاطر الله بالوثوق في الإنسان ، وليس في الملائكة ، ليكونوا حُرَّاس الخلْق ، في هذا الأصحاح الأول من التكوين ، يعرِّف الإنسان الفرد بتلك الحدود . إنه ليس شخصاً نقياً وكاملاً في نفسه .

خُلق الإنسان رجل وامرأة . في العلاقة الزوجية ، يجب على كل واحد أن يترك مكاناً للآخر : إذ خلق الله الإنسان رجلاً وامرأة ، فهذا حتى ليأتي كل واحد لزوجه بما ينقصه . والذي يقال في التراث الربيني : « تكون كاملاً كحسب الإنسان » ، هو إدراك ما ينقصه ، واللا كافي له ، وضرورة استقبال الآخرين ، وهذا يتحقق في الزوج (أي آدم وحواء) ترسم صورة الله وليس الشخص وحده .

حدود الإنسان تظهر أخيراً في الوصية التي أعطاها له الله . فعْل استقبال الوصية يذكِّر الزوج الأول (آدم وحواء) بأنه ليس في الوضع الصحيح ، وأن دعوته تتأصل في سماع كلمة الإله .

وبالنسبة لهذه الوصية ، هناك ثلاث ملاحظات كختام للموضوع .

- إنها تحتوي على دعوة للإثمار (أثمروا وتكاثروا واملأوا الأرض) والتي قد تُفهم في بُعد كمي : إنها الدعوة لصنع أطفال ليسكنوا ويزرعوا الأرض . ولكنها قد تسمع في بُعد كيفي : دُعي الإنسان ليحمل ثماراً روحية ، ليكون مثمراً ومتكاثراً في مجال العلاقة ، الدراسة ، الفن والمعرفة . وهناك كتابات يهودية صوفية تعرف « بالزوهار Zohar » تقول إن الإنسان عليه أيضاً أن ينمو ويزيد دراسته للتوراة . وتقول إن كل يوم يجب على الإنسان أن يجد تفسيراً جديداً للنصوص . والذي يدرس الكتاب المقدس ولا يخرج بأفكار جديدة هو مثل شجرة عاقر لا تعطي ثماراً[١٥] .

- ملء الأرض وإخضاع الحيوانات يقود الإنسان إلى عدم تأليه هذا أو ذاك . تلقت إسرائيل هذا النص عندما كانت محاطة بشعب يعتاد على تأليه الموارد ، الجبال والثيران والتماسيح ، وسمعنا في الفصول السابقة دعوة لتقديس الشمس والقمر والنجوم كمخلوقات بسيطة من الله .

- وأخيراً من الجميل التذكير بأن وصية السيادة مسبوقة بإعلان أن الإنسان هو صورة من الله . وأنه قد بُورك (تبارك) . لن تطبق السيادة عن طريق العنف ولا الإجبار ، ولكن بنفس الطريقة التي يتسيد بها الله : في احترام اختلاف كل جنس ، ووحدة كل شخص .

يعلم الله أن الإنسان قابل للخطأ ، ولكن هذا الضعف هو الوجه الآخر للحرية ، والله يريد التحدث مع الخلْق عن العلاقة التي ترتكز على الحرية . إذا بورك الزوج الأول ، فهذا ليس للتمتع بالفرح بأخذ البركة ، ولكن للدخول في الخلق بعد أن يأخذ مكانه فيه ويتحمل مسئوليته فيه .

---

(١٥) Rabbi Yaacov Couli, *Meam Loez, Genèse Tome 1*, Moznaim Publishing, Jérusalem 1992, p.118.

لماذا الإنسان ليس حسناً؟

بعد قراءة الأصحاح الأول من التكوين ، تقدم إنسان إلى الله وقال له : « يا ملك العالم ، عندما صنعت النور قلت إنه كان حسناً وعندما صنعت البحر والأرض ، قلت إن ذلك كان حسناً . وعن كل العشب وكل الحيوانات التي خلقتها ، قلت أنها كانت حسنة . ولكن عندما صنعت الإنسان على صورتك ، لم تقل إن ذلك كان حسناً[١٦] ، لماذا ؟ » . فأجاب الله : « لأن الإنسان ، لم أنجزه بعد ، يجب أيضاً أن ينجز نفسه بنفسه ، وأن يقود الخلْق لطريقه » .

على صورة الله الخالق ، يجب على الإنسان أن يتبع وينجز الخلْق . كما قال « زوهار Zohar » : « في اليوم السادس ، بعد خلق الإنسان ، قال له الله : لقد عملتُ حتى الآن ، ولكنك ستكمل » .

تحكي أسطورة حكاية سلحفاة والتي تشكي لله الألم الذي يحكم العالم . فعقد الله معها ميعاداً ليتكلما بهذا الشأن ، ولكن طلُب منها أن تأخذ معها حية كبيرة ومليون نحلة . فملأت السلحفاء وعاءَ بالعسل ، وجذبت مليون نحلة ثم أغلقته . ثم ذهبت لتحكي للحية الكبيرة أن البامبو يمتد لمسافة أكبر منها . وهكذا حصلت عليها بعد أن ربطتها بالبامبو ، فضلاً عن العنكبوت الذي نسج لها نسيجه لتتسلق عليه حتى السماء إلى أن وصلت أمام الله ، وذكرت له كل آلام الدنيا . قال لها الله : كيف تستطيعين التكلم هكذا ؟ أنت سجنتي مليون نحلة ، وحجزت ثعباناً خطيراً ، وصعدت إليّ . إن لديك كل ما تحتاجينه لتصارعي ضد الألم . لماذا تريدين أن أصنع ذلك بدلاً عنك ؟ » .

(١٦) « حسن جداً » في الآية ٣١ صنعة لا تطبق خصيصاً على خلْق الإنسان وإنما على مجموع الخلْق .

المزارع والقس

هناك شخص كان يملك حديقة في غاية الجمال مملوءة بالورد والخضرة وبها جدول ماء وخضروات وبعض أشجار الفاكهة ، وكان راعيه يحب أن يزوره ليجلسا معاً ويتحادثا في الحديقة . وكان القس يقول دائماً : « الله وأنت ، لقد صنعتما حقاً عملاً جميلاً في تلك الحديقة » ، وكان يكرر دائماً نفس العبارة . حتى جاء يوم قال فيه الرجل بضيق وانزعاج : « الله وأنا ، الله وأنا . . . . » ، كان عليك المجيء لرؤية الحالة السيئة التي كانت عليها هذه الحديقة قبل أن آتي ، عندما لم يكن هناك سوى الله الذي يهتم بها ! » .

وفي يوم سألنا حكيماً عن ما كان عليه صُنع الله وصُنع البشر ، أخذ الحكيم في إحدى يديه بذور قمح وفي الأخرى خبزاً وقال : هذا هو عمل الله ، وهذا صنع الإنسان ، قارن الاثنين !

الوصية المعطاة للإنسان تشبه عمل المزارع . يجب عليه وضع النظام ، العمل ، حرث وعزق الأرض ، نزع الأعشاب السيئة ، يستنشق ويزرع الورد و . . . . . ينتظر أن يصنع الله عمله . الإنسان مسئول عن الخلْق مثل المزارع على حديقته .

٧

اليوم السابع

كان السبت هو ينبوع الحياة لشعب الله عندما كانوا في السبي مفرَّقين وضعفاء ودائماً مذلولين ومضطهدين. فهو يجدد فخرهم وألوهيتهم. إذ كالملوك يحتفلون باليوم السابع

(إريك فروم Erich Fromm)

١- فأُكملت السموات والأرض وكل جندها، ٢- وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل. فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل. ٣- وبارك الله اليوم السابع وقدسه. لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقاً. (تك ٢:١-٣).

إذا كان لدى الله سبعة أيام لتنظيم خلق العالم ، فلماذا أسرع بإتمام كل شيء في ستة أيام ؟ قد نظن بأنه كالتلميذ النجيب ، يريد أن يتقدم في عمله حتى لا يتكدس عليه الدرس في اللحظات الأخيرة ، ولكن قراءة متأنية للأعداد الكتابية المذكورة تتضح إجابة أخرى .

وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل . هناك ترجمة أدبية تقول : « أنجز الله في اليوم السابع . . » نهاية الخلْق لم تتم في ليل سادس يوم ، ولكن في السابع . وفي تفسيره ، قال « راشي Rachi » بأنه في نهاية اليوم السادس ، ينقص عامل مهم في خلق الله : الراحة[١] . الراحة (خُلقت) ووضع أساسها مع السبت . وعندما تساءل « المدراش » (التفسير الربيني) : ما الذي خُلق في اليوم السابع ؟ أجاب : « الهدوء ، الصفاء ، السلام

(١) Rachi, ***Commentaire du Pentateuque, La Genèse***, fondation Samuel et Odette Lévy, Paris 1993, p.13.

والراحة » . إذن فعمل الخلْق أُنجز عند هذه النقطة فقط ووصل لنهاية جيدة . هذه القراءة مهمة إذ إنها تعطي قيمة سامية إيجابية للراحة .

قال ارسطو : « إننا في حاجة لراحة إذ إننا لا نستطيع العمل دون توقف » . وبالنسبة للفيلسوف ، فالراحة ليست هدفاً في حد ذاتها ، فهي لها هدف في فاعلية العمل . فهي عامل يتعلق بالدخل (الإيراد) . في القرن التاسع عشر ، انطلقت قافلتان في نفس اليوم من شاطيء شرق الولايات المتحدة ليصلا إلى الباسيفيك (المحيط الهادي) ، قررت القافلة الأولى أن تتوقف يوماً في الأسبوع للاستراحة ، بينما الثانية ، والتي أرادت الوصول بأسرع ما يمكن ، قررت عدم التوقف . وبعد أسبوع من المسيرة ، تقدمت الثانية يوماً واحداً عن الأولى ، وبعد أسبوع آخر ، كان تقدمها بيوم وثلاثة أرباع ، ثم بلغت يومان في الأسبوعين التاليين . ومن بعد الأسبوع الخامس ، بدأ التقدم في الهبوط . وعند الأسبوع الثامن من المسيرة ، زادت القافلة الأولى بضعف المسافة للقافلة الثانية التي لم تتوقف ولم تأخذ راحة أبداً .

السبت يوم « فعَّال » . وهو السبب الذي من أجله حددت الوصايا العشر أنه يختص أيضاً بالحيوانات والخدَّام ، والخادمات . ولكن تناول النصوص للموضوع هو أكثر من مجرد معيار للفعالية . السبت ليس مجرد راحة ترضي الطبيعة الإنسانية حتى يستطيع الشخص العمل بطريقة أفضل . إنه أكثر من تغيب بسيط عن العمل ، فقيمته أكبر من ذلك ، إنه الهدف النهائي أيضاً للخلْق ! السبب الذي وضعت الخليقة من أجله هو السبت . هدف الحياة ، هو السبت ! عكس ما قلناه بخصوص اليوم السادس ، فالإنسان ليس قمَّة الخلْق . فالقيمة شاغرة بالسبت .

ثلاثة أفعال تساعد على فهم معنى هذا اليوم : التوقُّف ، النظر ، الاعتراف .

التوقُّف

خلْق الله العالم في ستة أيام ، ثم توقَّف ، إنه يستريح . راحة الله لا تماثل راحتنا التي ننعم بها على أنفسنا عندما نلهث . إنها عبارة عن توقف إرادي ، انسحاب بالنسبة للخلْق .

يعرف كل الأهالي أنهم بحاجة للانسحاب أولاً بأول عندما يكبر أولادهم ، ليتركوهم لكي يأخذوا نقطة الانطلاق . نحن نلاحظ حركة متجانسة في النص : عندما فوَّض الله الخلْق للإنسان ، انسحب ليسمح له بتطبيق دعوته . لقد أدركنا في الفصل الأول ، نظرية (التسيمتيوم tsimtsoum) والتي بمقتضاها كان الله يقرر أن ينسحب في نفسه ليترك الخلْق ينتشر ، وقد أنهى ذلك التطبيق في اليوم السابع .

الله كان يقدر جيداً أن يتابع خلْقه ، ويهتم بأعمال العالم . يتقرّب البشر إلى الله دائماً لكي يعرفوا لماذا لم يفعل ، وذلك عندما يسألونه لماذا الألم ، لماذا العنف والحرب . وهم يرون أنهم كانوا سيكونون أكثر راحة لو أن الله ضبط الخلْق في يده واهتم بكل شيء ! ولكن هذا ليس الطريق الذي اختاره الله ، فقد اختار الله خيار الانسحاب ليفوِّض هذه المسئولية للإنسان ، ويسمح له بأن يفعِّل حريته من خلال العمل . إن سبت الله هو إثبات الثقة في الإنسان . وفي بقية الكتاب المقدس تحوَّل توقُّف الله عن العمل إلى نموذج يتبعه الإنسان وهو محدد في

الوصايا العشر . إن اليوم السابع من الخلْق هو الأصل ، والتعليل للوصية الرابعة ، وكَمَثل توقُّف الله بعد ستة أيام . فيجب على الإنسان أن يصنع من اليوم السابع وقتاً للتذكُّر والتقديس[٢] . وكصورة الله ، فالإنسان مدعو ليقطع عمله في الخلْق والإنماء ، ليدخل هو أيضاً في نموذج الراحة . وحسب « باسكال Pascal » ، هذا النموذج ضروري ، وأيضاً مفيد : « لقد اكتشفت أن كل مآسي الإنسان تأتي من شيء واحد ، والذي هو عدم معرفة الاستمرار في راحة داخل غرفة » .

إذا كان بالنسبة لله ، أن السبت هو إثبات للثقة في الإنسان ، فبالنسبة للإنسان ، هو علامة لثقته في الله . ويقدم يوم الراحة مسافة بين الشخص وعمله اليومي ، وبذلك فالسبت هو الذي يفرِّق الإنسان عن الحيوان والماكينة .

السبت أكثر جمالاً عن مجرد يوم راحة ، فهو يوم خاص ، والذي يعلن فيه تقديس الله . وقد رأينا أنه في اليوم الأول ، خلْق الله الوقت ، والسابع أعطى للوقت قيمته . وتقديس السبت يعطي معناه لتتابع الأيام . وفصل الأسبوع لجزئين ، ستة أيام في ناحية والسابع في الناحية الأخرى . وكل واحد من أجزائه هو تفسير للآخر .

ينفتح السبت على الأبدية مثلما كتب « إبراهام هيشل Abraham Heschel » : « لا يمنحنا التقليد اليهودي تعريفاً لنظرية الأبدية ، ولكنه يقول لنا كيف أنه في داخل الوقت نفسه يمكننا أن نختبر الأبدية كذلك العالم المستقبلي أنه ليس فقط حالة ما بعد الموت والتي ستدخلها الروح في اليوم التالي حيث ستكون قد غادرت الجسد . روح العالم الآتي هو السبت الأبدي ، وفي إطار الوقت ، فإن السابع هو صورة الخلود[٣] . إن وصية السبت هي تجربة روحية ، فهي دعوة للتوقف لتسجيل وقتنا مع وقت الله ، ولتقديم الأبدية في تتابع أيامنا .

النظر

عندما أنجز الله عمله في الخلْق ، يقول النص : « ورأى الله كل ما عمِله فإذا هو حسن جداً » ، السبت هو وقت للتوقُّف ، وهو أيضاً وقت للنظر . أخذ الله الوقت لينظر خلْقه ليرى أنه حسن بل وأيضاً حسن جداً .

النص الأول يستطيع الآن أن ينتهي : « فأكملت السموات والأرض وكل جندها » . والكلمة التي تُرجمت بـ« جندها » تعني أيضاً (سلاحها) . وهناك ترجمات أقدم تقول : « وهكذا أكملت السماء والأرض وكل أسلحتها » . والسلاح العسكري هو تنظيم يتكون من مقاتلين ، ولكن يتكون أيضاً من مسكن ، وإدارة ، وعبادة ، ووسائل نقل . . إنه جمع في غاية التعقيد والذي فيه كل قطعة يجب أن توجد في مكانها الصحيح بالنسبة لمواضع الآخرين . وعبارة « السماء والأرض وكل سلاحها » تدعونا للنظر للخلْق كجمع ، والذي لا يوجد في صورته أي عامل معزول إذ إن كل واحد يشغل فيها مكانه . والطبيعة هي نظام غني ، معقَّد ، ممتليء بالحياة ، والذي فيه كل قطعة لها مكان واحد وغير قابل للتبديل .

---

(٢) خروج ٢٠ : ١١ .

(٣) Abraham Heschel, ***Les Bôtisseurs du temps***, Editions de minuit, p.178.

وأثناء السبت ، صرف الله الوقت لينظر الخلْق ، ويلاحظه ويتأمله ، ليحكم أخيراً بأنه كان حسناً ، والإنسان مدعو ليتأمل سلوكه دورياً ، هو أيضاً يحتاج أن يأخذ الوقت ليستريح ، وليختبر أسبوعه ، ويعيد قراءة تاريخه . السبت هو أكثر من (مقهى –استراحة) في الأسبوع ، إنه أخْذ مسافة بالنسبة للحركة اليومية ، لينظر ويسمع . ويتذكر « هيلار دي بواتيه Hilaire de Poitiers » وهو (أحد الآباء في الكنيسة في القرن الرابع) : « إن الخلق يتكلم عن الله خلف انتظام حركة الكواكب ، وقوة أمواج البحر ، وسر إنبات البذور المدفونة في الأرض » .

فهو يرى وجود الله ويذكر ذلك في صلاته : « أنت تقدم لنا حقائق لا أعلم لها سبباً مع عدم القدرة على تجاهل تأثيراتها ، وفي الوقت الذي نتقدم فيه لعبادتك نتلافى نقص جهلنا الراسخ فينا »[٤] . السبت هو ذلك الوقت الذي وضع فيه الإنسان في المواجهة مع سر أصله . ومن هنا ، يستطيع أن ينطق كلمة الإيمان والتي تعطي معنى لوجوده . وفي كل الأصحاح الأول للخلْق نظَّم الله الفوضى ، وعمَّر الوحدة ، عن طريق كلمته . يحتاج الإنسان للسبت ليسمع هذه الكلمة والتي تضع النظام في اللانظام ، وتضع له معنى في الظلام ، والتي تهمس له بوجود يغمر وحدته .

هذا درس في الخلْق والذي تلعب فيه المسافة دوراً مهماً . فحتى تحمل البذرة ثمراً ، يجب أن تسقط من الشجرة ، وتدفن في الأرض وتموت . وحتى تروي المياه الأرض ، يجب عليها أن تترك البحر بالتبخر ، وتصاحب السحاب وأن تحمل عبر الهواء قبل السقوط كمطر . وبنفس الطريقة ، يجب على الإنسان أخذ مسافة بالنسبة لحياته ، وحركاته ، وعمله ، ومشاغله ، حتى يعطيهم معنى .

لا يرى الطفل نفسه وهو يكبر إذا لم يكن لديه علامات ليقيس نموه . يجب أن يكون هناك مسطرة وعلامات منتظمة لتقدير نموه . وفي العهد الجديد ، نصح بولس الرسول قُرَّاءه بألا يكونوا أطفالاً في الإيمان بل أن يتحولوا لبالغين . السبت هو مسطرة تسمح لكل واحد أن يقيس نموه .

الاعتراف

السبت هو وقت للاستراحة والملاحظة ، وهو أيضاً وقت للاعتراف : « اذكر يوم السبت لتقدسه »[٥] .

عندما أطعم الله شعبه بالمن في الصحراء ، أمره بجمع ضعف الكمية في اليوم السادس حتى لا يعملوا في السبت[٦] . يحكي « المدراش » أنه في اليوم السابع ، خرج بعض الرجال ليجمعوا المن اليومي ولم يجدوا شيئاً . فخافوا أن تتوقف معجزة المن . فقال لهم موسى : « لسوء الحظ ، أمركم الله بالراحة ، وأنتم لا تنفذون الأمر ، إذن ، فكيف ستكملون وصيته ؟ . احترموا السبت ، وسوف تستطيعون جمع أكل كل يوم ، احترموا السبت ، وسيعطيكم الله أرض الموعد والعالم القادم ، وأضاف المفسر : إنه لو أن كل العبرانيين كانوا قد احترموا السبت ، لما

(٤) Soeur Isabelle de la Source, ***Lire la Bible avec les Pères, la genèse***, Médiaspaul 1988, p. 18.

(٥) خروج ٢٠ : ٨ .

(٦) خروج ١٦ : ٢٢ –٢٤ .

كان هناك أي شعب على الأرض يستطيع قهر إسرائيل[٧] .

توقُف النشاطات هو عمل إيماني كما يوضح هذا الاقتباس لـ « لوثر Luther » والذي يحكي فيه عن نهاية أيامه : « أذهب إلى حجرتي وألقي المفاتيح عند أقدام سيدي الله قائلاً له : ياسيد ، إنه شأنك وليس شأني ، إنه بدوني حفظته لي منذ بدء العالم ، من دوني تستطيع أن تحفظه جيداً حتى النهاية . إذا كان لشرف اسمك ، ولتجميل ملكوتك ، إنها إرادتك أن تصنع هذا وذاك ، فلتكن إرادتك » [٨] .

التوقُّف والنظر هو مسار يوفر للشخص معرفة الله في البدء وفي منتصف حياته . قلب الإيمان الإنجيلي هو الإعلان والذي بمقتضاه تُعطي قيمة للشخص ، ولا تأتي مِن حيث ما يمتلكه ، ولا ما يصنعه . إن قيمته معطاة من الله . كل إنسان محبوب دون شرط ، من خارج طباعه ، ومن خارج إنجازاته أو أفعاله الحسنة ، ومن بساطة ابن الله .

الحب غير المشروط هو شيء يخص الله . إذا كان هناك شخص هو الأكثر كرماً من باقي البشر ، إذا كان شاهداً للحب عن طريق كلامه وحركاته ، وإذا كان مخلصاً تماماً لقريبه . . . فهو محبوب بالتمام من الله . فإذا كان ذلك الشخص هو أسوأ البشر ، وإذا كان بخيلاً وادعائياً ، إذا كان يذل الآخرين ، منغلقاً لدرجة أنه يُعدّ أنانياً . . . فهو أيضاً محبوب بالتمام من الله . تأمل أحدهم في الحب غير المشروط فقال : « لو كنت أستطيع فقط أن أحب الأغلى من أقربائي بقدر ما أحب الله أسوأ الناس »[٩] .

لا يوجد أحد يتماثل تماماً مع أحد في تلك الصورتين . حياة كل واحد غامضة ، فهي مزيج من الإيمان والرفض ، الأمل واليأس ، النور والظلمات ، من البذر الجيد والزوان . ولكن في قلب ذلك الغموض تتركز حقيقة واقعة ، وهي أن الإنسان محبوب من الله ، وعندما يفهم الإنسان هذا فإن ما ينقصه فقط أن يذكر تلك الحقيقة يوما بعد يوم .

مع قطع نشاطاته ، يرجع الإنسان إلى أصل وجوده في السبت ، إن العمل ليس هو المهم ، وإنما التوقُف حيث لا يظل شيئاً سوى الذات .

وكما قال تليشكان الربيني « Telushkin » : « إن تأسيس علم لاهوت السبت ، هو المبدأ الثوري الذي فيه الإنسان يستحق التقدير حتى عندما لا يعمل ولا ينتج شيئاً » [١٠] . ويقول مفسر ربيني : « إنه في أثناء أسبوع الخلْق ، لم يكن هناك لحظات موفقة لإعلان قداسة الخالق سِوى يوم السبت ، والذي ترتاح فيه كل الخلْق ، وترفع كل الخليقة ترنيمات الشكر لله . والله جالس على عرشه وتعبر كل الملائكة من أمامه ليغنوا مجده . وأخيراً دُعي الإنسان لينضم إليهم » . وبالتهليل يوضع الشخص كالمخلوق أمام الخالق ، وبذلك يدرك ويقتنع بألوهيته .

---

(٧) Edmond Fleg, ***Moïse raconté par les sages***, Albin Michel collection Espaces libres, Paris 1997, p.87.

(٨) Cité Par Marc Lienhard, "L'humanité de Luther" ***Revue Réformée*** 1996 / 5, p.6.

(٩) D'après Martin Buber, ***Les récits hassidiques***, Editions du Rocher, Monaco 1978, p.381.

(١٠) Joseph Telushkin, ***Le grand livre de la sagesse juive***, Calmann-Lévy 1999, p.511.

في السبت لا يهرب الإنسان إلى اللهو والتسلية ، فهو يجمع أحداث الأسبوع ويأخذ الوقت في إعطائه المعنى . ذهب « كارل بارت Karl Barth » إلى القول : إن الإنسان قد خُلق ليشارك في الراحة والتي تصبح علامة النعمة(١١) . وفي مجتمع حيث يسيطر الاقتصاد ويكسب أرضاً جديدة تدريجياً ، فإن السبت يصبح محل نزاع . مثل العشور بالنسبة للنقود ، السبت ينتمي لمجال القربان ، الهبة المجانية . إنه الاعتراف بأن : « ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل ما يخرج من فم الرب يحيا الإنسان »(١٢) . فله ستة أيام ليهتم بالخبز ، ويوم (ليأكل) بالكلمة . وبالتوقف في اليوم السابع ، يصنع الإنسان فعلاً يعلن به ويعترف بما يؤمن به ، إنه ليس محبوساً بقانون قهري ، إنه يعلن حقيقة حريته .

ولفهم تلك الفكرة ، نستطيع أن نأخذ مثَلاً من عادة تدخين السجائر ، فإذا اعتاد شخص على التدخين فإنه يظن أن الطباق متعة ، وأنه ليس عبداً له . هذا صحيح ، ولكن إذا لم يتوقف فجأة لبعض الوقت ، فعندها سيكون حديثه نظرياً تماماً . كذلك مثل رجل يستطيع دائماً القول بأنه حر ، وإنه ليس عبداً لعمله ، فإذا لم يتوقف دورياً ليعلن ذلك ، فحديثه يصبح حديثاً فارغاً . إنه يستطيع دائماً القول بأنه ابن الله ، فإذا لم يُعلن ذلك ، في جدول أعماله اليومي والأسبوعي ، سيظل هذا الاعتراف نظرياً تماماً . إنه يستطيع أن يقول إنه محبوب من الله ، وإذا لم يقدر أن يضع وقته جانباً ليتوقف ويتذكر الخلْق ، فهو لا يعيش ما يقوله .

التوقُّف ، النظر للتذكُّر ، الاعتراف بحب الله ، السبت هو حقاً عمود الإيمان والحرية ، نحن نفهم لماذا صنعت منه اليهودية علامة الوفاء لله الأكثر وضوحاً . أما المسيحية ، فيكفيها أن عرفت أهمية يوم الراحة بنقله لليوم الأول في الأسبوع .

(١١) Karl Barth, ***Dogmatique*** N°10: ***La doctrine de la creation***, Labor et Fides 1960, p. 105.

(١٢) Dt. 8.3 repris dans l'évangile en Matheo 4.4.

السبت و الاقتصاد

منذ سنوات ونحن نسمع باستمرار تساؤلاً عن فتح المحلات يوم الأحد . إن هذا اليوم لا يحكمه قانون ، ولكن التجاوزات تزداد أكثر فأكثر ، ومن المحتمل أنه ذات يوم سيُلغي تماماً غلق المحلات يوم الأحد .

هذا التطور يحمل مؤشرات ، فالناس يرون أنه يمكن أن يقضوا الأسبوع كله في العمل لكي يستطيعوا توفير بعض النقود التي تصرف يوم الأحد . والاقتصاديون الذين يدافعون عن فتح المحلات ، يقولون إن ذلك سيسمح بإنعاش الاقتصاد . وفي وجه ذلك المنطق ، يذكّر السبت جيداً بأن الهدف من الإنسان ليس جمع أو صرف النقود ، بل الحياة . ولإعطاء معنى للحياة ، فإن الإنسان يحتاج وقتاً للراحة .

وفي وجه ذلك التطور ، نستطيع أن نتذكّر ما قاله بولس الرسول بالنسبة للجنس : « كل الأشياء تحل لي لكن ليس كل الأشياء توافق . كل الأشياء تحلّ لي لكن لا يتسلط عليّ شيء[١٣] » . المحلات مفتوحة أكثر فأكثر يوم الأحد ، وليس هناك قانون حاكم يُحرم تكاثرها . ولكننا نستطيع تذكُّر وصية السبت ، ووضع فعل مضاد في مواجهة عبودية المنطق ، المنطق الذي يقود كل الأشياء لخدمة الاقتصاد .

---

(١٣) رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس ٦ : ١٢ .

السبت هو كاتدرائية

لم تترك الأمة الإسرائيلية نُصُباً كرمز للإنسانية ، وإنما خلَّفت رؤية عن الوقت . يقول اليهود : « السبت هو كاتدرائيتنا ، هو قدس الأقداس الذي لا الرومان ولا الألمان استطاعوا تدميره »(١٤) .

ليس هناك أحد يملك الوقت ، فهو ملْك كل العالم ، كل البشر يخضعون له ، الملك مثل الشحات ، الجاهل مثل العالم : لا يستطيع أحد الهرب منه ، ولذلك يجب تقديس السبت .

يحكي « جونج Jung » وهو ثاني أب « للبسكانالية Psychanalyse » ، أنه ذات يوم ، جاء قس ليستشيره ويشكو له أنه يعاني من ضغوط الأنشطة . كان مرهقاً وعصبياً وكانت يداه ترتعشان . فوصف له الطبيب وصفة بسيطة وغير باهظة وقال له : « يجب على القسيس أن يعمل لثماني ساعات في اليوم ، وينام ثماني ساعات ، وباقي الوقت يجب عليه أن يمضيه وحيداً في مكتبه ، بكل هدوء » .

وفي اليوم الثاني ، لم يعمل القسيس سوى ثماني ساعات ، وساعة الغداء ، شرح لزوجته ما عليه فعله ، وأغلق على نفسه داخل مكتبه . وبما أنه كان يحب الموسيقى ويجيد العزف فقام بعزف بعض أعمال شوبان ، ثم قرأ قصة « لهرمان هس Hermann Hesse » ، وفي اليوم التالي ، اتبع نفس البرنامج مع تغيير القطعة الموسيقية والكاتب الذي يقرأ له ، فعزف « لمواز » وقرأ « لتوماس مان » .

وبعد أسبوع ، عاد ليرى طبيبه واشتكى له بأنه لا يشعر بتحسن ، فسأله جونج عما فعله ، وما إذا كان اتبع النصيحة بشكل صحيح ، فوصف له القس استعماله الجديد للوقت ، فقال له الطبيب : « أنت لم تفهمني . لم أطلب منك العزف أو القراءة ، بل أن تكون وحدك مع نفسك » . فارتعب القس قائلاً : « ولكني لا أعرف أسوأ من هذه الصحبة » . فأجابه جونج : « ولكن هذه الصحبة التي تجبرون عليها الآخرين لمدة ١٤ ساعة يومياً ، أليس هذا دليلاً على السادية أن تجبر الآخرين على أشياء لا تحتملها أنت ؟ ! » .

كتب « إبراهام هاشيل Abrahm Heschel » : « العمل مهنة ، ولكن كمال اللاحركة فن نصل إليه عن طريق ترابط الخيال ، والروح ، والجسد . وحتى تبدع في فن ما ، يجب أن تقبل التهذيب »(١٥) .

(١٤) Abraham Heschel, *Les bâtisseurs du temps,* Editions de minuit p.105.

(١٥) Idem, P. 114.

٨

آدم

قالوا لي "أنت لست سوى رماد وغبار" نسوا

أن يقولوا لي أنهم يقصدون رماد النجوم

(هوبرت ريفز Hubert Reeves)

٤- هذه مباديء السموات والأرض حين خُلقت. يوم عمل الرب الإله الأرض والسموات، ٥- كل شجر البرية لم يكن بعد في الأرض وكل عشب البرية لم ينبت بعد. لأن الرب الإله لم يكن قد أمطر على الأرض، ولا كان إنسان ليعمل الأرض. ٦- ثم كان ضباب يطلع من الأرض ويسقي كل وجه الأرض، ٧- وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض. ونفخ في أنفه نسمة حياة. فصار آدم نفساً حية. (تك ٢ : ٤-٧).

مع السبت ، قد وصلنا إلى القمة . أنجز الله عمله وأوكل مفاتيح الخلْق للزوج الإنساني (آدم وحواء) : والله الآن يستطيع أن ينسحب .

مشكلة القمَّة أنها تسبب الدوار ، وهذا هو السبب الذي من أجله يُعطي للنص أهمية توصيلنا إلى المستوى الذي هو أكثر ألفة إلينا ، الذي هو التراب ، ومع نص آخر للبدء ، سنلقي نظرة أخرى على خلْق الإنسان ، والنباتات ، وأخيراً الزوج (الرجل والمرأة) .

لماذا يتضمن الكتاب المقدس نصين يتكلمان عن الخلْق

كانت إجابة هذا السؤال بسيطة نوعاً ما لوقت طويل ، فالنص الأول يتناول أول سبعة أيام للعالم ، والثاني يحدد

مع زيادة في التفاصيل ، ما حدث في اليوم السادس .

الأصحاح الثاني من التكوين ، والذي يبدأ بخلْق آدم وينتهي بخلْق المرأة ، لن يكون إلا تطوراً للآيات الأخيرة في الأصحاح الأول .

هذا الحل مغرٍ ، ولكن قراءة متأنية قليلاً تثبت أن النصين لا يستطيعان الاجتماع (الواحد داخل الآخر) بكل سهولة ، إذ إنهما يقدمان معلومات مختلفة .

● نص التكوين(١) يذهب من وسط مائي . في البدء كان (التوهي -بوهي) ، كان الخراب مائياً ، وخلْق الله عن طريق رفع الماء ، ويذهب النص الثاني من وسط صحراوي . في البدء ، كانت الأرض جافة وعارية ، وخلْق الله عن طريق زرع الصحراء .

● في النص الأول ، ظهر الله في صورة ملك يتكلم ويأمر بصنع الأشياء . في الثاني الله حِرَفي (فنان) يصنع العالم بيديه ، مثل نحّات يصوغ عمله .

● النص الأول له طابع كوني ، أنه خلْق السماء والأرض بكل ما فيها . الثاني له قائمة تاريخية ، فهو يحمل فاجعة أصل الإنسان في مقابلته مع الإغراء .

أمام تلك التناقضات ، يشرح المفسرون أننا أمام نصين ليس بينهما شيء مشترك ، وأنه تم صياغتهما في عصور مختلفة . ويستشهدان من مصادر مختلفة والتي اشتركت مع التراث .

النصان مختلفان ، ولكننا نستطيع الحصول على قراءة إيجابية بدمجهما معاً . إن تجاور النصين ليس سببه ضعف التصنيف ، وإنما تجاورهما يسمح بالتأكيد على التكامل بين القرائتين . وبمتابعة قاعدتنا والتي بمقتضاها يحتوي الأصحاحين الأولين في التكوين على حقائق أولية وضرورية عن العالم والحياة ، فإن الأصحاحين لهما رسائل مختلفة . يتكلم النص الأول عن الإنسان في الستة أيام الأولى من الأسبوع ، والثاني يعلن و(يقدم) إنسان السبت .

الإكمال

النصان يكملان بعضهما ، ولكن النص الثاني هو أكثر تعمقاً وشرحاً لسابع يوم أكثر من اليوم السادس . ولإثبات هذه الفكرة سوف نوضح الأسلوب الذي نتبعه في فهم النصين ، هناك ثلاثة مفاتيح للخلْق : الوصية ، الزوج ، واسم الله .

● فالوصية موجبة : أثمروا . . . اكثروا . . . املأوا . إنها دعوة لأخذ موقع في الخليقة لإعمالها . في النص الثاني الوصية سالبة ، فهي تضع حدوداً : لا تأكل من الشجرة التي في وسط الجنة . النص الأول دعوة للإنسان للعمل والتغيير ، النص الثاني يضع حدوداً على استخداماته وأعماله .

● في النص الأول ، خلْق الإنسان رجلاً وامرأة ، ومعاً هما مدعوان للتكامل ، في النص الثاني الاختلاف يتميز بالنقصان « ليس حسناً أن يكون الإنسان وحده » والرغبة (ها هي عظم من عظامي ولحم من لحمي) .

الاختلاف بين الرجل والمرأة ليس موضوعاً بهدف التناسل بل بغرض تكوين علاقة .

● طريقة تسمية الله مختلفة . في النص الأول ، دُعي اللهَ ألوهيم « الله » والذي هو اسم نوعي (اسم جنس) ، بينما في الثاني ، الله دُعي يهوه والذي هو الاسم الخاص بإله إسرائيل . الاسم في الكتاب المقدس ليس مجرد تسمية اختيارية لتصنيف كائن أو شيء . فالعبرية تعطي الأسماء مدلولات . تظهر نوع الكائن أو الشيء المسمى ، ويعطيه لقباً . إنه التقديم الشفهي لما يشير إليه . يمثل اسم « ألوهيم » الله كما يظهر في الطبيعة والخليقة . الله « ألوهيم » هو خالق السماء والأرض ، هو إله العدل الذي هو أصل كل شيء .

الاسم « يهوه » بالعبرية قريب من فعل (يكون) ، وهو يشير إلى الله في روحه الإلهية . « الله هو . . . والذي أراد أن يدخل في علاقة مع الإنسان » . في اليهودية الاسم « يهوه » يدل على إله إسرائيل إله الرحمة . والاسم « ألوهيم » يدل على إله العمل والعدالة ، بينما « يهوه » هو دلالة الكينونة والعلاقة في تلك الأمثال الثلاثة ، لا يوجد تضاد بين النصين ، بل إكمال . الله خالق ، ويدعو للعلاقة ، والوصية موجبة وسالبة أيضاً . دُعي الزوج للتكاثر ليعيشا اختلافهما الجنسي بين النقص والرغبة . النص الأول يكلم الإنسان في عمله ، في نشأته ، وتكاثره ، بينما الثاني يكلم الإنسان في علاقته ، وفي عبادته وتجاوبه .

الله « ألوهيم » خلَق كلاً من **الزوج المتكاثر والوصية الموجبة** التي تدعو الإنسان **لغزو الأرض** ومثله . الأصحاح الأول يتكلم عن الإنسان الذي يزرع والذي يحصد ، والذي يضع **أطفالاً** ، **والذي** يبني ويتقدم . **إنه** إنسان الستة أيام الأولى من الأسبوع . والله « يهوه » ينادي **الزوج للدخول في علاقة** ، والوصية السالبة تضع حدوداً . كل هذه الأمور تتكلم عن إنسان السبت . الأصحاح الثاني يكلم الإنسان الذي يتوقف ليفكر في حركته ، الإنسان الذي يفكر ويدخل في علاقة .

الخاصية السبتية أخلاقية تخص الإنسان في النص الثاني للخلْق ، وهي توجد في الطريقة التي خُلق بها ، فهو تشكَّل من تراب الأرض ، كما ستتشكل الحيوانات فيما بعد . ولكن الإنسان وحده نفخ الله فيه نسمة حياة . وكلمة « نسمة الحياة » أو « نفخة الحياة » تختص دائماً « بآدم » وهذا ما يفرقه عن الحيوان . هذه الكلمة العبرية « Nechamah » تحمل معنى أخلاقياً دائماً . ويقول « راشي Rachi » في تفسيره : إن الكلمة تصف الإنسان وذلك على عكس الحيوان [1] ، فهي تضع مسافة بين الشخص والحدث الذي يقوده في مجال الأخلاق . الكلمة هي (تأمل) وهي تسمح بالانتقال من الغريزة للوصول إلى الإنسانية .

ويحكي النص بطريقة شعرية ، أن نسمة الحياة قد نُقلت من الفم ، أي من فم الله لأنف آدم . فعندما انتهى الله من النفخ في أنف آدم ، فقد أفضى فيه بنفسه « روحه » ليحوِّله لإنسان . . فصار آدم نفساً حية .

لا يوجد في (الآدم) جزء جسدي وجزء روحاني ، فقد انتشر نَفَس الحياة في كل أعضائه ليعطي حياة لحقيقة جديدة والتي يسميها الكتاب المقدس نفساً حية[2] . الإنسان هو ثمرة الأرض والروح ، هو من تراب

(١) Rachi *Commentaire du Pentateuque, la Genèse*, fondation Samuel et Odette Lévey, Paris 1993, p.15.

(٢) تساءل الكابال « La Kabbale » كثيراً على الشكل المحدد للكائن البشري . وتبعاً لآية أيوب القائلة : « وبعد أن يفنى جلدي هذا وبدون جسدي أرى الله » . (أيوب ١٩ : ٢٦) . فقد عرف شكل حياة محددة والتي هي موضوعة في مجال متوسط بين الروحانية الخالصة لروح الإله والمادية الإبتدائية للطين الأولى .

الأرض ونسمة الله معاً ، في شخص واحد يوجد الإنسان والإله ، الأرضي والسمائي . وُلد الإنسان من الأرض حتى لا ينسى أنه ليس سوى رماد وتراب . ووُلد من نسمة الله حتى لا ينسى أنه ابن ملك . والقول إن الإنسان صار حياً ، بنسمة الحياة ، يعني بطريقة أخرى أنه خُلق على صورة الله .

وبالنسبة للانفراد السبتي للإنسان ، نستطيع وضع أربع ملاحظات : في العبرية نجد أن هناك غموضاً في الكلمة التي تترجم بإنسان (آدم) وأيضاً الكلمة الإنسان الأول . فطوال هذا الأصحاح كانت الكلمة مسبوقة بأداة التعريف الـ(ha) : والكائن الذي خلْقه الله هنا ليس فرداً سُمِّي بآدم ، بل إنه الإنسان عامة (ال آدم) Ha Adam[٣] ، وهذا هو السبب الذي من أجله ترجمنا الكلمة تلقائياً بإنسان . وفي نهاية هذا الأصحاح ، أخذ الله جزءاً من الإنسان ليصنع منه امرأة ، وفي تلك اللحظة أصبحا رجلاً وامرأة[٤] .

حتى هذه اللحظة فنحن في مرحلة سابقة للتباين الجنسي والذي يذكّرنا بأن ثنائية المذّكر والمؤنث تندرج في إطار وحدة أولية . إنسان بداية هذا الأصحاح هو الأصل الأوحد لكل البشرية ، ويرمز لوحدة الجنس البشري من حيث انتشاره في جماعة لا تعد من رجال ونساء مختلفين كلياً .

● النَفَس ، نسمة الحياة ، قد نُفخت في كل البشر ، أيا كانوا ، حتى أسوأ المجرمين وأشر الوثنيين ، مدفونة فيه بعمق كبير تلك الروح التي تصنع منه ابن ملك . والاسم (آدم) الذي يشير للإنسان الأول ، يأتي من كلمة أرض والتي هي Adamah بالعبري . ويحكي المدراش أنه عندما صنع الله الإنسان الأول ، أخذ من الأرض من أربع أركان العالم وخلطها بالماء من أربع محيطات . وبعدها نفخ فيها بنَفَس من أربع أهواء[٥] . وقد فعل ذلك حتى تكون كل الإنسانية وكل الألوان وكل الأجناس موجودة في هذا الإنسان الأول . كل إنسان مهما كان ، هو طفل من تراب الأربعة أفاق ، ومن ماء من كل المحيطات ومن نَفَس من الأربع رياح .

وعندما تساءل المدراش : لماذا لم يصنع الله سوى إنسان واحد فقط ؟ يجيب : ليعلمنا المساواة بين كل البشر . ولذلك لن يستطيع أحد القول بأن أسلافه (أجداده) أعلى من أسلاف الآخرين .

---

(٣) في العهد الجديد ، أخذ بولس الرسول هذه القراءة في حسابه بجعل آدم أصل الإنسان عامة ، وفي تفسير لمقطع من الرسالة لرومية (٥ : ١٢ – ٢١) وجد كارل بارت Karl Barth في آدم شكل الإنسانية والتي تجد تكاملها (كمالتها) في المسيح : « في مستوى الظواهر الطبيعية ، كما أخذوا بالتاريخ وعلم النفس ، لا يتواجد آدم مثل هذا الرجل الوحيد ، بل مثل آدم الأول ، والذي هو أصل الثاني ، مثل الظل الذي يعيش من نور آدم الثاني L'épître aux Romains ، جنيف ١٩٧٢ ، ص ١٦٧ » . وهي طريقة أخرى لقول إن الإنسان خُلق غير كامل . وللإمساك بتسلسل وتدرج التكوين نقول إنه على صورة الله ، وليس متماثلاً بعد .

(٤) التلمود (Le Talmud) ، يقول إن أول إنسان خُلق على شكل روحي ، وصنع الله بعدها الفصل ليخلْق كائنين منفصلين . وفي تفسيره ، أخذ « راشي » مرة أخرى نفس الموضوع في قوله بخصوص خلق الإنسان : « في نقطة البداية ، كان للخلْق وجه مزدوج (مذكر ومؤنث) ، وبعدها ، انقسم (في جنسين منفردين) .

(٥) في مقطع من الكتاب الثاني لـ(Hénok) حنوك ، والذي يعتبر جزءاً من كتب مختصة بالوصايا مكتوبة باليوناني ، قد استخرجت طابعاً عالمياً لآدم من اختيار اسمه : « وقد أعطته اسماً مكوناً من أربع نقاط أصلية : Est (شرق) ، Quest (غرب) ، Sud (جنوب) ، Nord (شمال) (Georges Crespy, “Le problème d'une anthropologie théologique”, ETR 1950/1-2, p.34.) .

ثم أضاف : إذا كان الله قد خلْق الإنسانية في إنسان واحد ، فذلك حتى يذكّرنا بأن الذي يقتل إنساناً واحداً فهو بذلك يقتل الإنسانية كلها[٦] . نعم البشر يختلفون في سلوكهم ، ولكن الأمر الأكيد أن بداخلهم وفي أعماقهم تلك الروح الإلهية . تلك الرسالة الضرورية هي أساس الإنسانية : كل إنسان هو ابن الله .

● روح الله وُضع في كل إنسان منذ بدء وجوده ، حتى قبل أن يدركهُ . وعندما يتجه رجل أو امرأة نحو الله ويهتدي ، يدرك أنه منذ وقت طويل ، قد أُعد لتلك المقابلة ، ويكتشف حقيقة أساسية والتي كانت موجودة فيه منذ البدء . والمصطلح المستخدم في العبرية للدلالة على التوبة هو *Teshouva* والذي يأتي من فعل *Shouv* والذي يعني (عودة) .

وأن يهتدي الإنسان ، ليس هو أن يقبل معرفة جديدة ، بل هو اكتشاف حقيقة أولية كانت في عمق كونه منذ يوم خلْقه .

ويحكي المدراش أن الجنين في بطن أمه ، يعرف كل التوراة . وكاتب ذلك المدراش اتسم بالغرابة بعض الشيء إذ إنه يشرح أنه في لحظة ولادته ، يأتي ملاك ويعطيه ضربة صغيرة على شفته ، وبذلك ينسى الطفل كل ما عرفه[٧] . فيطلق عندها صرخة فزع : لقد نسى التوراه ! ومنذ ذلك الوقت يحتفظ الطفل بعلامة الضربة التي تلقاها : فشفته العليا مقسومة . وعندما يبلغ الطفل يبدأ بحفظ التوراة ، حيث يجد نفسه يعيد الاكتشاف . إنه يجد حقيقة عميقة كانت بداخله . إلا أن حركة التشوق *Teshaouva* « التوبة والعودة » ليست مكتملة أبداً حيث أننا لم ننته أبداً من العودة لكونها الأكثر عمقاً .

ويقول بولس الرسول في رسالته لأهل غلاطية : « إن الله أفرزه من بطن أمه »[٨] . نحن لسنا متأكدين أنه قد أخذ رؤيا خاصة بهذا الأمر ، لكن يُحتمل أن يكون قد اختبر في لحظة تحوُّله وتوبته اكتشافاً لحقيقة كان يعرفها مسبقاً وهي الاهتداء إلى الله ، واكتشاف شخصيته الحقيقية . وهذا هو ما يذكره « كالفن Calvin » في مقدمة Institution Chrétienne (نظم المسيحية) : « كل أو حتى معظم حكمتنا . . . موجودة في جزئين : هو أننا نعرف الله ، ونعرف أنفسنا »[٩] .

سبقت الآية الأولى خلْق الإنسان في هذا الأصحاح ، والتي تتكلم عن ميلاد السماء والأرض . وفي هذا الشأن يقول المدراش إنه عندما يرفع الإنسان عينيه نحو السماء ، ينسى متطلبات الأرض . فهو يشعر بأنه راغب نحو الشموخ ، ولكنه يخاطر بنسيان أنه وُلد من التراب ، وأنه مدعو لوضع النظام في الطبيعة . وكما يقول أحد الربيين : « إذا كان أحد لا يفعل سوى تأمل اللانهاية بدلاً من إصلاح البالوعات ، فكثيراً منا سيموتون

---

(٦) Talmud de Babylone, Traité Sanhédrin 37b.

(٧) Talmud de Babylone, Traité Nidda 30b.

(٨) رسالة بولس الرسول لأهل غلاطية ١ : ١٥ .

(٩) ***Institution de la religion chrétienne,*** Livre Premier, Labor et Fides, Genève 1967,p.3.

بالكوليرا »[١٠] . في المقابل ، إذا لم ينظر الإنسان أبداً إلى أعلى من الأرض الملتصقة برجليه ، فهو يخاطر بعدم الفكاك أبداً ، وعدم رؤية أن هناك من هو أكبر من المادة . ومثلما صنع **الله** السماء والأرض ، صنع الإنسان من تراب التربة ونَفَس الإله .

والمشروع الأدبي يتجه نحو بُعدي الحياة ، السماء والأرض ، النَفَس والتراب ، السبت والأسبوع . « لوجاون دي ڤيلنا Le gaon de Vilna » ، يرى أفق الخلاص في مصالحة هذين البعدين واللذين هما في الإنسان : ألا يجعله النَفَس الموجود فيه أن ينسى أنه من تراب ، وألا تجعله الأرض التي يشغلها أن ينسى أنه مدعو بنَفَس الله .

(١٠) Joseph Telushkin, *Le grand livre de la sagesse juive,* Calmann- Lévy 1999, p.408.

رسالة الشفاه العليا

في ضوء التفسيرات الكتابية ، نستطيع أن نتأكد أمام المرآة إذا كانت شفاهنا العليا مقسومة في المنتصف . فإذا كان كذلك فنحن مدعوون لإعادة اكتشاف حقيقة أولية والتي هي فينا منذ بدء تاريخنا !

عندما يولد الطفل ، فهو يطبق قبضتهُ كما لو كان يريد أن يعوِّض المعرفة التي كانت لديه في بطن أمه والتي فقدها . وفي أثناء حياته ، يستطيع الإنسان البحث عن تكديس الخيرات ، ولكنه يستطيع أيضاً أن يتعلم أن يفتح أصابعه . ومهما فعل فهو يموت ويديه مفتوحتان . ودرس الحياة هو أنه يجب تعلُّم فتح اليدين .

لماذا خلْق الله الإنسان؟

يضع النص الأول للتكوين في فم الله المشروع التالي : « لنعمل الإنسان على صورتنا » ، وسأل المدراش : « لماذا الطلب بالجمع ؟ » لأنه قبل خلْق الإنسان ، سأل الله الملائكة في رأيهم في مشروعه . فهو لم يكن قد شرع في عمله إذ إنهم بدأوا في التحاور والتساؤل .

وكان ملاك الحقيقة يقف ضد المشروع لأنه قال : « ما الحسن في خلْق الإنسان ، فهو لن يفعل سوى الكذب ؟ » .

وفي المقابل ، كان ملائكة البر والرأفة موافقين على المشروع إذ كانوا يفكرون أن الإنسان سيكون عادلاً ومحسناً .

وأثناء انشغال الملائكة في النقاش ، استفاد الله من ذلك لكي يختفي ويخلْق الإنسان بكل سرعة[١١] . فعندما قالت له الملائكة : « لماذا خلقْت إنساناً يخاطر بالهروب منك بينما نحن الذين نطيعك بإخلاص موجودون هنا ؟ » .

فأجابهم الله : « أريد الدخول في علاقة مع إنسان يحبني دون مقابل وبحرية ، وليس لأنه بطبيعته المحبة وبدون إجبار أيضاً » .

وفي الآية الرابعة : يتكلم النص عن أصول السماء والأرض (السماء تسبق الأرض) ثم أضاف : عندما « صنع الله الأرض والسماء (الأرض تسبق السماء) . وبين الاثنين ارتكز خلْق آدم ، ومنذ تلك اللحظة أصبحت أرض البشر أكثر أهمية من سماء الملائكة .

واليوم ، حياة الإنسان غامضة ، موزَّعة بين العدالة ، الحب ، الحقيقة والسلام وبين عكسها ، تموج حياة الإنسان بتيارات مضادة ، ويعرف الله ذلك جيداً ، فهو الذي صنع ذلك . ولكن الإنسانية جميلة في عين الله ، لأن الإنسان حر أن يسمع أو يُهمل ، أن يحب أو لا يأبه بذلك ، أن يأمل أو يتخلى عن الأمل .

---

(١١) D'après *Midrash Rabba, Tome 1 Genèse Rabba* 8. 5, Verdier 1987, p.108.

٩

جنة وشجرة

الإنسان حر بالقانون وعبد بالجذر (الأصل)

(لڤيناس Levinas)

٨- وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقاً. ووضع هناك آدم الذي جبله. ٩- وأنبت الرب الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل. وشجرة الحياة في وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر. ١٠- وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة. ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس. ١١- اسم الواحد فيشون. وهو المحيط بجميع أرض الحويلة حيث الذهب. ١٢- وذهب تلك الأرض جيد. وهناك المقل وحجر الجزع. ١٣- واسم النهر الثاني جيحون. وهو المحيط بجميع أرض كوش. ١٤- واسم النهر الثالث حِدَّاقل. وهو الجاري شرقي أشور. والنهر الرابع الفرات. ١٥- وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنة عدن ليعملها ويحفظها. ١٦- وأوصى الرب الإله آدم قائلاً من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً. ١٧- وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها. لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت. (تك ٢:٨-١٧).

بحسب الكتاب المقدس يجب أن لا نفكر في العمل فقط ، فقد رأينا أن حياة البشر هي نتاج التراب ونفخة نعمة الله ، وكانت تندرج بين الأرض والسماء ، بين العمل والراحة ، وبين الفعل والكينونة . إن السبت يضع مسافة بين الإنسان وواقعه اليومي في العمل . ولكن عند انتهاء يوم الراحة يبدأ أسبوع جديد ، وهنا يجب العودة إلى العمل .

الجنة

زرع الله الجنة للإنسان . وهي معرَّفة بحدودها ، الأربعة أنهار وفي مركزها شجرة . ومن بين الأربعة أنهار ، هناك اثنان معروفان « دجلة » و« الفرات » وهما موجودان في منطقتي سوريا وبابل (العراق) ويحددان الجزء الشرقي من الهلال الخصيب . ومن الصعب تعريف الاثنين الآخرين فيشون وجيحون » فهما غير معروفين . وقال « راشي Rachi »في تفسيره إن « فيشون » هو النيل . هو يحيط ببلد « الحويلة » ، حيث توجد الأزهار الذكية « الرائحة » والأحجار الكريمة والذي نستطيع تحديد موقعه في مصر . أما جيحون الوحيد المعروف فهو ينبع من أورشليم وليس من إثيوبيا .

إنها احتمالات غير كافية لتسمح لنا بتحديد عدن على خريطة جغرافية ، ولكن الأسماء (سوريا وبابل ، مصر ، أورشليم ، إثيوبيا) تفيد بأن جنة الكتاب المقدس هي الأرض التي نعيش عليها . وهناك مفسرون ربينيين يقولون بأن الجنة هي العالم كله . إذا كان النهران الأولان « دجلة والفرات » معرَّفان جيداً في المحيط القريب ، فلنا الحق في التفكير أن الاثنين الآخرين فيشون وجيحون من الممكن أن يكونا في أي مكان يمثل الجنة بالنسبة لأي شخص .

وضع الله الإنسان في هذه الجنة ليزرعها ويحافظ عليها ، ونستطيع أن نقول أيضاً إن الإنسان وُضع في الجنة ليعملها ويحفظها . وحصل الإنسان الأول نيابة عن كل النسل الذي سيأتي على عالم يستطيع أن يستخدمه ويستثمره ، ولكن عليه أيضاً أن يحفظه من جيل إلى جيل ، حتى نهاية الزمن . واستخرج الحكماء من هذه الآية تحريم الإفساد ، التدمير ، التسميم ، تدنيس الطبيعة ، وهذا يعطينا أساساً لاهوتياً للاهتمام الإيكولوجي (Ecologique) (علم الدفاع عن الطبيعة) .

الوصية

وُصفت الجنة بحدودها المذكورة أعلاه . وهي معرَّفة أيضاً بأن في مركزها شجرة أو بالأحرى شجرتين : شجرة الحياة وشجرة معرفة الخير والشر ، والتي اختصت بالوصية . ولكن ما هي تلك الوصية ؟ أقترح عليكم بأخذ وقت للتوقف والتفكير « ما هي الوصية التي أعطاها الله للإنسان في الجنة » .

وعن هذا السؤال ، أجاب ٩٠٪ من الأشخاص الذين سؤلوا : الوصية هي « لا تأكل من شجرة معرفة الخير والشر » ، سيعطي عندها أستاذ متسامح عشر درجات من عشرين لتلك الإجابة ، وسيعطي أستاذ صارم نصف درجة من عشرين . فتلك الإجابة تماثل ٠,٥ ٪ أو حتى ٠,٠٠٥ ٪ من وصية الله التي أعطاها للإنسان ، فهذه الإجابة تشبه تقديم ورقة مكوَّنة من مربعات بيضاء ، وبها مربع أسود صغير ، وبالسؤال عن عدد المربعات في تلك الورقة . سيجيب الجميع : « مربع أسود » بينما هناك ٢٥١٩ مربعاً أبيض مقابل مربع واحد أسود ! وهذا هو الحال في الإجابة على وصية الله ، فالنص لا يقول : « لا تأكل من شجرة معرفة الخير أو الشر » بل : « تستطيع أن تأكل من كل شجر الجنة ولكن لا تأكل من شجرة معرفة الخير والشر لأن يوم تأكل منها موتاً تموت » . وهذا لا

يعني أنه يقول : « تستطيع أن تفعل كل شيء . . . ما عدا شيء واحد » ، و . . . « لن تفعل هذا الشيء » ، فإن الاختيار ليس واحداً . في الحالتين الإنسان لا يفكر سوى في المحرَّم ، وهنا يضع المكتوب الحرية في المقدمة : « من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً » .

والوصية الأولى التي نجدها في الكتاب المقدس كلمة « حرية » ، كم يبلغ عدد الشجر الذي خلقه الله ؟ آلاف ؟ ملايين ! ! « تستطيع أكلها كلها » . فهذا مثل ملك غائب في سفر وترك قصره الشاسع لخادمه . وقال له : تستطيع استخدام كل شيء ، الصالات والمداخل والممرات والمكاتب . . كل شيء ماعدا حجرة واحدة ، حيث يوجد سريري . أنت هنا كما في بيتك ، لكن مع احترام سريري ، ستتذكر أنني أوكلتك على قصري ووثقت فيك . طوال التاريخ ، كانت الكنيسة مشغولة بحفظ الحجرة الوحيدة المحجوزة بدلاً من التفكير في السماح بدخول باقي كل الغرف الأخرى ، كانت تفكر أكثر بما هو محرَّم (حتى أنها صنعت قائمة به) عن ما هو مسموح .

فهل لاحظت الكنيسة أنها بهذا الحديث الذي يؤكد ألف مرة على ما هو محرَّم عن المصرَّح ، فهي بذلك أخذت دور الثعبان « الحية » ؟ وفي الأصحاح القادم (تكوين ٣) تشير الحية بحديثها مع حواء إلى هذا النص ، « أحقاً ! قال الله : لا تأكلا من كل شجر الجنة ؟ » . كنا نظن أن تكون الحية كاذبة ولو قليلاً ، لدينا الدليل ، عندما يقول الله « تستطيعون الأكل من كل الشجر » تعيد الحية : « أحقاً قال الله لكما ألا تأكلا من كل الشجر » . وهنا عندما تفسد كل الأشياء عندما تدخل الكنيسة في جدال ما بين كلمة الله وكلام الحية ، فأي من الحديثين كانت الكنيسة تردد ؟ حديث الله أم الحية ؟ لقد كانت تردد كلام الحية ، ويشرح مفسر « ربيني » وضع الكنيسة بقوله : إن الحية أغرت حواء بالرحمة ، فهي تظاهرت بأنه إذا كانت شجرة المعرفة ممنوعة فعليها أخذ احتياطات ، لكي تتفادى أي احتمال للخطأ ، وبهذا تكون الحية أكثر حكمة ونصحتها بعدم الأكل من أي شجرة : « حتى إذا قال الله إنكم تستطيعون الأكل من كل شجر الجنة ، فاتبعوا نصيحتي ولا تأكلوا من أي واحدة منها ، حتى لا تقعوا في الخطأ سهواً »(١) .

الحرية

بما أن الكلمة الأولى التي أعطاها الله للإنسان هي بوابة تؤدي إلى الحرية ، فهذا المفهوم يستحق التعمق فيه ، فعندما نفكر في الحرية ، فإن الفكرة الأولى التي تأتي على الذهن هي إمكانية صنع ما نريد أن نفعله ، فأي رجل وامرأة ، حر سيكون شخصاً يستطيع تحقيق كل رغباته وسيملك وسائل لا نهائية وبدون أي معوقات . وفي الفكر الكتابي ، تعرَّف الحرية بالمسئولية أمام الاختيارات . وهكذا يستطيع الإنسان فعل كل شيء ، يستطيع الأكل من كل الفاكهة ، ولكن يقول له الله إنه لن يكون حراً حقيقةً إلا إذا امتنع عن أكل فاكهة محددة ، وإلا إذا امتنع عن فعل كل ما يستطيع .

تساءل المفسرون الربيون لمعرفة نوع الفاكهة المحرَّمة . فقال بعضهم إنها ثمرة التين ، لأن آدم وحواء صنعا

(١) Rabbi Yaacov Couli, ***Meam Loez, Genèse Tome 1,*** Moznaim Publishing, Jérusalem 1992, p.212.

ملابس لأنفسهما من أوراق شجرة التين ، وقال آخرون إنه العنب إذ أن عصيره أحمر كالدم[٢] ، ويتكلم التقليد عن التفاحة لأنها باللاتينية تسمى « Malum » . والإجابة التي « تلفت النظر أكثر » تقول إن الفاكهة المحرَّمة هي أياً كانت فهي فاكهة (ثمرة) مثل بقية الثمر . هي ليست لها أهمية سوى أن تقود آدم وحواء للنظر لكل الفاكهة لكي يتساءلا عن طبيعتها قبل أن يأخذاها . وسنجد أيضاً هذا الدور في « قواعد كاشروت Cacherout » [٣] والتي تحتل مكانة كبيرة في حياة اليهود . فهي تجبر الشخص أن يتساءل بين اللحظة التي يضع فيها شوكته في طبقه واللحظة التي يجلبها إلى فمه . فعل « الأكل » ، والذي هو فعل طبيعي ، له جانب أخلاقي . وحسب إجابة « راشي » التي تتميز بالأناقة والقائلة بأن الشجرة غير محددة إذ إن الله لا يحب تحقير مخلوقاته . فهو لا يريد أن الإنسان يجلب العار على جنس ما بقوله : « ها هي الشجرة التي بسببها ضُرب العالم »[٤] .

إن كلمة (Ordre) أي نظام في « العبرية » كما في الفرنسية تعني وصية (إعطاء أمر) وتنظيم (وضع نُظُم) . أي أننا نجد نفس الازدواجية في المعنى ، فهي تعني : إعطاء أمر وأيضاً تعني التنظيم . وكون الله يترك الأمر للإنسان فذلك يأتي من ترتيب الخليقة . إن الأمر مهم في حد ذاته –بعيداً عن طبيعته– حتى يتم إدخال الإنسان في المساءلة الأخلاقية ، وذلك في محاولة لإيجاد بديل بين القبول والتمرُّد . وإن كان الله حرَّم على الإنسان إحدى ثمار الجنة ، فهذا لكي يجعله مسئولاً عن اختياراته وعن حياته « يوم تأكل منها موتاً تموت » . وبدون هذا الممنوع لكان قد حُكم على الإنسان أن يظل إلى الأبد في الجنة كما لو كان في سجن . سجن مُذَهَّب أكيد ، لكن سجن حيث لن يكون له أي سبيل للفرار . ستسجل علاقته مع الله في سجل الإلزام وليس الحرية .

ويحكي التلمود أن الملاك المكلَّف بحراسة فكرة تكوين الإنسان ويسمى « Laila » قبل أن يشرع في عمل شيء أخذ نطفة ماء صافٍ ، وعرضها على الله وسأله هذا السؤال : « يا ملك الكون ما الذي يجب أن تصبح عليه تلك النطفة ؟ شخص قوى أم ضعيف ، حكيم أم أهوج ،غني أم فقير ؟ »[٥] . ويصر النص على أن السؤال هنا ليس استفساراً عن كون ذلك الإنسان صالحاً أو شريراً إذ إن ذلك لا يقوم على قرار الله ، بل على حرية الشخص ، مثلما يقول Moïse Maïmanide : « إذا حدد الله أن شخصاً إما صالح أو شرير . . فكيف يُستطاع أن يأمرنا الله عن طريق أنبيائه : « افعل هذا ، ولا تفعل ذلك ، افعل ما هو صحيح ، لا تتبع دوافعك السيئة » ، بينما مصير الإنسان كان قد تقرر منذ ولادته[٦] ؟ . وهناك جملة تلمودية أخرى تكمل تلك الصورة : « الكل تحت يدي الله ، ما عدا خوف الله » .

---

(٢) Rabbin Elie Munk, ***La Voix de la Torah, La Genèse,*** fondation Samuel et Odette Lévy, Paris 1992, p.38.

(٣) الكاشروت Cacherout هو مجموعة القواعد التي تحكم الغذاء المسموح للاستهلاك .

(٤) Rachi, ***Commentaire du Pentateuque, La Genèse,*** fondation Samuel et Odette Lévy, Paris 1993, p.19.

(٥) Talmud de Babylone, Traite Nidda 16b.

(٦) Moise Maimonide, ***Mishneh Torah, Lois Sur le repentir 5, 4,*** Cité par Joseph Telushkin, ***Le grand livre de La Sagesse Juive,*** Calmann. Lévy 1999, p.420.

يعيش الإنسان بين تناقضات . فهو ليس مسئولاً عن مظهره الفيزيائي ، ولا العائلة التي نشأ فيها ، ولا التعليمات التي تلقاها . ولكن في المقابل ، هو دائماً مسئول عن الثمار التي يأكلها ، أو لا يأكلها .

وفي تفسير لهذا الأصحاح ، قال ترتيليان Tertullien إن الإنسان على صورة الله : « إنها ليست ملامح وجهه أو جسمه ، حيث تختلف من إنسان لآخر ، ولكنها تعبّر عن شبهه مع الله الواحد ، فلكل إنسان روحه التي تتلقى طابع (ختم) صورة الله ، ويظهر ذلك من خلال حريته وقدرته على اتخاذ القرار »[٧] .

وفي فكر أباء الكنيسة ، فإن التصوير الأكثر كمالاً لصورة الله يوجد في يسوع الناصري ، وتقدمهُ الأناجيل في إنسان حي بالنسبة لكل قدرات عصره ، سواء كانت اقتصادية ، سياسية ، أو دينية . ويظهر التعبير عن الحرية في ملخص يرد في « نص الشهوة »[٨] عندما تدعو كلمة الشيطان يسوع لأن يتعدى حدوده الإنسانية[٩]:

« تستطيع تحويل هذه الحجارة لخبز . تستطيع أن تأخذ القدرة . تستطيع القفز من فوق الهيكل . فلتفعل إذاً » . وفي إجابته رفض يسوع هذا التمرين البسيط لإمكانياته . بالنسبة إليه ، فهو يعيش الحرية الحقيقية في قبول حدود إنسانيته ، في خدمة الله والقريب . لا تتكوّن الحرية من فعل كل ما هو ممكن ، إنها قوة داخلية تسمح بالذهاب لمقابلة القريب الذي يختلف معه . الحب وخدمة القريب ليسا بفضيلة إنجيلية بل إدراك للحرية . وخارج هذه الحرية الأولى ، يصبحان بكل بساطة ثمرة الحذف ، التضاد ، أو التطابق . إن كلمة الحية في الجنة والشيطان في البرية تظهران اثنين من التطابق ، زيادة الإنسان وغياب الوصية . الأولى تفيد بأن على الكل الخضوع للقانون وهي الرغبة في السيادة عن طريق الإنسان ، أما غياب الوصية فيبحث عن السيادة (السيطرة) عن طريق وسيلة أخرى وهي القوة . وما بين الحرية والوصية يدعونا المكتوب أن نترك مكاناً واحداً للوصية ، ليعيش الإنسان في صفاء في حدود إنسانيته .

شجرتان في مكان واحد؟

القراءة المتأنية للكتاب المقدس توضح أنه لا توجد شجرة واحدة في وسط الجنة ، بل اثنتان : شجرة معرفة الخير والشر ، وشجرة الحياة ، مكان واحد وشجرتان ؟ فكيف يمكن وجود شجرتين في نفس المكان ؟ وسنركز على تفسيرين من بين تفسيرات عديدة .

الأول يأتي من اليهودية . الشجرتان هما شجرة واحدة إذ إن الوصيتين تتقاطعان . حيث إن الاختيار بين الحياة

(٧) Soeur Isabelle la Source, ***Lire la Bible avec les Pères, La genèse,*** Médiaspaul 1988, p.30.

(٨) متى ٤ : ١ –١١ .

(٩) قالت الحية لحواء إن كل شيء محرّم ، وقال الشيطان ليسوع أن كل شيء ممكن . هذان الموقفان يتصلان ببعضهما ، هما يتناقضان مع الاختيار الأخلاقي الذي يصنع الاختيار ما بين الخير والشر .

والموت هو اختيار بين الخير والشر . ويقول سفر التثنية : « قد جعلت قدامك الحياة والموت ، البركة واللعنة ، فاختر الحياة لكي تحيا ، أنت ونسلك »[١٠] . هذا الاختيار ليس في حافة الجنة بل يرتكز في المنتصف ، كما لو كان في قلب الحياة . ففي كل يوم يجب اختيار الحياة ، دون البحث للحصول على مزيد من الشهوات الأخرى . في كل يوم يجب اختيار الحب ، دون اللجوء إلى جهدك الشخصي .

وقُدم التفسير الثاني من آباء الكنيسة : إذا كان هناك شجرتان في نفس المكان ، يتشابكان في شكل . . . صليب . فبالنسبة للمسيحيين فإن الصليب هو مكان التقاء الحياة والحرية . الصليب هو في نهاية الإنجيل ، ولكنه أيضاً في بداية الكتاب المقدس . إنه في البداية والنهاية ، وعلى ذلك ، فهو في منتصف الجنة والعالم . والمسيحيون مدعوون للالتقاء به في منتصف حياتهم .

(١٠) تثنية ٣٠ : ١٩ .

أغسطس

في رواية « أغسطس Auguste » يحكي « هرمان هس » قصة رجل منح إشبينه في المعمودية جاذبية جعلته محبوباً من الجميع . فرح الطفل الصغير أغسطس بتلك الجاذبية فالجميع مهذبون معه ، البالغون والأطفال يعطونه كل ما يريده ، وصار أغسطس طفلاً فاسقاً ، ومع الكبر أصبح فاجراً . وكان وحيداً وتزداد وحدته أكثر فأكثر . ربما أن لاشيء ولا أحد يقاومه ولذلك فقد طعم الحياة . وعندما وصل إلى حافة الانتحار جاءته دعوة من إشبينه الذي منحه تلك الهبة وهي كونه محبوباً من الجميع ، فطلب منه أغسطس أن تفارقه تلك الجاذبية التي لم تساعده حتى يستطيع العودة ليحب الجميع .

واجتمع أصدقاء أغسطس القدامى وطالبوه بما أعطوه إياه . فأمضى بعض الوقت في السجن وعند خروجه اكتشف حقارة الحياة كما اكتشف المعني الحقيقي للأشياء .

رسالة هرمان هس واضحة ، فاللحظة التي عاش فيها أغسطس الحرية ، ليست تلك التي عاشها عندما استطاع إشباع احتياجاته ، لكن عندما تعلّم ترك مكاناً للآخرين .

أليس هذا هو تماماً ما يقوله التكوين : « تستطيع أن تأكل من كل شجر الجنة » ولكن لا تأكل من شجرة معرفة الخير والشر ، إذ يوم تأكل منها موتاً تموت » ، بصورة أخرى يقول : « تستطيع فعل ما تريد ، لكن لا تستطيع أن تريد كل ما تستطيعه ، إذ إن ذلك سيقودك للموت » .

(١١) in Hermann Hesse, ***Le Poète chinois***, le Livre de poche biblio LP9.

تمتع بالحياة، هذا أمر

في جنة عدن أعطي الله الإنسان وصيتين مبنيتين الواحدة على الأخرى .

● « تستطيع أن تأكل من كل شجر الجنة » ، هي وصية إيجابية تعطي مبدأ التمتع . الإنسان موجود على الأرض ليتمتع بالحياة وليكون سعيداً .

● الوصية الثانية « لا تأكل من شجرة معرفة الخير والشر » تمنع الإنسان من الضياع .

وتمسكت الكنيسة خاصة بالوصية الثانية ، ومع ذلك كان في استطاعتها أن تتذكر الأولى والتي هي ليست سماحاً بل أمراً . صمَّم الربي شمعون رافائيل ذات يوم على السَفر إلى سويسرا ، واندهش تلاميذه من السبب الذي كان وراء تصميمه هذا ، فقد قال الرجل : « عندما أقف أمام القدير سيكون عليَّ الإجابة على عدد كبير من الأسئلة . . . ولكن ماذا سأقول عندما يسألني « يا شمعون هل لاحظت كم هي جميلة جبال الألب ؟ ! »[١٢] .

وبنفس ترتيب الأفكار ، يحكي التلمود قصة رجل لا يكف أبداً عن شراء ثمرة جديدة كلما ظهرت في السوق ، وهو يقول إني أفعل ذلك لكي أطيع وصية الإله . وعلى طريقة آدم ، فهو يريد أن يأكل من كل ثمر الجنة[١٣] . في العالم الحاضر ، يجب على الإنسان أن يدرك كل الأشياء الجميلة والتي رأتها عيناه ، ولكنه لم يأكلها[١٤] .

(١٢) Joseph Telushkin, ***Le grand livre de la sagesse juive***, Calmann- Lévy 1999, p. 409.

(١٣) Josy Eisenberg et Armand Abécassis, ***A Bible ouverte II***, Albin Michel 1991, collection Spiritualités vivantes 101, p.90.

(١٤) Talmud de Jérusalem, Kidoushin 4.12.

١٠

من الوحدة إلى الروعة

لا يمكن أن توجد الحرية دون مقابلة (أنت). الذي يوقظني ويصنع مني كائناً

(جاك إيلول Jacques Ellul)

١٨– وقال الرب الإله ليس جيداً أن يكون آدم وحده. فأصنع له معيناً نظيره. ١٩– وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء. فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها. وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها. ٢٠– فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية. وأما لنفسه فلم يجد معيناً نظيره. ٢١– فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام. فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحماً. ٢٢– وبني الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم.٢٣– فقال آدم هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي. هذه تدعى امرأة لأنها من امرءٍ أُخذت. ٢٤– ولذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسداً واحداً. (تك ٢:١٨–٢٤).

كان للإنسان الأول ثمار ليتغذى ، وجنة ليزرعها ، ووصية ليتأملها . نستطيع اعتبار أن الخلْق قد أُنجز . ومع ذلك ، فالكل لم ينتهِ بعد ، بين نفخة وتراب ، يشعر الإنسان بأنه يعاني من أعماق أعماقه من النقص والوحدة .

الوحدة

يظهر من النص الأول أن الله أجرى اختباراً على خليقته يقول : « ورأى الله ذلك أنه حسن » ، وفي نهاية اليوم السادس ، جلس الله يتأمل عمله ، ووجد أنه لم يفشل : « ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جداً » . لكن في بقية النص ، ظهر شيء لم يكن حسناً « ليس جيداً أن يكون آدم وحده » .

وحسب المكتوب ، الوحدة تصف إنسانيتنا . خُلق الإنسان على هيئة شخص ، على اختلاف الحيوانات التي خُلقت كجنس ، فهو مخلوق وحيداً في الخليقة . الإنسان وحيد . . ولكن الوحدة ليست حسنة . ولهذا قرر الله وضع فعل أخير في الخلْق ، فهو يريد إعطاء شريك آخر للإنسان .

بدأ الله بتقديم الحيوانات لآدم مع الأمل في أن يملأوا النقص الموجود فيه . وقد عرفنا في تأملنا في خلْق العالم الحيواني ، كم تستطيع الصحبة الحيوانية الأليفة أن تكون علاجاً لوحدة ثقيلة جداً يصعب حملها . وفي تلك الأثناء يحدد التكوين أن الحيوانات لا تستطيع أن تصبح الشريك المنتظر . الحيوان بعيد جداً عن الإنسان ليخدمه ، ولكي يكون هناك اتصال يجب وجود مسافة محددة بين الاتحاد والانفصال . بين الرجل والحيوان ، التباين مهم جداً ، ويظل حديث آدم يأخذ طابع المنولوج .

ثم حاول الله شيئاً آخر وأجرى عملية جراحية ، فقد أنام مريضه ، وفتح جانبه وأخذ ضلعاً منه . ومن الضلع الخاص بالإنسان ، كوّن حياً آخر ، امرأة قدمها لآدم . والنتيجة كانت (سريعة) : « هذه الآن عظم من عظمي ولحم من لحمي . هذه تدعى امرأة لأنها من امريءٍ أُخذت » . إنه في التنوُّع والتباين الجنسي يرى الإنسان بسعادة نهايةً لوحدته . برؤية المرأة ، يقول الرجل (أنا) لأول مرة ، إنه لم يعد إنساناً غير مختلف ، لكنه رجل أخذ إدراكه من تفرُّده . وحتى الآن كانت كلمته ذات منفعة ، فقد سمّى الحيوانات ، وفي وجه التنوع ، فهو يكشف ويعلن شخصيته الحقيقية : « إنها عظم من عظمي ولحم من لحمي » . ونحن نذكر بهذا الخصوص التفسير الربيني القائل بأن آدم المخلوق في بداية هذا الأصحاح له وجه مزدوج ، مذكّر ومؤنث ، وبفصل الإنسان في جنسين تم إنجاز الخلْق[1] .

الزوج ، العلاقة (رجل – امرأة) ليس مفهوماً ثقافياً ، بل عاملاً مكوِّناً للإنسانية . وحسب اليهودية ، هناك لحظتان في حياة الإنسان يكون فيها في حالة نقاء : لحظة ولادته إذ يكون بريئاً تماماً ، ويوم زواجه . في هذا اليوم ، يضع حياته وتاريخه جنباً إلى جانب زوج مختلف عنه ، فيكمّل الإنسان احتياجه العميق . ويكشف أن هويته تظهر في كتابه (أنا وأنت) (*Je et tu*)[2] : لا يوجد (أنا) ممكنة دون (أنت) أو (هو) . الواحد لا يوجد إلا بالنسبة للآخر . إنهما غير مفترقين مع أنهما متباينين . ومع وضع نهاية لوحدة الإنسان ، يعلن الله أن هناك حسن في علاقة الشخص مع قرينه ، في توزيع العظم واللحم . كان الله يستطيع صنع الإنسان خنثى (مخنث) مع تخيل نظام للتكاثر لا يغري باتصال جنسي ، ولكنه فكّر أنه من الحسن أن الرجل والمرأة يجدان (انشراحاً) في العلاقة مع الآخر . نستطيع أن نستخلص من النص الأول للخلْق أن صورة الله توجد تعبيرها الكامل ليس في الشخص وحده بل في الزوج (رجل – امرأة) ، مع كل ما يعنيه ذلك من اختلاف وتجاذب . وفي هذا الأصحاح الثاني ، وضحت أهمية الزوج في فعل الخلْق الذي لا يكتمل إلا في مقابلة الرجل والمرأة .

تذكّر الطقوس الدينية المختلفة للزواج بالآية التي يؤسس عليها الزواج : « ولذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق

---

(١) Rachi, ***Commentaire du Pentateuque, la Genèse,*** fondation Samuel et Odette Lévy, Paris 1993, p.15.

(٢) Martin Buber, *Je et tu*, Aubier 1992.

بامرأته ويكونان جسداً واحداً » . وأغلب الشخصيات الذين يشاركون في حفل الزواج يسمعون : « وكذلك تترك المرأة أباها وأمها وتلتصق بزوجها ويكونان جسداً واحداً » . والدّعوة في التكوين موجهة للرجل أكثر من المرأة .

وهي وصية ذات بُعد تربوي ، ليترك أهله الذي كان يعتمد عليهم في طفولته . يتوقف تماسك الزواج على قدرة الرجل على تحمل حريته . طالبت الحركات النسائية لسنوات بالمساواة بين الرجل والمرأة وذلك بتقليل الفارق بين الجنسين . ولكن بعد الحصول على قدر كبير من المساواة ، اكتشفنا أن الكمال الحقيقي يكمن في أن لكل شخصية استقلاليتها التي تمارس بها مواهبها ، وبها تكتمل حياتها مع الطرف الآخر .

هل يستطيع التكوين مساعدتنا في التفكير في ذلك التكامل ؟ يقدم التكوين كلمة للمرأة وأخرى للرجل :

- إن المرأة تظنٍ أنها تعطي الحياة ، ولذلك فهي ليست في حاجة لشخص آخر . ولكن من الواجب عليها أن تتذكر أنها أيضاً خُلقت ، وأنها لا تمثل سوى نصف الإنسانية . فالرجل ليس مجرد وسيلة تناسلية ، ولكنه كائن من لحم وإحساس ، مدعو لكي يكون شريكاً يكمل حياته مع الشريك الآخر .

- أما بالنسبة للرجل ، فعليه أن يخرج نفسه من طفولته ليصبح حراً وبالغاً في عمله . تلك الحالة ضرورية ليجد في قرينه نظيراً ، وليس شيئاً للاستهلاك .

أما بالنسبة لمن يعيشون وحدهم سواء كانوا عُذَّاباً أو أرامل أو مستبعدين ، فهم يعيشون في وحدة بحسب مفهومها الأساسي المذكور في التكوين . ويقول التلمود : « كل يهودي بدون امرأة يعيش دون فرحة ، دون بركة وبدون حالة جيدة ، إذ إنه مكتوب : « ليس جيداً أن يكون الإنسان وحده »[٣] . ونحن نعرف أشخاصاً وحيدين يصارعون أنفسهم لكي يتغلبوا على وحدتهم ، ولكننا نعلم أيضاً أن هناك جرحاً يظل ونقصاً يدوم . وأخيراً نستطيع أن نتعجب من تطور المجتمع والذي فيه يزداد العذاب أكثر فأكثر . في باريس يوجد مسكن واحد من كل اثنين يسكنه شخص وحيد .

ضلع من جانب

أُعطيت تفسيرات عديدة بخصوص العملية الجراحية ، بعض تلك التفسيرات لاهوتية وأخرى شعرية ، وسنأخذ تلك التفسيرات إلى المدراش الذي يقول : قبل أن يضع الله مشروعه موضع التنفيذ ، قال الله لنفسه : « ليس من رأس آدم سآخذ حواء إذ إنها ستمشي وجبينها عالياً ، مظهراً الكثير من العجرفة . ولا من عيونه ، إذ ستكون فضولية ، فضولية جداً ، مليئة بالرغبة . ولا من أذنيها ، إذ ستتنصّت عبر الأبواب . ولا من قفاه ، إذ سيكون لها قفا صلباً مشدوداً وإيحاء قبيحاً . ولا من فمه ، إذ لن تكف عن الثرثرة ، ولا من قلبه إذ ستكون مريضة بالغيرة ، ولا من يديه إذ ستختلط مع من لا ينظر إليها . لا ، سآخذها من الجزء الأكثر طهارة من : جسم آدم . . من جنبه[٤] » .

وأضاف بعض المفسرين التهكميين مع بعض الدعابة الخشنة : « رغم كل تلك الاحتياطات ، فالمرأة عندها

(٣) A. Cohen, ***Le Talmud***, Petite Bibliothèque Payot 65, p.214.

(٤) Elie Wiesel, ***Célébration biblique***, Seuil Point Sagesse 42, p.24.

كل هذه المساويء ! » . وكذلك يذكر التلمود هذا الاشتقاق مع رواية القصة التالية : قابل ملك الربّي غمالائيل (Rabban Gamliel) وقال له : « إلهك (لص) فآدم كان نائماً مستسلماً ، واستفاد الله من ذلك وأخذ واحدة من أضلاعه » . وطلبت ابنة الربّي من أبيها السماح لها بأن تجاوب على الحاكم وقالت : « هل تعرف جلالتكم ما حدث لي الليلة الماضية ؟ حدث شيء مفزع ، جاء لصوص إلى منزلي وأخذوا كل أوانيَّ . . وتركوا لي ذهباً في مكانه ! » . أجاب الملك « أريد أن أكون ضحية أولئك اللصوص كل ليلة » .

– قالت ابنة الربي « وهكذا ، هذا هو ماحدث مع آدم » ، « أخذ الله منه ضلعاً ، هذا صحيح ، ولكن حدث تبديل ، فقد أعطاه الأفضل ، امرأة لتساعده وتسمعه »(٥) .

وإذا نظرنا إلى تقارب الفعل (banah) الذي يفيد تحول ضلع آدم بالعبرية ، وفعل (bin) ، يقول التلمود أيضاً : « أعطى الله مزيداً من البصيرة للمرأة عن الرجل »(٦) .

ونحن نعرف ذلك بديهياً ، وهذا يسمح لنا بقبول التفسيرات التي تقول بأنها على قمة الخلْق لتعويضها عن السنين الطويلة التي عانتها من العداء . كان الرجل عبارة عن المسودة والمرأة كانت قمة الأعمال . كانت تلك القراءة من الدراسة التي تحكي : « قصة رجل مؤمن تزوج بامرأة مؤمنة . ولم يرزق الزوجان بأطفال ، فقررا الانفصال . وتزوج الاثنان مرة أخرى ، وهكذا تزوج الرجل من امرأة شريرة والتي جعلته شريراً ، بينما تزوجت المرأة من رجل شرير وجعلته شريفاً . ينهي المدراش القصة بهذه الجملة « كل شيء يعتمد على المرأة »(٧) .

وهناك قول عربي : يصف فيه الرجل صديقه بالقول : « إنه عظم من ضلوعي . وعندما يقول الله : « فأصنع معيناً نظيره » ، فإننا نستطيع ترجمة الجملة أيضاً إلى : فأصنع معيناً . . . مواجهاً له » أو « أمامه » إذا كانت المرأة هي التي تضع نهاية لوحدة الرجل ، فهي لا تكون إلا « نظيره » .

بخصوص خلْق حواء من ضلع آدم ، وما يعنيه في العلاقة بين الرجل والمرأة ، فنحن نريد أيضاً وضع بعض الملاحظات :

• المصطلح العبري المترجم بـ« ضلع »يمكن أن يعني أيضاً (جانب)(٨) الرجل والمرأة اللذان يأخذان اسم آدم وحواء كانا الاثنان في الإنسان الأول الذي كان له جانبان ، واحد ذَكَرى والآخر أنثوي . وذلك يعني أن العلاقة بين الرجل والمرأة ، تمثل طابع البحث عن النصف المفقود ، حسب كلمة التلمود .

---

(٥) D'après A. Cohen, ouvrage cité p. 212.

(٦) تترجم تلك الآية أيضاً بـ« وضع الله الذكاء في الجانب الذي أخذه من الإنسان » ، éditions de L'Espérance, Jérusalem 1993, p.37.

(٧) D'apres *Midrash Rabba, Tome 1 Genès Rabba* 17.7, Verdier 1987, p. 203.

(٨) أوضح الربي (Steinsalz) أن الكلمة tséla والتي ترجمناها بـ« ضلع » أخذت المعنى (جانب) في المصطلح tsélaot hamichkan (جوانب قدس الأقداس) . خُلقت المرأة من tséla لآدم لأنها في البداية كانت tséla.

Hommes et femmes de la Bible, Albin Michel 1990, p.21.

● وهناك إيضاح نستخلصه من كلام الرسول بولس في رسالته الأولى لأهل كورنثوس : « غير أن الرجل ليس من دون المرأة ولا المرأة من دون الرجل في الرب »[٩] . خُلقت المرأة من الرجل في بداية الخليقة . وكذلك خُلق الرجل من المرأة في بداية حياته . . . ولكن كل شيء يأتي من الله . إذا كان الرجل قد خُلق من المرأة ، لكننا الآن أمام جيل ، وليس خلْق . خلْق الرجل والمرأة الاثنان من الله . . . ودعيا ليتشاركا العظم واللحم .

● صُنع التباين بين الرجل والمرأة ، عن طريق جرح . فالمرأة نتجت من ثقب متروك في جانب الرجل ، الاثنان إذاً لا يتطابقان ، فالمرأة الشريك والجرح للرجل ، ذلك الجرح هو الخاص بالغيرية . كلمة (الضلع) بالعبرية تشير لعظم القفص الصدري ، ولكن أيضاً تشير إلى الحد بين الأرض والبحر ، فالجرح يعمل على أن يتذكر الإنسان حدوده .

الغيرية –وهي البحث والتعامل مع الآخر في اختلافه– تميز الإنسان . ويحكي المدراش أنه ذات يوم كان آدم يتنزه في الجنة وعندما رآه الله قال في نفسه : « الإنسان وحيد في عالمه ، كما أنا في عالمي ، ويحتمل أن تفكِّر الملائكة أن الإنسان خلْقها »[١٠] ، ولتبديد أي سوء فهم قرر الله أن يخلْق المرأة ، ويقول المفسِّر في المدراش : إن القطبية الجنسية تقطع الطريق على الخلط بين الله والبشر . ويحدد الجنس نهاية وحدة الإنسان ، ولكنه في الوقت نفسه يعلن محدوديته .

كلمة رجل ysh' مكونة من ثلاثة حروف Shin, Yod, Aleph في العبرية وكلمة امرأة ishah' مكونة من Hé, Shin, Aleph فهما من نفس الأصل .

وتكتب كلمة ishah' بدون حرف الـ Yod في كلمة ysh' ويوضع حرف الـHé في سجع المؤنث ، وحيث Yod و Hé يكونان كلمة Yah والتي هي واحدة من أسماء الله (اللاهوت) . والحرفان المشتركان Aleph و Shin وحدهما يكونان كلمة (نار) ، فإن انصهار الرجل والمرأة هو نار ، وفي إفرادهما لم يكتشفا وجود الله .

ترك أباه وأمه

منذ أن يكتشف الرجل بفرح ، عظماً من عظامه ولحماً من لحمه ، فإن النص يصنع خطوط هذا التقابل : « ولذلك يترك الرجل أباه وأمه ، ويلتصق بامرأته ويكونان جسداً واحداً » . لا يستطيع الرجل أن يعيش مع قرينه بطريقة كاملة ومبهجة ، إلا بالعبور فوق ارتباطه بالأهل ليعيش حياة الحرية والاستقلال من خلال ارتباطه بعلاقة جديدة فيها التساوي ، فهو مدعو للدخول في علاقة ترابط .

يشتهر « ايمانويل تود Emmanuel Todd » بأبحاثه في مجال الديموجرافي (تعداد السكان) وكان قد كتب

(٩) رسالة بولس الرسول الأولى لأهل كورنثوس (١١ : ١١ –١٢) .

(١٠) D'après Bernard- Henri Lévy, ***Questions de principe deux,*** Le Livre de Poche Biblio essais 4052, p. 112.

كتاباً عن تكوين العائلة والنماذج السياسية[11] ، وقد أوضح العلاقة بين التنظيم العائلي والنظام الحاكم لبلد ما . ولوصف النماذج العائلية المختلفة ، فهناك واقع أساسي وهو الخاص بالعلاقة بين الآباء وأولادهم البالغين ، فهو يصنّف العائلات التي يترك فيها أطفالهم عائلاتهم ليبنوا نقطة البداية الخاصة بهم ، وتلك التي يضم فيها الأبناء زوجاتهم لبيت آبائهم ، وذلك لتصنيفهم في العشيرة العائلية . وتدل دراسته أنه في البلاد التي يعيش فيها الأبناء عند آبائهم تسود السلطة وتظهر العشيرة وتتكون أنظمة سياسية دائمة التسلط ، والعكس في البلاد التي يترك فيها الابن أباه وأمه حيث يشير ذلك للذات والحرية وتتكوّن أنظمة ديمقراطية . وعندما يقول الكتاب المقدس إن الرجل مدعو ليترك أباه وأمه ، فهو يعلن أنه مدعو للحرية والاستقلالية .

وفي الوصية الثانية يقول : « أكرم أباك وأمك » . وأشار دانيال سيبوني Daniel Sibony إلى أن كلمة (أكرم) تعني أيضاً (أثقل) [12] .

فنستطيع أن نقرأ الوصية (أثقل أباك وأمك) والذي يفهم منها بـ« أعط ثقلاً لتاريخهم وكلمتهم » لكن في إطار حريتك الشخصية والاستقلالية ، كل ذلك مع احترام الوالدين وإعطاء ثقل لكلمتهما .

---

(١١) *L'enfance du monde*, ***structures familiales et développement,*** Seuil 1984.

(١٢) Les trois monothéismes, Seuil Points Essais, 1998.

إيمان.... ناضج

في الكتاب المقدس تأتي صورة العلاقة الزوجية كصورة تدل على علاقة الله وشعبه . فما هو صحيح عن الحب هو أيضاً صحيح عن الإيمان : يجب على الرجل أن يترك أباه وأمه .

في الطفولة ، كلاً من الولد والبنت يشارك دائماً إيمان أهله وكنيسة أهله . إن ترْك أبيه وأمه ورجوعه لاستقبال كلمة الكتاب المقدس ليس نتيجة للثقافة التي نما فيها الشخص وكبر ، بل للكلمة التي تقوده إلى وحدته الأصيلة (الأساسية) . ولذلك يجب ألا نتعجب كثيراً عندما يبتعد الصغار عن الكنيسة ، إنها لحظة ضرورية . وفي اليوم الذي يعودون فيه ، سيكون ذلك من إرادتهم ورغبتهم الشخصية ، وبدافع الإيمان الذي اكتسبوه شخصياً .

وما يذكرنا به المدراش الذي يفسّر كلمة الله لموسى : « أهيه الذي أهيه » ، وقال هكذا تقول لبني إسرائيل أهيه أرسلني إليكم . وقال الله أيضاً لموسى هكذا تقول لبني **إسرائيل** يهوه **إله** أبائكم إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب أرسلني إليكم . هذا **اسمي إلى الأبد** وهذا ذكرى **إلى دور فدور** »(١٣). وهنا تساءل المدراش عن سبب ذكر الكتاب « **أنا إله إبراهيم وإله إسحق وإله** يعقوب ؟ » ويجيب بالقول : « حتى يعلمنا أن إله إبراهيم ليس هو نفسه **إله** إسحق ، **وإله** إسحق لم يكن هو نفسه إله يعقوب ، كل جيل يعمّق ويطوّر معرفته بالله ، **والله** يظهر جديداً في كل شخص .

الوصول إلى إيمان ناضج ، هو ترك إيمان الأهل والطفولة ليكتشف في المكتوب أن كلمة واحدة تقابل شخصاً متفرداً ، من لحم ودم ، له تفرده وله علاقاته .

(١٣) خروج ٣ : ١٤ -١٥ .

يأخذ قرينته كنعمة

عندما اندهش آدم أمام المرأة وصاح قائلاً : « هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي » استيقظ عندها . ماذا يعرف هو عن عمل الله أثناء نومه ؟ إن اندهاشه هو صورة للنعمة .

في بعض الأحيان ينظر الإنسان إلى قرينه باعتبار أنه واجب عليه أو مهمة يؤديها . إلا أننا يمكن أن نفهم أيضاً أن القرين نتاج من نعمة الله كما ستقدمه القصة الآتية :

ذات يوم ، سألت سيدة رومانية الربي « يوسي بن حلفى » :

– كم من الأيام احتاجها الله ليخلق العالم ؟

– ستة أيام .

– وماذا فعل بعدها ؟

– صنع الأزواج ، صنع الزواج بجمع فتى مع ابنة رجل ما .

– ماذا ؟ أتلك هي وظيفته الوحيدة ؟ أستطيع أنا أن أفعلها مع خدمي وخادماتي في وقت قصير .

– أجاب الربي يوسي « هذا ليس بالسهولة التي تعتقدينها » .

بالنسبة لله ، فهذا العمل أصعب من شق البحر الأحمر .

وعندما دخلت بيتها ، أخذت السيدة الرومانية خدمها وخادماتها ، ووضعتهم في صف ، وجمعتهم الواحد مع الآخر في لحظات . وفي اليوم التالي جاء الخدم إلى سيدتهم : الأول مجروح في وجهه ، والثاني منزوع الأذن ، والثالث يده مكسورة .

– سألت السيدة : « ماذا حدث ؟ »

– قالت الخادمة الأولى : « لست أريد هذا الرجل زوجاً لي » .

– وأنا ، يقول الخادم التالي ، « لا أريد التزوج من هذه المرأة » .

واستدعت السيدة الرومانية الربي يوسي وقالت له : « ليس هناك مثل إلهك »[(١٤)] .

في الصباح ، وعند الاستيقاظ ، يجب على الشخص المتزوج أن يتأكد من أن وجهه سليماً ، وأذنه في مكانها وذراعه في أفضل حال . إذا كان هذا هو الحال ، فعليه أن يستدير نحو قرينته ، ويندهش (يفرح) من هبة الله ، ويقول مع آدم ، « هذه عظم من عظامي ولحم من لحمي » .

---

(١٤) A. Cohen, ouvrage cité, p. 215.

11

الثمرة الممنوعة (المحرمة)

خوفنا الأعمق هو أن نصير قادرين وخاصة على تعدي كل الحدود

(نيلسون مانديلا Nelson Mandela)

(تكوين ٢)
٢٥- وكانا كلاهما عريانين آدم وامرأته وهما لا يخجلان.(تك ٢: ٢٥).
(تكوين ٣)
١- وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية التي عملها الرب الإله. فقالت للمرأة أحقاً قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة. ٢- فقالت المرأة للحية من ثمر شجر الجنة نأكل. ٣- وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا. ٤- فقالت الحية للمرأة لن تموتا، ٥- بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر. ٦- فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون وأن الشجرة شهية للنظر، فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل. (تك ٣: ١- ٦).

هناك قانون عام للسلوك الإنساني ، وهو خاص ببرطمان المربى : فيكفي أن نُحرَم من لمسه حتى تنمو داخلنا رغبة لا تقاوم لغمس إصبعنا فيه . وعندما تثار الشهوة عن طريق أكثر الحيوانات مكراً ، يكون من الصعب جداً المقاومة . وحدث أن وقعت حواء في الشهوة ، ولكن ما الذي نستفيده من توجيه الإدانة سريعاً إليها ؟

المرأة والثعبان

ونرجع إلى نصنا . فهو يجري في شكل حوار بين المرأة والحية . وتبدأ الحية بالتلميح بأن الله يحرِّم : « أحقاً

قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة ؟ » والحية لئيمة إذ أن وصية الله لا تبدأ بالتحريم بل بكل ما هو مسموح : « من جميع شجر الجنة نأكل أكلاً . . . وأما شجرة معرفة الخير والشر لا تأكلا منها » . على أن الوصية هي شرط الحرية . فإن « لا تأكل من هذه الثمرة » يعطي قيمة لـ « من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً » . إذن فمعنى كلمة الحية أن الوصية كانت تحريم الحرية(لا تأكلا من كل شجر الجنة) .

قبل ذلك الوقت ، لم تترك المرأة نفسها لتؤخذ في ذلك الطريق . فقد فهمت معنى القانون ، ووضعت الأشياء في مكانها الصحيح ، « من ثمر شجر الجنة نأكل » . ثم ذكرت التحريم : « وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا » . الله لا يهدد الإنسان بعقاب ، إنه يشير إليه ببساطة أن من بين كل الثمار ، هناك واحدة مسمَّمة . من يأكل منها ، يموت .

هنا نجد قانون برطمان المربى : دائماً ما يشعل المحرَّم رغبة الإنسان . ويحكي القديس أغسطينوس في اعترافاته ذكرى طفولية مع بعض الأصدقاء ، عندما دخلوا إلى بستان جار لهم ليسرقوا الكمثرى . وكانت حبات الفاكهة سيئة خضراء ومدوَّدة وتصلح للخنازير فقط . وبالرغم من ذلك فقد أكلوا بعضاً منها ، فيما بعد بعشرات السنين يتذكر أغسطينوس أيضاً « كل الفرح يأتي تحديداً من ما هو محرَّم » [١] . تلك الذكرى تؤكد المثل القائل « المياه المسروقة حُلوة »[٢] .

وتدل القراءة المتأنية لهذا النص على أن حواء لم تكن ستتجاوب مع المحرَّم لو أنها كانت صحَّحت مبالغة الحية . من ثمر الجنة نأكل ، ولكنها لم تستطع التوقف عن تجميد الوصية : (فقال الله لا تأكلا منه ولاتمساه) . يقول أحد المفسرين إنه من المحتمل أن المبالغة لا تأتي من حواء ، بل من آدم ، ففي الواقع أن الوصية أُعطيت للرجل ، وقد كررها على امرأته ، وقد يكون قد تشدَّد في الحرْم حتى يتأكد من أنها ستحترم ذلك .

الحية ، والتي هي أكثر حيلة من كل الحيوانات ، لم تنقص من ملاحظة تلك المبالغة ، لقد رأت ثغرة وقد سجلتها وأعدت علامة ضعف واستثمرتها .

ويقول المدراش : « إن الحية بدأت لعبة إغواء ، فقد التفَّت حول الشجرة وقالت للمرأة : « هل أنتِ ذكية » ، أتعتقدين أن لمس الشجرة سيجعلك تموتين ؟ » انظري ها أنا ألمسها ، وأنا في أفضل حال . فترددت حواء ، ثم تحسست الحية يديها ، وفجأة تركتها وجعلتها تلمس الشجرة : أترين جيداً ، أنت لم تموتي ! والآن تستطيعين أكل الثمرة . إذا كان الله قد حرَّمها ، فهذا لأنه خائف منك ، فإنه يعرف ، أن « يوم تأكلان منها ، ستنفتح أعينكما وستصبحان إلهة تعرف الخير والشر » [٣] .

وبعد التلميح بأن الله يريد تحريم كل شيء ، فقد وصفته بأنه إله غيور ، يخاف من أن يصير الإنسان مساوٍ له :

---

(١) Francis Ferrier, ***Saint Augustin***, PUF Que sais-je? N°2468, p.13.

(٢) أمثال ٩ : ١٧ .

(٣) D'après Louis Ginzberg, ***Les légendes des Juifs***, Cerf Collection Patrimoines: Judaïsme 1997, p.56.

« كل صانع يكره من هم في حرفته ، فقد اكتسب الله القدرة على خلْق العالم ، من أكل ثمرة الشجرة . إنه لا يريد أن تقدرا أنتما أيضاً على خلْق أكوان مثله ، أو يكون لكما القدرة على قتل وإعادة الميت إلى الحياة »(٤) . هذا التعليق الأخير حفر ثغرة في فهم المرأة . فهي ترى الثمرة بنظرة أخرى : الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون وشهية للنظر . وها هي الشجرة التي كانت حتى الآن مجهولة الاسم ، قد أصبحت حاملة لكل الفضائل ، فقطفت حواء ، وأكلت وشاركت زوجها معها ، ويتوقَّف المدراش عند كلمة صغيرة بخصوص هذا التشارك . « وأعطت رجلها **أيضاً** معها فأكل » ، وإذا كان قد قيل (أيضاً) فهذا يدل على أن آخرين قد أكلوا منها . وهؤلاء لن يكونوا سوى الحيوانات التي تشارك الإنسان مسئولية العصيان(٥) .

أين هو آدم أثناء كل تلك الأحداث ؟ هل من المحتمل أن يكون قد ذهب في نزهة في الجنة ليستفيد بكل رخائها ؟ هل كان يتحدث مع الله عن مشاريع التنظيم (التدبير) التي كان يفكر في اتباعها ؟ لو كان قد أمر امرأته بعدم الخروج من البيت وألا تتكلم مع أغراب ، لكان ذلك أفضل له . كان عليه اصطحابها معه ليجعلها تشاركه عمله ومشاريعه .

الرجل والمرأة قد سمعا صوت يغريهما ، صوت يقول لهما : « لماذا تغلقان على أنفسكما بنصائح ووصايا يعطيها الله لكما ؟ تستطيعان أنتما أن تصيرا مثل الله . تستطيعان أن تقررا ما هو خير وما هو شر ! **إذا كان هناك** ثمرة وترونها جميلة وجيدة ، فلماذا تمسكان أنفسكما عن أكلها ؟ أنتما أحرار ، إذ إنكما مثل **الله** » .

ستصيران مثل الله

الله هو الذي يقدر على كل شيء ، وهو أيضاً الذي يعرف كل شيء . إنه سيد الخير والشر ، الطيب والشرير . وعندما تشير العبرية لطرفي سلسلة (الطيب والشرير) ، فهي تشمل في هذا المصطلح مجموع تنوُّع الألوان الموجودة بين التناقضات .

وبالنسبة لكلمة (يعرف) فهي تتعدى المعرفة الفكرية البسيطة ، ولكنها تصل إلى المعرفة الشاملة لكل شيء ، فهي تحدث السيادة والسلطة ، ومعرفة الخير والشر تسمح للخيال بتعدي المعرفة الكونية ، وسيادة الطيب والشرير ، وامتلاك الخير والشر . ولسؤ الحظ ، أعلمنا التاريخ أن الإنسان الذي يظن أنه يمتلك الخير والشر يميل إلى

---

(٤) D'après Rabbi Yaacov Couli, ***Meam Loez Genèse Tome 1,*** Moznaim Publishing, Jérusalem 1992, p. 209.

(٥) قبْل خلْق الإنسان والحيوان ، أشار المفسرون إلى عصيان أوَّلي في الطبيعة نفسها . في الفصل الأول في التكوين ، قال الله : « لتنبت الأرض عشباً وبقلاً يبزر بزراً وشجراً ذا ثمر يعمل ثمراً كجنسه بزره فيه على الأرض » (تك ١ : ١١) . وهذا يعني في العبرية : « شجر ثمر يعمل ثمراً » . ولكن الأرض لا تنتج إلا أشجار « عادية » حاملة للثمار . والربيون الذين يهتمون بأدق التفاصيل تساءلوا عن الفرق بين (شجر ثمر حاملاً ثمر) و(الشجر حامل الثمر) ، وأجابوا أن في وصية الله يجب أن تكون الشجرة نفسها ثمرة ، أي أن خشب الجذع يجب أن يكون له طعم التفاح . وفي خلْق الله ، الهدف « إنتاج ثمار » كان متواجداً في (شجرة ثمر) . الأرض في حكمها الحر لم تتبع الوصية ، فقد أنتجت شجراً بخشب والذي أنتج ثمراً ، ووضعت الشجرة مسافة بين الفعل والهدف . (cf. Rachi, ***Commentaire du Pentateuque, la Genèse,*** Fondation Samuel et odette Lévy, Paris 1993, p. 7) ، ويضيف الربيون أن ذلك يشرح السبب الذي من أجله أنه بالثمرة قد طُرح الإنسان من وجود الله . وذهب الزوهار « Le Zohar » في نفس المعنى بقوله ، إنه من بعد السقوط وضع الله أربعين عقاباً : عشرة للرجل وعشرة للمرأة وعشرة للحية وعشرة للأرض .

الاعتقاد بأن كل ما يفعله يأتي من الخير ، بينما كل ما يفعله المختلفون يأتي من الشر .

بالنسبة للإنسان الذي يتطلع لكي يكون الله ، فإن ذلك مرجعه إلى حذف الحدود داخله ، وتنمية الرغبة بامتلاك الناس والأشياء . والشخص الذي يتبع مثل تلك الأماني يحمل لقب الطاغية .

والمشكلة بالنسبة للإنسان الذي يريد أن يصبح إلهاً ، هو أنه لا يتأخر عن الاصطدام والتعثر بزميله الذي لديه نفس الآمال . فيبدآن بالدخول في مناورات ديناميكية ، إذا كان الواحد يريد السيطرة على قريبه ، فعليه أن يلعب أدوار شخصيات مختلفة ، ويخبيء طبيعته الحقيقية فيلمّح ويكذب مثل الحية حتى لا تخرج ضعفاته .

إذا كان الإنسان قد عصى كلمة الله ببساطة ، فهذا ليس فاجعة ، فمن ذا الذي لم يعص وصية واحدة ؟ ولكن برغبة التحوُّل لسيد الطيب والشرير ، فقد عارض الإنسان فكرة القانون نفسه . وسندرس فيما بعد القوانين الخاصة بنوح التي حسب التقليد ، قد أُعطيت لنوح والتي تطبَّق على كل الشعوب . (٦) وهي تتماثل لما نسميه اليوم بالقوانين الطبيعية ، وأولى تلك القوانين تطالب بوجود القضاء ليحكم الحياة المشتركة ، فالمجتمع بدون قوانين معرَّض للوقوع في خراب الطغيان ، والذي فيه لا أحد يقف أمام العنف والثأر والعطش للسيطرة ، التي هي في كل شخص . وباسترداد سيادة الطيب والشرير ، ينكر الإنسان تماماً وبكل بساطة هذا القانون الأول . فهو يلقي حتى بفكرة القانون والذي سيأتي من خارجه .

إنها عملية ميكانيكية نفسية معدَّة جيداً عن إرادة تكييف وتطبيق القانون على سلوك كل كائن إنساني عنده قائمة ببنود الشرف ويسلِّم للقيم . فإذا تراءى له أن يتعدى مبادئه ذات مرة ، فسيصاب بخيبة الأمل من نفسه ، وسيعد نفسه بعدم فعل ذلك مرة أخرى ، وإذا تعدَّاها مرة أخرى ، فسيعطي نفسه ذخيرة من ميكانيكية الدفاع والتي ستجعله يقول : « إن العصيان ليس كبيراً لتلك الدرجة » ، فإذا عصى مبادئه للمرة الثالثة ، فسيغيِّر القانون ويعطي لنفسه الأعذار لسلوكه الخاص به .

وقد صوَّر الربِّي « نوسون شرمان » هذه الديناميكية بقوله : « إن الإنسان في هذه الحالة محكوم باحتياجه لتحليل موقفه فيقدم على تغيير نظامه القيمي ليسمح له بفعل كل ما لايستطيع أن يمنع نفسه من فعله ، فمريض السكر الذي يكثر من تناول الحلويات سيقول : « إن الحياة بلا متعة ليست حياة » ، ورجل الأعمال الذي كان شريفاً في الماضي والذي يواجه جميع أشكال الإغراءات سيقنع نفسه بأن التجارة عبارة عن وسيلة لتحقيق المكسب وتجنب الخسارة بأي ثمن ، وبهذا يصبح الإنسان سيد الخير والشر .

مصدر الحياة

التضاد بين وصية الله وسلوك الإنسان مظهر من مظاهر الوجود الإنساني ، ما هو الأكثر أهمية ؟ : أن يكون الإنسان أمام الله ، أم في صراع مع الحياة ليصبح سيد الخير والشر ؟ أن يرضى بما هو عليه أم بما يصنعه بنفسه ؟

---

(٦) انظر فصل ٢٠ العالم النوحي .

(٧) *Yona*, édition Colbo collection La Bible Commentée 1990, p.XLIII (introduction).

إذا اتبعنا نصيحة الحية التي تدعو الإنسان ليصبح إلهاً ، فإنه سيفعل ما فعله من قبل ، وإذا اتبع الإنسان كلام الله والذي يدعوه للعيش في الجنة ليزرعها ويحفظها ، فلن يكون للإنسان حاجة للبحث عن سبب وجوده .

ويحكي المدراش أنه عندما كان الإنسان في الجنة ، كانت نظرة آدم لا نهائية ، وكان يستطيع أن يمسك بكل الكون ، كان يتأمل في خليقة الله ، فعندما ينظر لشجرة ، لا يرى شجرة فقط ، بل قطعة من الخلْق . وبأكل الثمرة ، نقض الإنسان هذا التناغم والانسجام مع الطبيعة ومع الله . لقد غادر عالم الالتحام ، ليدخل في عهد التفرقة بين الخير والشر ، الحقيقة والكذب . فعل أكل الثمرة اُعتبر في تقليد الكنيسة « الخطأ الأصلي » للإنسانية ، وسُمِّي ، خاصة منذ القديس أغسطينوس ، « الخطية الأصلية » . والمعنى الذي اتخذه ذلك المصطلح يعرض فكرة العيب المنقول من جيل إلى جيل ابتداءً من آدم وحواء ، هذا التقريب لا يتماثل مع قرائتنا لنصوص البدء ، كما لا نعتقد أن التكوين يحكي أصل الإنسانية . فنحن لا نعتقد أنه يتكلم هنا عن خطية تاريخية أولية ، في المقابل ، فالتكوين يتكلم عن حقيقة الإنسان في جوهره ، وبذلك يكون فعل أكل الثمرة ما هو إلا نموذج للخطية . أكل الثمرة يماثل النموذج المثالي للخطية ، ويكشف المقطع الذي نتأمله السقطة التي كانت أصل كل ما أصاب الإنسانية من ارتباك وفوضى : « ستصيرون مثل الله » كل شيء في « ستصيرون مثل » كما قالت اللاهوتية « يولاند بوانارد » « ستصير مثل » ، في الواقع لن « تصير الإنسان » **أبداً** ، بل سيتنازل عن وجوده وكيانه ليصبح ظلاً »[(٨)] .

ولمواجهة شهوة تقليد الآخرين ، يدعو العهد القديم للقداسة : « تكونون قديسين لأني قدوس الرب إلهكم »[(٩)] ، وصفة (قدوس) تظهر خصوصية الله وتعريفه . قول إن الله قدوس ، يعني أنه مختلف عن كل آلهة أخرى ، وبدعوة الله للإنسان ليصبح قديساً ، لا يعني أنه يدعوه ليصبح الله ، بل يدعوه ليكون مختلفاً عن الآخرين ، يصبح فريداً . . يكون قديساً ، وهي معرفة خصوصية . إنه تنمية الشخصية التي لا ترتكز على التقليد ، بل على التعرف وقبول (تفرُّده)[(١٠)] . نحن نعيش في مجتمع يقدِّر التنافس والصناعة ، ويتضرر من العلاقة . يكفي ملاحظة كم عدد الطلاب المتميزين الذين يتخرجون من أكبر المدارس . هم دائماً عاجزون في مجال العلاقة[(١١)] ، ولسان حالهم يقول : نحن في سن النضج الذي يعتبر مهماً ويحظى بالتقدير حيث يطابق النموذج المثالي : فعَّال ، منتج ، عامل . . . وويل للآخرين ، ويل للمريض ، للعاطلين ، للمسنين ، للمقعَدين . للطيبين ، للخجولين ، وللذين يرجفون في مجتمع هدفه هو أن يصيروا مثل الله . فليس هناك مكان لمثل هؤلاء البؤساء الذين يُترك لهم الفتات ، ونظراً لأننا اجتماعيون ، فنحن نصرف لهم (مساعدات) ، لكن ليس لهم حاجة

---

(٨) "Comme des dieux", *Les cahiers protestants* 99 / 1, Lausanne, p. 6.

(٩) لاويين (١٩ : ٢) .

(١٠) وليس صدفة أن الأصحاح ١٩ من اللاويين أن يبدأ بالدعوة للقداسة البالغة مع الآية التي تطالب بحب القريب كنفسه (١٩ : ١٨) .

(١١) من بين معشوقي الغرب ، من أجل الأفضل والأسوأ يظهر الأبطال : اسكندر الأكبر ، يوليوس قيصر ، كريستوفر كولمبوس ، نابليون الأول ، وكثيرون أكثر من القديس فرنسيس الأسيس . أكيد أننا ننظر أيضاً لكبار الفلاسفة ، وكبار الفنانين ، وكبار الكُتَّاب ، ولكن هناك تمييزاً للإنسان البطل الذي يستطيع أن يغيِّر ويعيد تنظيم المجتمعات ، ص ٢٧٢ .

أن يفهموا أن مجتمع العمل لم يُصنع من أجلهم .

ويبدو أن تخفيف حدة هذه المنافسة ، عاد ليصبح وسيلة مستخدمة ، ليكون الإنسان أكثر قدرة على الأداء الجيد . هناك رسم هزلي يصور الطابق الأخير لإحدى الشركات . وهناك يشرح مدير المصادر البشرية للرئيس أن القيم الروحية والأخلاقية في طريقها لتصبح البُعد الجديد الذي لا يمكن تجنُّبه لتقييم روح الشركة ، فأجاب المدير : « كلِّمني عن العوامل الأفضل أداءً في السوق ! » .

وعلى عكس مسلك التقليد والسيطرة ، يرتسم طريق آخر يرتكز على المحادثة ، الصبر على الفهم ، السمع واحترام الآخر . وتساءل « سكوت بيك » عن أسباب عدم سؤال آدم وحواء لله ليفهما سبب التحريم ، فقد كانا يستطيعان أن يقولا له : « نريد أن نعرف لماذا لا تريدنا أن نأكل من ثمرة شجرة المعرفة . فنحن لا نفهم سرّ تحريمك ، ونود لو أن تشرح لنا ؟ » . وكان آدم وحواء يستطيعان أيضاً الإعداد لحوار بين الله والحية[١٢] .

كان قد ورد نفس الرأي في المدراش عندما ذُكر أن الله نفسه قد أعطى المثل ، وذلك عندما استشار الملائكة قبل خلْق الزوج الأول [١٣] ، أراد الله أن يُعلِّم الإنسان ألا يكون متفاخراً وأن يناقش ويطلب النصائح من الآخرين عندما يقرر أن يبدأ في عمل شيء حتى ولو كان سيستشير أناساً أكثر بساطة منه[١٤] . وبالسالب يظهر الأصحاح ما يمكن أن تكون عليه حياة عدن . سيكون عالماً حيث سيكون الإنسان قد فهم أن قيمة حياته ليست فيما يصنعه ، بل في ما هو عليه ، عالم حيث يعرف أنه ليس الله ، بل رجل وامرأة في إطار الحدود ، وجمال إنسانيتهما .

(١٢) *Le chemin le moins Fréquenté,* Robert Laffont 1987, p. 313.

(١٣) صيغة الجمع « لنصنع الإنسان على صورتنا » .

(١٤) Rachi, ***Commentaire du Pentateuque, La Genès,*** Fondation Samuel et Odette Lévy, Paris 1993, p.9.

عقد فاوست

تحكي أسطورة فاوست حكاية رجل باع روحه للجحيم ليرضي رغبته في المتعة ويشبع فضوله العقلي .

في حضارتنا ، كل شيء يحدث كما لو كانت الحيَّة قد قابلت الرجل الغربي منذ قرنين ، وقدمت له السلعة الآتية : « سيكون لك القدرة ، معرفة الخير والشر ، السعادة وسر الخلْق ، وستستطيع آنذاك التصدي لله » . ستتحرك حيثما تشاء على البحر وفي الهواء ، ستكتشف حدود العالم وستحكم المادة ، وستبلَّغ مباشرة بكل ما يحدث في أي مكان . ستمتلك كل شيء ، وستكون الأرض مملكتك ، وستستطيع إطعام مليارات من البشر ، وستعرف البرد والحر ، الراحة والحرية الجنسية .

لقد وقَّعنا عقداً وعملت الحية بكلمتها ، نحن نمتلك كل شيء :

« العلوم ، المعرفة ، القدرة ، الوفرة . . . ولكننا فقدنا المعنى » .

- الإنسان يعرف الكون ، ولكنه لا يعرف بماذا يفيد .
- عرف سر الحياة ، ولكنه فقد قداسة الحياة .
- يستطيع الاتصال مع العالم كله ، ولكنه أصبح مغترباً حتى عن نفسه ويشعر بالوحدة .
- يستطيع إنتاج الغذاء بوفرة ، ولكنه لم يتعلم توزيعه .

ألم يحن الوقت بعد لتمزيق العقد الذي وقَّعناه مع الحية ، حتى نستدير نحو الخالق لإيجاد المكان الصحيح والذي يدعونا لنأخذه في الجنة[١٥] ؟

(١٥) D'après Xavier Emmanuelli: ***J'attends quelqu'un Arléa*** 1995, p. 107 - 108.

الخطية الأصلية

كم ينطبق ذلك النص على التاريخ الكنسي ! ذات يوم قطف آدم وحواء التفاحة ، ومنذ ذلك اليوم ، تعرَّضا للشر ونقلا تلك الآفة لنسلهما . منذ أمد بعيد حلَّلت الكنيسة معمودية الأطفال تحت اسم عقيدة نقل المعمَّدين من عقاب الخطية الأصلية إلى الجنَّة .

نحن لا نعتقد أنه في يوم محدد ، قطفت مدام حواء والأستاذ آدم التفاحة ، وأنه منذ ذلك اليوم تعرضت الإنسانية للشر . ونعتقد أن هذا النص يكشف تركيباً عميقاً داخل الشخصية . كل البشر لهم في أنفسهم سر الرغبة في التحوُّل إلى آلهة وامتلاك الناس والأشياء .

ويقول بعض المفسِّرين الربِّيين إنه قبل أكل الثمرة ، كان الخير والشر أمام الإنسان . كان يستطيع اختيار هذا أو ذاك . ومنذ أن أكل الثمرة ، أدخل الإنسان الخير والشر في داخله ، لقد اخترقته قوى شريرة والتي عليه أن يحكمها . وهناك أسطورة عربية تصور تلك الفكرة :

كل صباح ، يذهب آدم للصيد وتظل حواء وحيدة في البيت ، وذات يوم ذهب الشيطان ليقابل حواء ويستأمنها على ابنه حتى ترعاه . وعندما يعود آدم من الصيد ويرى الطفل ، يغضب قائلاً : « لماذا قبلت طفلاً من الشيطان ؟ لقد خدعك بجاذبيته » .

وأخذ آدم الطفل وقطَّعه قطعاً وذهب إلى الصحراء لينشرها ، ولكن الشيطان ، الذي يعرف السحر ، أعاد بناء طفله من القِطع المبعثرة ، وقاده من جديد إلى حواء حتى تعتني به .

أخذت الثورة بآدم . فأشعل ناراً وألقى الطفل في لهيبها ثم بعثر الرماد في الهواء . ولكن الشيطان أمر الهواء وأحضر له الباقي من طفله ، وأعاد بناءه . واقترب من جديد نحو حواء وانتحب حتى ترضى بأن ترعاه .

فرجع آدم وقتل الطفل للمرة الثالثة ، ومن لحمه أعد عشاءً والذي تقاسمه مع زوجته ، وعندما رأى الشيطان ما فعله الرجل والمرأة بطفله ، قال : « هذا جيد ، لقد بلغت هدفي » ، وتكلم مع ابنه وقال له : « ابق حيث أنت »[16] .

(١٦) D'après Jean- Claude Carrière, *Le cercle des menteurs*, Plon Pocket N°10567 p.34.

١٢

وعلما أنهما عريانان

ليس هناك خلل فكري أكبر من أن نتصور الأشياء كما نريد لها أن تكون

(بوسيت Bossuet)

(تكوين ٢)

٢٥- وكانا كلاهما عريانين آدم وامرأته وهما لا يخجلان. (تك ٢: ٢٥).

(تكوين ٣)

١- وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية التي عملها الرب الإله. فقالت للمَرأة أحقاً قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة. ٢- فقالت المرأة للحية من ثمر شجر الجنة نأكل. ٣- وأما الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا. ٤- فقالت الحية للمرأة لن تموتا. ٥- بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر. ٦- فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون وأن الشجرة شهية للنظر، فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل. ٧- فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عُريانان. فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر. ٨- وسمعا صوت الرب الإله ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار. فأختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنة. ٩- فنادى الرب الإله آدم وقال له أين أنت؟ ١٠- فقال سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فاختبأت. ١١- فقال من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها، ١٢- فقال آدم المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت، ١٣- فقال الرب الإله للمرأة ما هذا الذي فعلت. فقالت المرأة الحية غرتني فأكلت (تك ٣: ١- ١٣).

عندما يقوم فنان برسم لوحة ، ففي بعض الأحيان يحتاج أن يرجع بضع خطوات للوراء ، ليلقي نظرة على عمله . إنه يبتعد عن التفاصيل حتى يقدّر مجموع عمله .

في الفصل السابق ، قمنا بقراءة الحديث بين المرأة والحية ، وقد رأينا أن الشهوة المطلقة ، بالنسبة للإنسان ، هي أن يتخذ من نفسه إلهاً بكونه سيد الخير والشر . والإنسان الذي يتمنى أن يصير إلهاً يفكر أنه مدعو لامتلاك الناس والأشياء . ويعتقد أن الحقيقة المطلقة لشخصه توجد فيما يصنعه ، ما يستهلكه ، ما يمتلكه ، القدرة التي يمارسها .

ولكي نأخذ هذه الخطوات للخلف بالنسبة لموضوعنا ، فسنقوم بوضع ثلاثة أسئلة .

- ما هو الموقف عند بداية هذا النص ؟
- ما هو الموقف عند نهاية هذا النص ؟
- ما هو الحدث الذي يمثل عقبة في كلا من الموقف الأول والثاني ؟

في بداية النص ، يعيش الرجل والمرأة في انسجام في جنة الله . إنهما عريانان الواحد أمام الآخر دون أي خجل .

وفي النهاية ، كسرا علاقة الانسجام مع الله ، وأدركا أنهما عريانان فاختبئآ الواحد من أمام الآخر . . ومن أمام الله . وعندما كان الله يتنزه في الليل في الجنة ، نادى على الرجل ، ولكن آدم اختبأ . وأمام هذا السلوك ، استنتج الله أنه أكل من الثمرة . وضع الرجل المسئولية على المرأة التي هي نفسها اتهمت الحية ، وها قد أتى وقت اللا مسئولية . نعتقد أننا في الفردوس ، ولكننا متواجدون في حالة من البيروقراطية !

ما بين موقف براءة الرجل والمرأة اللذان يعيشان عريانان الواحد أمام الآخر ، والدخول في عالم الاختباء ، هو الأكل من الثمرة . لقد وصلا إلى عالم امتلاك الخير والشر ، وقد سلَّحا رحلة بحثهما بالتأليه الأوتوماتيكي .

العري

ولفهم معنى العرى ، نستطيع أن نتساءل عن عمل الملابس . إنها تسمح للإنسان بمقاومة قشعريرة البرد ، الهواء ، التغيرات الجوية ، فهي تحمي داخله (باطنه) ، إنها أيضاً وسيلة الاتصال : إذا طرق بابكم رجل مرتدياً بنطلون جينز وقميصاً من الجلد ، ستأخذون انطباعاً مختلفاً ، عما إذا كان يرتدي بدلة ورباط عنق . وبطريقته في اللبس ، يتكلم الإنسان ، الملابس هي اتصال عابر بوسيلة أخرى غير الكلام ، فهي تتكلم بالهيئة .

وظيفة الملابس تربط بين البحث عن الألوهية والاختباء من العري ، وكما تبعث سيادة الخير والشر الخيال بامتلاك الناس والأشياء . فعلى الإنسان إذاً أن يتعدى منافسيه . في غزوه للألوهية ، يصطدم برغبة الآخر ، الذي كان قريباً ، ويصبح خصماً وغريماً .

واختبأ آدم وحواء الواحد من أمام الآخر يخفيان عريهما ، إذ إنها تظهر ضعفهما ، حقيقتهما العميقة . عندما نريد أن نصبح الله ، يجب أن نحتمي بطلاء وتغطية ضعفاتنا . وعدت الحية المرأة بأنها إذا أكلت هي وزوجها من الثمرة ، فستنفتح أعينهما . وقد عملت بنصيحتها ، ولكن بدلاً من الوصول لمعرفة الخير والشر ، انفتحت أعينهما على تمام عريهما ، إنهما يريدان التوصل إلى الألوهية ، وقد اكتشفا ضعفهما . ونستطيع أخيراً أن نفكر بأن قبل قطف التفاحة ، كان الرجل والمرأة محميان باحترام القانون . الهدف المطلق من أي قانون هو إعفاء الإنسان من حماية ضعفاته ، وفي المرة التي يخرج فيها الإنسان عن القانون ، فعليه أن يدافع عن نفسه بنفسه ، وأن يحمي ضعفاته ليمنعها من الهجوم عليه .

في إنجيل توما الأبوكريفي ، سأل الرسل المسيح : « يا سيدنا ، متى يأتي مُلكك ؟ متى سنكون معك في النعيم ؟ » فأجاب يسوع بهدوء : « عندما ، تتركون ملابسكم ، وتنزلوها حتى أرجلكم دون خجل ، مثلما يفعل الأطفال الصغار ، عندها سيكون الملكوت ها هنا »[1] . حسب ذلك الإنجيل ، وهو من « الأبوكريفا » حيث لم يُضم لقائمة كتب العهد الجديد ، لم يكن الملكوت مساحة ، ولكنه زمن يتميز بطابع الاتصال . كما في جنة عدن ، العرى يصف علاقة نقية وصحيحة للإنسان أمام قريبه ، وأمام الله .

في كتاب « مذكرات » ، يقول « جاك إيلول Jacques Ellul » إنه تلقى من أبيه تعريفاً للشرف والذي يرتكز على أربع قواعد : لا تكذب أبداً على الآخرين ، لا تكذب أبداً على نفسك ، كن رحيماً نحو الصغار ، وغير لّين أمام القادرين . كلاً من نوعي السلوك مع الضعاف والقادرين يمثل علامة شجاعة وحرية في الحياة الاجتماعية . وفيما يخص الصراحة « لا تكذب أبداً على الآخرين ، لا تكذب أبداً على نفسك » فهما صراحتان مع النفس ومع الآخرين يتقاطعان مع ما فهمناه من العري في الجنة . هذان التعليقان مترابطان إذ إننا لا نستطيع أن نكون في صراحة مع الآخرين إذا لم نبدأ بأن نكون عليها مع أنفسنا .

كان والد « جاك إيلول » غنوسياً ، ومن الجيد هنا أن نتذكر أننا أمام حكمة عمومية . وبتجديد التجاذب بين العري والاختباء في نصوص التكوين ، فإن الكتاب المقدس يسجل هذا التضاد في سجل شامل[2] .

أين أنت

قام السيد حاسيدي بسجن الربي « زالمان » في سانت بيترسبرج بسبب بلاغ افترائي . ومنذ ذلك الحين كان يجلس يتأمل في غرفته ، وكان يتلقى زيارة رئيس البوليس وهو مسيحي مهتم بالكتاب المقدس . وسأله رئيس البوليس .

---

(١) إنجيل توماس ٣٧ .

(٢) في العهد الجديد ، يتكلم إنجيل يوحنا عن نفس الموضوع . يقيم تضاداً بين الحقيقة والكذب ، النور والظلمات . يدرك الإنجيلي الترابط بين النور والحقيقة والإيمان ، يستطيع الإنسان العيش في النور ومن ثم يدرك حقيقته الداخلية .

– لماذا قال الله لآدم أين أنت ، وهو يعرف كل شيء ؟

فأجاب الربي زالمان :

– هل تعتقد أن المكتوب أزلي وأنه أبدي أيضاً ويشمل كل الأشخاص والأوقات ؟

– أجاب الزائر « نعم » .

– إذن ، تخيل أنه في كل لحظة يتقدم الله لكل إنسان ويسأله السؤال : أين أنت في العالم ؟ منذ أن أمضيت فيه كل تلك الأيام وكل تلك السنين ، أين أنت في كل تلك الأيام والسنين[٣] .

نستطيع أن نصل إلى نفس الإدراك في السؤال الثاني الذي سأله الله للإنسان في الكتاب المقدس ، فبعد أن قتل قايين أخاه ، ذهب الله ليراه وسأله : « أين أخاك ؟ » . منذ البدء ، لا يكف الله عن استجواب كل إنسان بسؤاله : « أين أنت » ، « أين أخاك » .

وبعد أكل الثمرة ، خبأ الرجل والمرأة عريهما الواحد أمام الآخر ، بل وأيضاً من أمام الله ، إذ كانا خجلانين . الخجل هو إحساس بالضيق يحدث بعد عمل حركة أو كلمة لا نفخر بها . ويسبب الخجل (الإخفاء) ، ولكن ماذا يعني الخجل أمام الله ؟ إنه يحمل اسم : الإدراك . عندما ذهب قايين ليرى أخاه ، قال له ، حسب التقليد : « ليس هناك خير وشر ، ليس هناك دينونة للأشرار ، ليس هناك مكافئة للصالحين ، وليس هناك عقاب للكافرين »[٤] . هو يريد أن يقتنع أن لا وجود للإدراك ، وبالتالي ليست هناك أي مشكلة في قتل الأخ الذي يغير منه ، وبسؤاله : « أين أخاك » أيقظ الله إدراكه .

وفي أسطورة (القرص) وصف « فيكتور هوجو » قايين في صراع مع هذا الإدراك المرموز إليه بالعين . فرَّ قايين إلى شرق عدن ، ولكنه متبوع بالعين . أقام مدينة بأسوار مرتفعة ، ولكنه متبوع بالعين ، أغلق على نفسه في قبر ولكن . . . كانت العين في القبر تنظر قايين .

حسب علم اللغة ، فإن كلمة إدراك تعني معرفة . الإدراك مرتبط مع المعرفة ، إنه مطلب لصحو الإنسان مع نفسه : أن لا يكذب أبداً على نفسه . أن يكون صريحاً مع نفسه ، هو احتياج داخلي والذي يتقاسمه الإنسان مع الآخر والذي يسميه غير المؤمن (بالإدراك) والمؤمن (بالله) . وفي مواجهة هذين السؤالين « أين أنت ؟ » و« أين أخوك » والتي يوجههما الله للإنسان ، فهذا الأخير مدعو لينظر ضعفاته ، حتى يستقبلها بدلاً من دفنها : « أنا هنا ، سيدي ، واقف أمامك بكل ضعفاتي ، بكل شرودي (توهاني) وأخطائي » .

---

(٣) D'après Martin Buber, ***Les récrits hassidiques***, Editions du Rocher, Monaco, 1978, p.365.

(٤) Rabbi yaacov Couli, ***Meam Loez, Genèse Tome 1,*** Moznaim Publishing, Jérusalem 1992, P.238.

الصحو

عندما قال الله لآدم : « أين أنت » فهو لا يقصد أن يسأله أين أنت جغرافياً ، بل يسأله عن حالته الداخلية . وعلى هذا السؤال ، يعرف الجميع الإجابة . الله يعرف مكان آدم حيث أنه الله . الإنسان يعرف جيداً حيثما هو ، فقد أكل من الثمرة . والإنسان يعرف أن الله يعرف . إذاً ، فأي لعبة يلعبها الله بسؤال الإنسان ؟ يعطي له الفرصة بعدم إخفاء موقفه الجديد والعودة إليه ليبدأ تاريخاً جديداً . ولكن يرفض آدم الدخول في هذا المسار المؤدي إلى الحقيقة ، بل يضع اللوم على المرأة . ويترائي للمدراش أنه أجاب الله بـ :« ياسيد الكون ! عندما كنت وحيداً ، لم أخطيء ، ولكن منذ أن اقتربت منّي تلك المرأة ، فقد أغوتني » . فحزن الله وقال : « لقد أعطيتك إياها لتكون لك معيناً ، وأنت بدلاً من أن تكون شاكراً ، تدينها قائلاً : « إنها أعطتني من ثمر الشجرة »[٥] .

هناك مثل ربّيني يحكي أنه عندما يجتمع كل الصالحين في ملكوت الله ، سيتجمعون حول مائدة للوليمة الملكية ، وسيكون السؤال لمعرفة من سيكون له الشرف بقول المباركة قبل العشاء . سيلتف الصالحون حول إبراهيم ، ولكنه لن يكون إبراهيم الذي سيلقي المباركة . بعدها سيطلبون من موسى ، ولكنه ليس موسى أيضاً . وعندها سيلتفون نحو داود . وسيقول داود المباركة . لماذا ؟ لأن داود عرف أعلى وأسفل ، نجاح وفشل ، ولكنه ظل دائماً أمام الله . واليوم الذي كان فيه زانياً وقاتل أبلغ الله عن خطئه على لسان النبي ناثان . ولم يبحث داود عن تبرئة نفسه ، بل صرخ عندها : « قد أخطأت أمام الرب »[٦] . في التقليد الكتابي ، لم يكن خطأ داود أقل من خطأ قايين . لكن داود كان صريحاً ، بينما أجاب قايين الله : « أحارس أنا لأخي ؟ » . ويقول التلمود إن أكبر الصالحين لن يكون أبداً أكبر من الذي تاب[٧] . إنه السبب الذي من أجله سيكون لداود الشرف في قول المباركة في وليمة الصالحين .

في كل مرة يجد فيها الإنسان أن الله حاضر في جنته الشخصية ، يسأله هذا الأخير سؤالاً : « أين أنت ؟ » ويمضي الإنسان وقته في الهروب في اضطراباته ، وافتتانه ، في اللهو ، أو التحليلات . وبالهروب من السؤال ، يبقى الإنسان على سطح الأشياء ، على ماديتها العادية ، دون الدخول في عمق الأشياء أو معناها أو مرجعها[٨] . يلقي سلوك داود إجابة أخرى والتي تضع الله ليس (في موضع القاضي) الذي يجب الاختباء من أمامه ، بل (محادث) يكشف للشخص عن حقيقته الداخلية . لم يصنع الإنسان إلا من تراب ، ولكن عليه ألا ينسى أنه أتى من نَفَس الإله .

---

(٥) D'après Louis Ginzberg, ***Les légendes des Juifs***, Cerf collection Patrimoines: Judaïsme 1997, p. 59.

(٦) صموئيل الثاني (١٢ : ١٣) .

(٧) Talmud de Babylone, Traité Berakhoth 34b.

(٨) هكذا ، في حديثه مع Paul Ricoeur ، فسّر André LaCoque عرى الجنة ***Penser la Bible,*** Seuil 1998, p. 39 .

أمام سؤال الله ، يستطيع الإنسان الاختباء حيث إنه لايريد سماعه ، فهو مشغول أمام الله . فهو يستطيع أيضاً أن يستقبل سؤالاً ليعرف غربته الأساسية . يكتب « شلاير ماخر » أن الواجب الأول نحو الله هو احترام الحقيقة بتدقيق . أن نكون صرحاء أمام الله ، فهذا يقودنا لنكون حقيقيين أمام الآخرين . إن الذين يدخلون في هذا المسار ينمُّون بذلك قيم استقامة ، شرف ، رفض النجاسة ، وخشوع .

خشوع صحيح وخاطيء

أمام الله ، يستطيع الإنسان إما الاختباء ، وإما معرفة عريه . فإذا اختار الاختباء إذاً فإنه يدخل في لعبة مرهقة تصل إلى طرد الله من حياته . إذا عرف عريه ، فهو سيصل إلى معرفة أكبر بكثير . كما سألنا أحد الربيين : « لماذا ، لا يتكلم الله مع البشر في فترات مختلفة من زمن الكتاب المقدس ؟ » ، فأجاب : « إذا كان الرجال لا يسمعون لله فهذا لأنهم لا ينحنون كفاية لأسفل حتى يسمعوه » .

أعلن الكثير من الروحانيين أن الخشوع كان من أكبر النعم[٩] ، لكنهم قالوا أيضاً إنه يجب الشك في الخشوع الذي يسبقه سلبية في حياتهم . إنه يندرج تحت نقد « نيتشه » الذي ينتقد المسيحيين لكونهم متواضعين ولكنهم لا يمتلكون الشجاعة لمواجهة صراعات الحياة . قال « Le Baal Shem Tov » : « إنه ليس بالخشوع أن تنحني كثيراً وتنسى أن تنشر البركة الوفيرة على كل العالم بكلمتك وسلوكك[١٠] . وسمى تلك السلبية الذاتية بالخشوع النجس .

إذا كانت كلمة الأرض بالعبرية Adamah أعطت كلمة Adam أي الإنسان ، فباللاتينية تتصل نفس الكلمة humus أي الإنسان بكلمة humilis أي متواضع .

المتواضعون هم الذين لديهم الشجاعة لمعرفة إنسانيتهم الحقيقية . التواضع في معرفة أنهم ليسوا إلا قليل من التراب . لكن نفس الكلمة تعطي معنى « فكاهة » أي « دعابة » . المتواضعون عندهم فكاهة حيث لا يؤخذون كثيراً على محمل الجدية .

الخشوع الحقيقي يتواجد في التقاء الفكاهة والتواضع .

---

(٩) فمثلاً ، ذلك النصح الذي أعطاه حكيم : « كن خاشعاً ، خاشعاً جيداً ، إذ إن مصير الإنسان ، هو طعام للدود
Pirké avoth 4. 4, in *Les maximes des Pères*, édition Colbo, Paris 1995, p.45.

(١٠) Martin Buber, *La légende du Baal-Shem*, éditions du Rocher, Monaco 1993, p.39.

مدح الحياء

أدرك آدم وحواء أنهما كانا عريانين بعد أن أكلا من الثمرة . إن أول رد فعل لهما كان صنع ملابس لأنفسهما . إذا كان العُري هو علامة الملكوت ، فنحن نعيش على تلك الأرض ، ونرتدي ملابس .

قد يكون الملبس علامة تباه تسبب النظر أو الاشتهاء : بيع يوسف لأن إخوته كانوا يغارون من قميصه الملون[١١] . لكنه قد يكون أيضاً نتيجة البحث عن الجمال ، هذا هو ما يبدو من فكر « مونتاني Montaigne » عندما كتب في نبذاته : « عندما أتخيل الإنسان عرياناً تماماً ، فالأعضاء الجنسية تظهر وكأنها تحظى بالجزء الأكبر من الجمال . . وهنا أجد أنه كان هناك أكثر من سبب أن لا يعطينا الله جلد أي حيوان » .

في العديد من الحضارات يكون الملبس علامة وقار وكرامة ، خلع يسوع ملابسه ليغسل أقدام تلاميذه في علامة للخشوع ، ولكننا نعرّي المصلوبين حتى نذلهم ونحقّرهم . علق أحد آباء الكنيسة من القرن الثاني في حفل أُقيم تعبيراً عن خجل السماء من جمهور الصليب : « أي لم نسمع عن مثل هذا القتل وهذا الظلم الذي حاق بالمصلوب ! عُيِّر السيد في مظهره ، وُضع الجسم عارٍ ، إنه حتى لم يحاكم بثياب لائقة حتى لا يُرى . فلهذا استدارت المصابيح ، ومعها النهار اظلّم ليخبيء الذي تعرّى على الخشب ، لإظلام –لا جسد السيد– بل أعين هؤلاء الرجال .

ويحكي مقطع من الكتاب المقدس أن بلعام ، المنجِّم ، قد دعاه بالاق ملك موآب ، ليلعن إسرائيل عندما كانت موجودة في الصحراء . فصعد المنجِّم فوق الجبل حيث يستطيع رؤية معسكر العبرانيين ، وبدلاً من لعن إسرائيل ، بارك الشعب وقال : « ما أحسن خيامك يا يعقوب مساكنك يا إسرائيل »[١٢] . وتساءل المدراش عن الأسباب التي من أجلها بارك بلعام إسرائيل ، بدلاً من لعنها . وهو أنه لاحظ أن معسكر إسرائيل كان مرتباً بطريقة ما بحيث أن فتحات الخيام لم تكن مواجهة لبعض . ذلك الوضع يحفظ خصوصية كل أسرة[١٣] . بارك بلعام إسرائيل لأنه يرى شعب يضمن حفظ كرامة وتماسك كل واحد من أبنائه .

---

(١١) تكوين (٣٧ : ٣–٤) .
(١٢) عدد (٢٤ : ٥) .
(١٣) Claude Vigée et Victor Malka, ***Treize inconnus de la Bible***, Albin Michel 1996, p. 98.

١٣

التاريخ.... عند شرقي عدن

علينا في بعض الأحيان الوصول إلى عمق التعاسة لمعرفة الحقيقة، مثلما علينا النزول لعمق بئر لكي ما نتأمل النجوم

(ڤاكالف هاڤل Vacalv Havel)

١٤- فقال الرب الإله للحية لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية. على بطنك تسعين وتراباً تأكلين كل أيام حياتك. ١٥- وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه. ١٦- وقال للمرأة تكثيراً أكثّر أتعاب حبلك. بالوجع تلدين أولاداً. وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك. ١٧- وقال لآدم لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً لا تأكل منها ملعونة الأرض بسببك. وبالتعب تأكل منها كل أيام حياتك. ١٨- وشوكاً وحسكاً تنبت لك وتأكل عشب الحقل. ١٩- بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أخذْت منها. لأنك تراب وإلى التراب تعود. ٢٠- ودعا آدم اسم امرأته حواء لأنها أم كل حي. ٢١- وصنع الرب الإله لآدم وامرأته أقمصة من جلد وألبسهما. ٢٢- وقال الرب الإله هوذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر. والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد. ٢٣- فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها. ٢٤- فطرد الإنسان وأقام عند شرقي جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة (تك ٣: ١٤-٢٤).

ليلعن الله كل عارٍ . إن هذا لن يضايق سوى محبي الحية . في المقابل ، من هو هذا الله القاسي الذي يثأر من الإنسان بجعل الولادة أليمة وخطرة ، وبالسماح للرجل أن يسود امرأته ، ويجعل عمله متعب وخشن ؟

إنه باتخاذ بعض الخطوات للخلف والأخذ بمجموع الأصحاح ، نستطيع الإجابة على تلك الأسئلة . قبل أكل الثمرة ، كان كلا من آدم وحواء يعيشان في جنة الله . وفي نهاية الأصحاح ، يتركان عدن ليدخلا عالماً كما نعرفه اليوم ، عالماً مميزاً بالخطر والغموض . والكلمات التي أعطاها الله للحية ، وللمرأة وللرجل تماثل ثلاثة تحديات والتي يجب على الإنسانية معرفتها حتى تنمو .

الحية: مواجهة مع الألم

يبدأ الله بلعن الحية : على بطنك تسعين وتراباً تأكلين كل أيام حياتك . . . هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه ومن المؤكد أن الحية هي الحيوان الذي يتميز برمزية غنية . فهي قد تكون رمز التوازن والشفاء كما في مثل الحية النحاسية التي رفعها موسى لكي ينظر إليها الشعب فينجو من سم الأفاعي[١] . لكن في هذا الأصحاح في التكوين ، صورة الحية سلبية . إنها هي التي طعنت في الله ، التي حثّت والتي كذبت : « أحقاً قال الله . . . لن تموتا ، بل الله عالم أنه يوم تأكلان منها . . . وتكونان كالله . . . . » ، إنها رمز التهكم والنميمة ، الكذب والإغواء . إنها النمّام الذي يصنع الألم بتجميل الشر .

ونقرأ في التلمود ، أنه في العالم القادم ، ستجتمع الحيوانات المفترسة حول الحية ويقولون لها : « يأكل الأسد الفريسة التي افترسها ، ويأكل الذئب تلك التي قطّعها . . . وأنت ، لماذا تعضّين ؟ ما الفائدة التي تحصلين عليها من ضحيتك » ؟ وستجيب الحية : « اذهبوا واسألوا ذلك الإنسان المغتر ، الذي له لسان سيىء ولا يأخذ أي استفادة » .[٢] الحيوانات آكلة اللحم تمارس العنف لتعيش ، ولكن النمّام مثل الحية لا يفعل شيئاً للبشر إلا التدمير ، إلا الخروج من جنة عدن ، يدخل الإنسان التاريخ ويقابل الشر . دون إرادته يسكن الخير والشر أمامه وفيه . في الجنة ، كان الشر مقدّماً رمزياً في الثمرة . لقد كان خارج الإنسان الذي كان يستطيع بحكمة الوقوف في وجهه . والآن بعد أن أكل الإنسان الثمرة ، أصبح الشر داخله (فيه) . صنْع الخير أو الشر هو أكثر من مسألة اختبار ، إنه صراع .

ستلدغ الحية نسل المرأة في عقبه ، ولكن هذا الأخير سيسحق رأسها . بين الحية والإنسان ، صراع ليس متماثلاً ، فالإنسان عنده وسائل سحق الشر ، بينما هي لا تستطيع سحقه إلا عند عقبه . لعنة الحية هي أساساً كلمة موجهة للإنسان : « ستكون في مواجهة الشر . وعليك ألا تتركها تغلبك ، بل أن تسحق رأسها » . ويقول آباء الصحراء إن هناك خطية مثل الحية التي تسعى للدخول في غرفة ، فعند حدود عدم دخول سوى رأسها ، فمن السهل سحقها ، ولكن عندما تدخل كاملة في الغرفة ، لا نستطيع أن نغلبها إلا بعد صراع رهيب .

---

(١) في العهد الجديد ، الحية هي صورة للمسيح (يوحنا ٣ : ١٤) .

(٢) Elie Munk, *La voix de la Thora, La Genèse*, fondation Samuel et Odette Lévy, Paris 1992, p. 40.

الدخول إلى العالم يعني المواجهة مع قدرة الشر . يصبح تاريخ الإنسانية تاريخ فتوحات وهزائم في ذلك الصراع .

أما بالنسبة للحية ، فمحكوم عليها أن تأكل التراب . عندما يدخل في فمها ، يتحول إلى طين ، طين النميمة ، الشر ، الشكوى الاتهام . واكتشف بعض المفسرين أن يكون التراب طعاماً فإن ذلك ليس حقاً لعنة . . . حيث أنه متواجد في كل مكان وبوفرة . يجيب المدراش ، هذا صحيح ، ولكن هذا لأن الله أراد طرد الحية من علاقاتها به . وأضاف أحد الحسيدين : « قال الله للإنسان : « ستأكل خبزك بعرق وجهك » ، وعندما ينقصه الضروري ، فليصلِّ إلى الله ويدعوه لنجدته . وقال الله للمرأة : « ستلدين بالوجع » وعند ما تحين الساعة التي لن تتحملي فيها أكثر من ذلك ، لتصلِّي إلى الله ليعبر بها . يظل هذا وذاك مرتبطين بالله . ولكن للحية ، أعطاها الله كل احتياجاتها ، حتى لا تطلب منه شيئاً ولا تقدم له أي صلاة . هذا هو أيضاً ما يفعله الله مع الأشرار أحياناً ، أن يملأهم من خيرات هذا العالم »[٣] .

المرأة: بحث عن الزوج

بالاختلاف عن الحية ، لا المرأة ولا الرجل ملعونان . يصف الله لهما حالة الحياة في العالم ، الرجل في مواجهة تعب العمل « بعرق وجهك تأكل خبزاً » وعلى المرأة أن تواجه المخاطر في الولادة « بالوجع تلدين أولاداً » الرضوخ الزوجي « إلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك » . يعطينا هذا المقطع الفرصة للرجوع إلى سؤال العلاقة (رجل/إمرأة) في الكتاب المقدس ، وقول بعض الكلمات لتفسير كارهي النساء في تلك الآيات .

في العهد الجديد ، الموقف الإنجيلي ممثَّل ببولس في الرسالة لأهل غلاطية . لأن نعمة الله تقلب نظام العالم ، عند الله لا يوجد لا يهودي ولا يوناني ، لا عبد ولا حر ، لا رجل ولا امرأة[٤] . في الرسالة إلى تيموثاوس كان هذا الحديث الكلاسيكي : « ولكن لست آذن للمرأة أن تعلِّم ولا تتسلط على الرجل بل تكون في سكوت . لأن آدم جُبل أولاً ثم حواء . وآدم لم يغو لكن المرأة أغويت فحصلت في التعدي »[٥] . ويضيف القديس اغسطينوس رأياً أخرى في قوله آه . إن الرجل وحده على صورة الله كاملاً عن كل الكون ، جسد وروح ، بينما المرأة ليست كذلك إلا بروحها حيث إن أنوثتها عقبة أمام العقل (عكس المفروض ؟) . وبعد ثمانية قرون ، لم يتغير الكلام عند توما الأكويني ، الذي أخذ مرة أخرى نظرية أن المرأة خُلقت غير كاملة تماماً ، بعكس الرجل إذ أنها خُلقت من ضلع هذا الأخير .

تلك التحليلات قد بحثت عن إثبات لها في الكتاب المقدس ، أو الطبيعة ، والتي لم تكن إلا موقف ثقافي لعصر ما . واليوم ، إذا لم يدافع أحد رسمياً عن تلك النظريات ، فلن يكون من المؤكد أن تتخلَّص الكنيسة كلياً من نتائج تلك الفكرة « اللاهوتية » ، ويكفي ملاحظة مكانة النساء والرجال في الرعويات الكنسية .

(٣) Martin Buber, ***Les récits hassidique***, Editions du Rocher, Monaco 1978, p. 658 - 659.

(٤) الرسالة إلى أهل (غلاطية ٣ : ٢٨) .

(٥) الرسالة الأولى إلى تيموثاوس (٢ : ١٢ – ١٤) .

والمثير للدهشة ، أن النص الذي نقرأه يقول العكس تماماً عن التحليل الذي ساد في تاريخ علم اللاهوت . سيادة الرجل على المرأة ليست وصية من الله ، بل إنها نتيجة دخول الإنسانية في عالم محكوم بعوامل القوة والمقدرة . النداء والدعوة للإنسان في التاريخ هي مصارعة تلك العوامل الخاصة بالقوة والسيادة ، لتأسيس علاقات مبنية على التكامل ، التعاون مثلما كان الحال في الجنَّة .

في خلْق الله ، كان الرجل والمرأة في حالة تكامل وجهاً لوجه وجانب لجانب ، وكسر التناغم بين الأجناس هو نتيجة لبحث الإنسان الذي يريد أن يكون الله . تدعو رسالة النص الإنسانية لتُبدع في العلاقات المتناغمة للجنَّة ، ضد عواقب السقوط ، لا يأمر ذلك النص النساء بأن يخضعن لأزواجهن ، كذلك لا يقول إن أوجاع الولادة هي منفعة ، أو إن تعب العمل هو ضرورة ، إنه يدعو لتجاوز حالة الطبيعة لاكتشاف علاقات زوجية مبنية على التكامل ، كما يدعو لمصارعة آلام الولادة ، يبوسة الطبيعة ، وجفاف العمل .

مثلما قرأنا الكلمات التي قيلت للحية ، والتي كانت وعظاً لمحاربة الشر ، فنحن نفهم الكلمات الموجهة للمرأة بأنها دعوة لإنشاء علاقات زوجية مبنية على المشاركة والاحترام .

الرجل: اكتشاف العَرَق

بعد التكلم عن الحية والمرأة ، كلَّم الله الرجل : « ملعونة الأرض بسببك . وبالتعب تأكل منها . . . وشوكاً وحسكاً تنبت لك . . . بعرق وجهك تأكل خبزاً » ، والرجل في مواجهة يبوسة الأرض وتعب العمل . العمل ليس لعنة في حد ذاته ، حيث إن في الخلْق كان للإنسان دعوة بحفظ وزراعة الجنة . ترتكز اللعنة في فعل أن الأرض أصبحت شحيحة في عطائها وأن العمل شاق : « إنه بعرق وجهك . . . » وبدءاً من تكوين٣ ، يتفتت الخزف بين أيدي النحات (الخزاف) ويقاوم الحديد على سندان الحداد ، وتظل الصفحة بيضاء تحت قلم الشاعر ، والرعية تملّ تحت نقص إلهام الواعظ .

يحكي المدراش أنه عندما قال الله : ستنبت لك شوكاً وحسكاً ، أجابه آدم والدموع تملأ عينيه : « يا سيد الكون ، أمحكوم عليَّ بمشاركة الغذاء مع الحمير ؟ » ، ولكن عندما أضاف الله : ستأكل خبزك بعرق وجهك . هدأ الرجل حيث إنه عرف أنه بعمله ، يستطيع أن يرتقي فوق المستوى الحيواني »[٦] . أكيد أن الرجل يعرق ، إذ إن ليس هناك شيء سهل في هذا العالم ، ولكن بعرقه ، يستطيع تحويل العلّيق إلى خبز . بزراعة الأرض يصل إلى التحضُّر ، بالعبور من التغذية إلى فن الطهو ، من المأوى إلى المسكن ، من التزاوج إلى تضافر الرغبات . بعرق وجهه ، يستطيع الفاعل « العامل » أن يصبح مالكاً ، والمؤلف كاتباً ، والنحات فناناً .

في اللغة الكتابية ، نجد التفرقة بين كلمتين ، العمل malakha (رسالة ، مهمَّة) والعمل avoda (عبودية ، عبد) . وهما كلمتان تشرحان غموض العمل الإنساني ، والذي يستطيع أن يكون مصدر انشراح وكرامة إنسانية ،

(٦) Josy Eisenberg et Armand Abécassis, ***A Bible ouverte II,*** Albin Michel 1991, Collection Spiritualités vivantes 101, p. 341.

أو فاعل للعبودية والتشغيل .

الدخول في التاريخ

الخروج من عدن يماثل الدخول في العالم ، فهو يسمح لبدء تاريخ الإنسانية . منذ خروج الإنسان من الجنة كان يجب عليه المصارعة من أجل الخير ضد الشر ، من أجل إنشاء العلاقات الزوجية المتكاملة ، وليجد طعامه على أرض يابسة . تسجل دعوة الإنسانية في افتتاح التاريخ والذي جعلها تدريجياً تمر من حالة الطبيعة إلى حالة التحضر .

وفي اللحظة التي دخل فيها الزوج في التاريخ ، ذكر الكتاب المقدس ثلاثة تفاصيل : دُعيت المرأة حواء ، صنع الله لهما أقمصة من جلد ووضع الكروبيم عند مدخل الجنة ليمنع الوصول لشجرة الحياة .

تماسك الرجل والمرأة بالأذرع : « دعا آدم اسم امرأته حواء ، لأنها أم كل حي » لقد كانا يستطيعان تمزيق كل شيء بإلقاء مسئولية الخطأ بالتبادل ، إنهما سوياً واجها الحياة . وكما قال Elie Wiesel : « وإذ طُردا من الجنة لم يستسلم آدم وحواء . بمواجهة الموت ، قررا مصارعته بإعطاء الحياة ، بعد السقوط . ظلا يعملان ، وينتجان للمستقبل ويطبعان له وجهاً إنسانياً .سيموت أطفالهما وماذا بعد ! تحمل لحظة الحياة ، هي لحظة حياة تساوي الأبدية[٧] . دُعيت المرأة حواء أي الإنسانية الحية في الوقت الذي أصبحت فانية ، ولا يصبح الإنسان حياً بالفعل ببحثه عن عدم الموت ، ولكن في اليوم الذي يواجه فيه الموت وفنائه ومحدوديته .

ويحكي المدراش أن الملائكة أعلنت إدانة الزوج الإنساني الأول : « ألم تقل أن يوم أن يأكلا الثمرة الممنوعة ، يستوجبان الموت ؟ فأجاب الله : لم أحدد إذا كان ذلك يعني يوماً إنسانياً أو واحداً من أيامي ، إذ بالنسبة لي ، يوم مثل ألف عام » وفعلاً عاش آدم ٩٣٠ سنة .

لم يترك الله الزوج الإنساني في حياته الجديدة ، لن يكونا وحدهما في صراعاتهما : « وصنع الرب الإله لآدم وامرأته أقمصة من جلْد وألبسهما » .

قبل أن يصنع الله تلك البدلتين الجديدتين لآدم وحواء ، لم يكونا يلبسان سوى أوراق التين . وجد الله أن ذلك كان أخف قليلاً لمواجهة أخطار العالم ، وعندها صنع لهما قميصين من الجلْد ليحميهما . وقد رأينا أن الملبس كان علامة لعصيان الزوج الإنساني الأول ، وبإلباسهما القميصين ، استقبل الله موقفهما الجديد . ترك الرجل والمرأة عصر البراءة المميز بالعري ، للدخول في صراع التاريخ المميز باحتياج الاحتماء . كلمة (جلْد) بالعبرية قريبة من كلمة (نور) فقال مفسرون أن الله ألبس آدم وحواء بالنور ليدل على مباركتهما في تاريخهما . وكالعادة شهقت الملائكة من ذلك الامتياز المعطى للبشر ، وأجاب الله : « الآن وهم معرَّضون للخير والشر ، فإنهما أعلى منكما في كل مرة يتغلبان فيها على الشر ، لأنكم لا تعرفون الشر » .

(٧) Elie Wiesel, ***Célébration biblique***, Seuil Point Sagesse 42, p.35.

ويضيف الربييون أن تلك الآية تُعلّم أيضاً أهمية خياطة ملابس للمحتاجين ، لأن الخجل الذي يعانون منه عند ارتدائهم للخِرق هو دائماً أعمق من الموت نفسه . ليس هناك أعظم من نظرة الإنسان لعزّة نفسه(٨) .

عند شرقي عدن ، وضع الله الكاروبيم محمَّلين بسيوف ملتهبة لتمنع الوصول للجنة . إنه لا ينتظر الإنسانية في العودة إلى الماضي ، بل في إنشاء عالم جديد . والتاريخ دائماً يتكون مع قدوم الزمن ، ولا يستطيع أن ينسحب منه . عندما يتكلم الكتاب المقدس عن تصالح الطفل والحية(٩) ، ولادة دون ألم(١٠) ، وأرض كريمة(١١) ، فهو يصنع ذلك في تصور مسيحي ؛ التصالح في مجيء المسيح ، وليس في الحنين لجنّة مفقودة .

(٨) D'après Rabbi Yaacov Couli, ***Meam Loez, Genèse Tome 1***, Moznaim Publishing, Jérusalem 1992, p.227.

(٩) « ويلعب الرضيع على سرب الصل ويمد الفطيم يده على حجر الأفعوان » (إشعياء ١١ : ٨) .

(١٠) « قبل أن يأخذها الطلق ولدت . قبل أن يأتي عليها المخاض ولدت ذكراً » (إشعياء ٦٦ : ٧) .

(١١) « وعلى النهر ينبت على شاطئه من هنا ومن هناك كل شجر للأكل لا يذبل ورقه ولا ينقطع ثمره . كل شهر يبكّر لأن مياهه خارجة من المقدس ويكون ثمره للأكل وورقه للدواء » (حزقيال ٤٧ : ١٢) .

هبة الدموع

حسب تقليد ربيني ، بعد ترك الجنة ، ذهب آدم ليعلن التوبة والندم في نهر جيحون . غطى نفسه في الماء حتى رقبته وظل كذلك سبعة أسابيع . فأصبح ضعيفاً ونحيلاً ، واستدار نحو الله قائلاً له : بنعمتك سيدي ، أخطأت أمامك ، ارفع خطيتي واقبل توبتي ! ! ومنذ الآن سيعرف جميع البشر أنك قريب من الذين يدعونك » .

وعندما رأى الرب الله كيف ندم آدم وحواء على خطيتهما ، أشفق عليهما ولم يتركهما ، فدعاهما وقال لهما : « أنا أعرف أن أياماً قاسية ستأتي عليكما ، أيام ضيق وتجارب والتي تنكسر فيها روحكما . ولكن اعلما أني أحبكما ولهذا سأخرج من كنزي لؤلؤة ، وها هي : « إنها دمعة ! فعندما تصادفان كارثة ، اسكبا تلك الدمعة من أعينكما ، وتخفّفا من أحزانكما . منذ ذلك اليوم ، في كل مرة يقابل الإنسان ضيقاً وكرباً ، يسكب دمعة فيتخفف حمله ويشفي قلبه[١٢] .

اعتبر آباء الكنيسة أن الدموع هي هبة من عند الله ، إنها علامة لقسوة حياتنا ، ولكن الليونة ليس ضعفاً ، إنها جمال الإنسانية . ويقول (شارلز ديكنز) : « يعرف الله أنه يجب علينا أن لا نخجل من دموعنا إذ إنها مثل المطر على تراب الأرض الذي يغطي كل شيء » .

---

(١٢) D'après Marie Vidal, *Un Juif nommé Jésus*, Albin Michel 1996, p.69.

قال الله: ذلك حسن جداً !

في تقليد الربيين ، كان السقوط في آخر اليوم السادس من الخلق . وحدث هذا الأخير بالطريقة التالية . في الساعة الأولى ، أدرك الله فكرة خلق الإنسان . في الساعة الثانية ، طلب نصيحة الملائكة ، في الثالثة جمع الصلصال ، في الساعة الرابعة كوَّن آدم ، في الخامسة ، ألبسه بالجلد ، في الساعة السادسة ، أوقفه أمامه . في السابعة نفخ فيه بروح الحياة . في الساعة الثامنة ، وضع آدم في الجنة . في التاسعة ، حصل على وصية الله . في الساعة العاشرة ، عصى . في الحادية عشر ، حوكم . في الساعة الثانية عشر ، طُرد من الجنة[١٣] .

ومع ذلك ، في نهاية اليوم السادس ، حدد النص : ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جداً » . حسب التقليد أعلن الله الحُسن العظيم في عمله بعد أن أخرج الرجل والمرأة من الجنة .

لماذا يُعد الخروج من الجنة في تعداد الحَسن جداً؟ ومن هنا تأتي عدة نظريات .

– إذا لم يأكل الإنسان من الثمرة ، فكان سيظل جالساً طوال الأبدية ليقول « ليس عليّ سوى أن آكل من ثمرة الشجرة ، ولأكون مثل الله » [١٤] .

– والآن مواجهاً الاختيار ، يستطيع أن يصبح أعلى من الملائكة بسيادة الشر (السيطرة عليه) . [١٥] .

– بعد أن أخطأ ، فللإنسان الإمكانية للعودة إلى الله ، حيث إنه بالتوبة يبقى العالم قائماً .

بطريقة أكثر بساطة يتساءل المدراش فيما إذا كانت الرغبة أو حتى الاشتهاء يقوم على الحسن جداً . فيجيب : بدون تلك الرغبة ، لما استطاع أحد بناء بيت ، التزوُّج من امرأة ، ولادة الأطفال أو إدارة الأعمال الإنسانية[١٦] . نستطيع أن نفهم بكل بساطة أن الفناء ، الغموض وتناقضات حياتنا تعتبر من الحسن جداً . كما كتب André Neher : « كمال الرجل ، هو أن يكون قابلاً للكمال » .

(١٣) D'après Louis Ginzberg, *Les légendes des Juifs*, Cerf collection Patrimoines:Judaïsme 1997, p.63.

(١٤) Martin Buber, ouvrage cité, p.336.

(١٥) Louis Ginzgerg, ouvrage cité, p.153.

(١٦) ***Midrash Rabba, Tome 1 Genèse Rabba 9.7***, Verdier 1987, p.120.

١٤

الإنسان في مواجهة الاختلاف

مسئوليتي بالنسبة للآخر تأتي قبل كل اختيار،

وهذا يعني أن هذا الآخر يخصني وأنا ملزم به

(لفيناس Lévinas)

١- وعرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قايين. وقالت أقتنيت رجلاً من الرب. ٢- ثم عادت فولدت أخاه هابيل. وكان هابيل راعياً للغنم وكان قايين عاملاً في الأرض. ٣- وحدث من بعد أيام أن قايين قدم من أثمار الأرض قرباناً للرب. ٤- وقدم هابيل أيضاً من أبكار غنمه ومن سمانها. فنظر الرب إلى هابيل وقربانه. ٥- ولكن إلى قايين وقربانه لم ينظر. فأغتاظ قايين جداً وسقط وجهه. ٦- فقال الرب لقايين لماذا اغتظت ولماذا سقط وجهك. ٧- إن أحسنت أفلا رفع. وإن لم تحسن فعند الباب خطية رابضة وإليك اشتياقها وأنت تسود عليها. ٨- وكلّم قايين هابيل أخاه وحدث إذ كانا في الحقل أن قايين قام على هابيل أخيه وقتله. (تك ٤: ١-٨).

عند شرقي عدن ، دخل الرجل والمرأة في التاريخ . نحن نعلم أن هذا جميل ، ولكننا نكتشف أيضاً أنه قاس .

وضع الأصحاح الأول من التكوين الزوج الإنساني في قمة خلْق الله . وتكلم الأصحاح الثاني عن وحدة الإنسان -جنباً إلى جنب- الرجل والمرأة . وسجل الأصحاح الثالث الإنسانية في تضادها لله . والرابع ، فيه يدخل الإنسان في اجتماع ويجد نفسه في مواجهة القريب في اختلافه . المقابلة الأولى تُفتَح على العنف . . . القتل .

تكوّن تلك الأصحاحات الأربعة مجموعة تضع الإنسان في الخلْق ، والتي تُعرِّف الإنسان بالشخص في علاقته مع الجنس الآخر ، الله ، والأخ .

عائلة عادية جداً!

ولكن نرجع إلى نصنا . طُرد الرجل والمرأة من الجنة . الآن هما إلى الفناء ، فأول شيء يصنعاه هو الإنجاب فماذا يمكن أن يكون أكثر طبيعية من ذلك ؟ .

دخولاً في التاريخ ، يعرف الرجل امرأته بالمعنى الكتابي للمصطلح ، فتحبل وتضع للعالم ولداً تسميه قايين . وعند ذلك تهتف : « اقتنيت رجلاً من عند الرب » . يضع تكوين الجملة أسئلة أكثر للمفسرين عن أمهات العائلات . مثل الكثير من النساء ، فحواء حساسة للطابع السري والمقدس للولادة . فهي تعلم أن ابنها أكثر من لقاء نوعين جنسيين ، وقالتها بكلماتها . الفعل المترجم (أقتني) يعني أيضاً (أنتج) ، والذي له نفس أصل قايين . كانت حواء وحيدة في الخلْق ، كل شيء يخصها ولكنها لم تخلْق شيئاً . وبميلاد ابنها ، فهمت حقيقة أنها صنعت عملاً . . . بمساعدة الله ، والآن ، وهما مسئولان عن أيامهما التالية ، يعرف الرجل والمرأة أن عليهما إنشاء (تأسيس) تاريخ . الطفل الذي تضعه للعالم يمثل مستقبل الإنسانية . بعد قايين ، ولدت حواء ولداً آخر وأسمته هابيل . وبالنسبة لتلك الولادة الثانية ، لم تقل شيئاً عن اشتراك الله . كما لو كانت قد اعتادت على معجزة الولادة !

الاسم (هابيل) قريب من كلمة (زهو) . وهو يأتي بما هو زائل . وبالفعل ، سيكون زائلاً ولن يترك أي وريث . كما لو كان مستقبله مكتوب في اسمه !

إن قايين وهابيل أخوان ، ولكن دائماً الإخوة في الكتاب المقدس تربطهم علاقات نزاعية . إسحق وإسماعيل ، يعقوب وعيسو ، يوسف وإخوته ، لم يكن لهم علاقات بينية ، في بعض الأحيان تشعر بأن التاريخ يعيد نفسه ! إذا كان الأهل يتعجبون في أيامنا هذه من أن أطفالهم يتشاجرون فهم يستطيعون الرجوع إلى آدم وحواء ، إبراهيم وسارة ، إسحق ورفقة ، ويعقوب وليئة ، كان عندهم نفس القلق مثلهم ! نحن في مواجهة عائلة طبيعية : أب وأم وولدان يتشاجران .

إن أول خطوات التحضر تتضح في عاملين : تقسيم العمل والانبثاق الديني : كان قايين مزارعاً وهابيل راعي غنم . وكما كان أهلهما يكلمونهما عن الله عندما كانا صغاراً ، فأعطيا قرابين كل واحد يأتي بما ينتجه ، قدم قايين قرباناً نباتياً ، وضحى هابيل بأول مولود من أغنامه .

قرابين مختلفة

وهكذا وقع حدث مهم يجعل المفسرين يتساءلون بعمق : استقبل الله قربان هابيل ، بينما رفض

القربان الخاص بقايين . لماذا ؟ من بين كل التحليلات التي أُعطيت ها هي ثلاثة منها :

• تهتم المجموعة الأولى بشرح طبيعة القرابين : كانت تقدمة قايين نباتية ، بينما تقدمة هابيل كانت حيوانية . يقول الربّي « راشي » لأن الأرض ملعونة فقد ترك هابيل الزراعة ليهتم بالرعي .[1] لم تكن تقدمته مميزة باللعنة الإلهية . نستطيع فهم الاختلاف بين الأخوين عن طريق الإثنولوجي (علم أصول السلالات البشرية ومميزاتها) . دلت دراسات عن نظام التضحية أنه إذا كانت التقدمة مقدمة للإله ، فهي أيضاً وسيلة لإفراغ العنف الداخلي الذي هو في داخل الشخص . بقتل حيوان ، يفرّغ الإنسان العنف والحيوانية الموجودة فيه ، والذي كان موجهاً قبلاً نحو القريب[2] . ومن ذلك الشرح ، نفهم أن هابيل استطاع إفراغ غضبه في ضحية دموية ، بينما قايين ظل بعنفه الداخلي .

• يرتكز تحليل ثان على اختلاف النية الداخلية للأخوين . لم يتوقف العهد الجديد بكامله عن تكرار أن ليس هناك فائدة من تقديم القرابين إذا لم تكن تعبيراً عن قلب صادق . فالتقدمة بذلك الشكل لا تفيد شيئاً ، بل قد تكون علامة عبودية . يقول النص إن :« قايين قدّم من أثمار الأرض قرباناً » لقد أحضر من كل مكان ، القليل ، دون أن يفرق بين ما هو جيد للتقديم . يقول المدراش : « إنه أحضر الحثالة وآخر الثمار »[3] . أما هابيل فبالعكس ، ضحى بأبكار غنمه ، الجزء الأفضل . عندما يحضر العبرانيون تقدماتهم للمذبح ، فعليهم تقديم أبكار الغلة والقطيع . ليس لأن الأبكار لها قيمة أعلى حسب السوق ، بل لأنها رمزياً ، علامة الأهمية التي نعطيها لتلك التقدمة . بذلك يكون هابيل رجل التمييز والاختيار ، بينما قايين مقدم الإنتاج السيىء .

« وقدم هابيل أيضاً من أبكار غنمه » يتساءل المفسر عن كلمة (أيضاً) التي هي غير ضرورية في الجملة فأجاب بأن هابيل قدم قلبه قرباناً إلى الله[4] . و(أيضاً) أبكار غنمهُ . نستطيع إذاً القول : « تقدم هابيل أمام الله ، وأحضر معه أبكار غنمه » المهم عند الله ليس الحركة الفعلية ، ولا قيمة السوق للقربان . إنها نية قلب الإنسان ، لقد أعطى نظرة قبول لقربان هابيل ، وليس لتلك التي لقايين .

• يبرز الشرح الثالث تفضيل الله للرعاة والرعي . إن نزاعهم يوضح التنافس القديم بين المزارعين والرحالة البدو . في النص المكتوب اختار الله دائماً الرعاة ليحملوا كلمته ، إبراهيم وإسحق ويعقوب وموسى وداود كانوا كلهم رعاة غنم . فبطريقة حياتهم ، يجب على الرحالة أن يخففوا على أنفسهم ، فهم عندهم قابلية أكثر من الآخرين في أن يسمعوا همس الهواء ويتأملوا ما تحكيه النجوم . يحب الله حضور الإنسان في المسير . كان هابيل راعي غنم ، وكان أيضاً الأخ الأصغر . بين الإخوة . يفضل الله دائماً الأصغر : يعقوب ، يوسف ، داود كانوا

---

(١) Rachi de Troyes, ***Commentaire du Pentateuque, la Genèse,*** fondation Samuel et Odette Lévy, Paris 1993, p.25.

(٢) René Girard, ***La violence et le sacré***, Grasset 1972, p.13 - 101.

(٣) ***Midrash Rabba, Tome 1 Genèse Rabba 22.5***, Verdier 1987, p.248.

(٤) أخذ ذلك الموقف مرة أخرى في العهد الجديد عن طريق كاتب الرسالة للعبرانيين : « بالإيمان قدم هابيل لله ذبيحة أفضل من قايين » (١١ : ٤) .

مفضلين عن الأكبر منهم من إخوتهم . أكان ذلك بسبب حرفتهم للرعي أو مرحلتهم السنية ، كان هابيل مفضلاً عن قايين ، لذلك سيموت !

لقد أثرنا ثلاثة شروحات لتوضيح تفضيل الله للذبيحة الحيوانية وليس النباتية ، تقدمة الأبكار وليس أي جزء منها ، ميله للرعاة والأصغر . كل واحد من تلك التحليلات يخفي جزءاً من الحقيقة في مجاله الخاص . إن فهم النص الكتابي زاخر بالمستويات المختلفة من القراءات .

أمام ذلك الاختيار ، كان هناك رجل غاضب جداً ، إنه قايين ونحن نفهمه . وقد أصبح الشخصية الأساسية في النص الذي في جزئه الثاني ، يؤتي بسؤال قبول الاختلاف . كيف يمكن تعلُّم العيش دون النظر في طبق الأخ ؟

الإنسان في مواجهة العنف

لا يحتمل قايين الاختلاف في المعاملة بينه وبين هابيل . لقد اغتاظ وسقط وجهه . وأقدم الله على مكالمته مرة أخرى ، لأنه يعلم أن لا الغضب ولا المصارعة ستسمح له أن يتغلب على خيبة أمله . فدعاه لأن يقوِّم من سلوكه : « إن لم تحسن . . . فعند الباب خطية رابضة إليك اشتياقها . وأنت تسود عليها » . والكلمة المستخدمة للإشارة إلى الخطية في تلك الجملة كانت مؤنثة ، بينما المشاركة التي قدمت له كانت بالمذكَّر . حلل الحكماء ذلك الشذوذ[٥] . بالقول إن هذه الآية تتكلم عن العذاب والألم . تتظاهر تلك في البداية بالضعف مثل همس الأنوثة ، أو مثل شبك العنكبوت ، ولكن إذا تركها الإنسان تنمو تصبح قوية وصلبة كزمجرة (زئير) المذكَّر . ويدل بقية النص أن قايين ترك نفسه ليسيطر عليه الشر .

العنف بين الإخوة ظهر من غياب الكلمة . هابيل لا يتكلم ، بل يظل ساكناً ، أما بالنسبة لقايين ، فكلمته كانت عاجزة . . . لنعتبر أنها لم تكن موجودة أبداً في بداية الآية[٦] ، « كلَّم قايين هابيل أخاه » والفعل الذي ترجمناه بـ« كلَّم » يستدعي إضافة غير موجودة بالنص . وفي ترجمته أكد Chouarqui هذا الشذوذ : « قال قايين لهابيل أخيه . . . وكان ذلك عندما كانا في الحقل »[٧] . كما لو كان النص يقول إن قايين كلَّم هابيل ، ولكنه لم يقل شيئاً ! عرَّف الفيلسوف (Eric Weil) أن العنف هو نتيجة الكلمة التي لا تجعل الآخرين يشتركون في لفظها .

بين الإخوة يحتمل وجود بعض الكلمات لمن هو أكبر سناً ، ولكن ليس في شكل مناقشة ، وعلى هذا فالنقص من جهة هابيل أكبر من جهة قايين[٨] . لم يخصّ الربيون هابيل بكل المدح . فالبعض يصرُّون على أنه

---

(٥) في التعليقات الربينية يخفي أقل خطأ في الهجاء معنى يجب علينا اكتشافه .

(٦) Elie Munk, ***La voix de la Thora, La Genèse***, fondation Samuel et Odette Lévy, Paris 1992, p. 51. Voir aussi ***Midrash Rabba, Tome 1***, p. 250.

(٧) لغوياً ، نسمى هذا : قطع في إنشاء الجملة . المشكلة أن أغلب الترجمات تخفيها لتقديم جملة أكثر انسيابية .

(٨) André Neher, ***L'existence juive, Solitude et affrontements***, Seuil 1990, p. 39.

احتفل بعجرفة أمام قايين بعد قبول ذبيحته . وآخرون يقولون إنه كان منشغلاً جداً بالروحانية حتى أنه نسى رؤية أخيه المسجون في غضبه . إذا كان الحديث قد دار بين قايين وهابيل ، لكان من المحتمل أن يكونا قد شرحا لبعضهما البعض ، ولكانا قد اكتشفا أساليب أخرى للعلاقة غير العنف . حتى أنه من الممكن أن يكونا استطاعا تقديم قربانهما بالاشتراك سوياً عن أن يظل كل واحد في جهته .

يقدم الزوج الأول من الإخوة بُعدين للإنسان . قايين ، المتملّك ، هو الذي سيعرف سيادة قوانين الأرض . إنه يمثل الإنسانية العاملة ، التي تسيطر على الطبيعة والتي تنشيء المصانع . وفي المقابل ، فإن هابيل هو الذي يتأثر ، وينفتح على الانتعاش ، على التمييز ، على البحث عن معنى . يتركز مستقبل الإنسانية على تقابل الأخوين .

الإنسان هو ثمرة تراب الأرض ونَفَس الله . استنتج المفسرون أن الذي يعيش وعيناه في الأرض ، ينسى النَفَس الذي فيه ، وكذلك أيضاً بالنسبة للأخ الذي يعيش وعيناه دائماً مرفوعة نحو السماء ، مع نسيان التراب الملتصق في حذائه . كما يلاحظ أن المجتمع الذي يعطي اهتمامه فقط للقيم الروحية ويهمل النواحي الأخرى ، إنما هو في خطر : لو لم يفعل أحد شيئاً سوى تأمل السماء اللامحدودة بدلاً من إصلاح البالوعات ، فكثيرون منا سيموتون بالكوليرا[٩] .

يضع نص قايين وهابيل سؤال « التقابل/ المحادثة » ، وأخيراً حساب التوازي بين بُعدين للإنسانية . كثيراً ما نقضت التحليلات هذا النص في نقطة واحدة فقط وهي العطش للامتلاك الذي يسحق التأمل الروحي .

ولكن المسيحيين المتديّنين والسياسين أثبتوا أنه عندما تنسى الروحانيات والأيديولوجيات تراب الأرض ، تسقط الإنسانية تحت وطأة شكل آخر من الديكتاتورية (الاستبداد) . يجب ألا يأخذ هابيل ثأره ، وينتقم من قايين ، بل أن يجد الأخوان نفسيهما مثل شركاء ، كل واحد منهما في حاجة للآخر .

(٩) Joseph Telushkin, *Le grand livre de la sagesse juive*, Calmann-Lévy 1999, p. 408.

تقابل الإخوة

في اليهودية ، عندما نبارك ولداً نقول له : « ليجعلك مثل أفرايم ومنسى » فلماذا هذان الاثنان ؟ لأنهما لم يكونا يغاران الواحد من الآخر .

أوائل الإخوة الذين نجدهم في الكتاب المقدس هم ، قايين وهابيل ، إسحق وإسماعيل ، يعقوب وعيسو ، وهم يعبرون عن علاقات أخوية قوية . لكن عندما قاد يوسف ولديه لأبيه حتى يباركهما يعقوب ، أخذ منسى على شماله ، أي على يمين يعقوب ، وأفرايم عن يمينه ، فوضع يعقوب يده اليمني على رأس أفرايم الأصغر ، ويده الشمال على رأس منسى . فقاوم يوسف ، لكن أصر يعقوب وقال عن منسى : « هو أيضاً يكون شعباً وهو أيضاً يصير كبيراً . ولكن أخاه الصغير يكون أكبر منه[١٠] فحدثت إذاً معجزة كبيرة : لم يشعر منسى بالغيرة من أخيه . ويستطيع سفر التكوين أن ينهي الآية .

ذات يوم ، اجتمع حكماء ليقرروا ما هو الشيء الأكثر جمالاً في الدنيا ؟ فأجابوا : قلب مستعد ليفرح دائماً لمجد الآخرين .

(١٠) تكوين ٤٨ : ١٩ .

تصالح المتضادات

في اليهودية ، تقول صلاة قاديش[١١] : « أنت صانع السلام في السموات ، اصنع لنا سلاماً على الأرض » ، ماذا يعني السلام في السموات ؟ فأجابوا بالنظر للسماء . كلمة سماء Shamayim بالعبرية هي انقباض الجزئين « esh » نار ، و « Mayim » مياه ، أخذ الله الماء والنار ومزجهما ليصنع السماء التي تحتوي على الشمس والسحب . يتساءل الحكماء عندها : « كيف أن الشمس والسحب ، النار والماء ، استطاعت التواجد في نفس السماء ؟ أما أن يطفيء الماء النار ، وإما تجفف النار الماء ، ولذلك يجب أن تكون تلك معجزة » .

تبقى الإجابة في حكمة العوامل الطبيعية . تقول الشمس : « إذا جفّت السحب ، لن يستطيع العالم الحياة دون مطر » ، وفكرت السحب : « إذا أطفأنا الشمس فيسلك العالم في الظلام » . قررت الشمس والسحب العمل بسلام ، فقد فهما أنه إذا أحدث واحد منها الغلبة الكلية على الآخر ، فسيهلك العالم . ولإثبات هذا التصالح ، فعند مقابلة الشمس والماء يظهر شكل قوس في السماء والذي نراه أنه علامة اتحاد الله مع الحي . الشالوم (السلام) الكتابي يبقى في تصالح المتضادات[١٢] .

العالم ينشأ من متضادات النار والماء ، الرجل والمرأة ، الجاف والمبتل ، النيىء والمطبوخ ، قايين وهابيل ، الكاثوليك والبروتستانت . . . يجب أن يعلم كل واحد أنه إذا تغلب كلياً ، فلن يعيش العالم المستقبل . ليس ممكناً إلا إذا تعلم كل واحد أن يترك مكاناً للآخر ، حتى إذا كان عدوه . ليت الله يمنح الإنسانية حكمة الشمس والسحب .

---

(١١) تقديس لاسم الله ، يتلوه الحزاني .

(١٢) Harold S. Kushner, ***in Peace Prayers***, Harper San Francisco 1992, p.42- 43.

١٥

قايين وقتل الأخ

لقد تعلمنا الطير مثل الطيور، العوم مثل السمك، ولكننا لم نتعلم فن العيش كإخوة
(مارتن لوثر كينج Martin Luther King)

١- وعرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قايين. وقالت اقتنيت رجلاً من عند الرب. ٢- ثم عادت فولدت أخاه هابيل. وكان هابيل راعياً للغنم وكان قايين عاملاً في الأرض. ٣- وحدث من بعد أيام أن قايين قدم من أثمار الأرض قرباناً للرب. ٤- وقدم هابيل أيضاً من أبكار غنمه ومن سمانها. فنظر الرب إلى هابيل وقربانه. ٥- ولكن إلى قايين وقربانه لم ينظر. فاغتاظ قايين جداً وسقط وجهه. ٦- فقال الرب لقايين لماذا اغتظت ولماذا سقط وجهك. ٧- إن أحسنت أفلا رفع. وإن لم تحسن فعند الباب خطية رابضة وإليك اشتياقها وأنت تسود عليها. ٨- وكلم قايين هابيل أخاه وحدث إذ كانا في الحقل أن قايين قام على هابيل أخاه وقتله. ٩- فقال الرب لقايين أين هابيل أخوك. فقال لا أعلم. أحارس أنا لأخي. ١٠- فقال ماذا فعلت. صوت دم أخيك صارخ إليّ من الأرض. ١١- فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك. ١٢- متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها. تائهاً وهارباً تكون في الأرض. ١٣- فقال قايين للرب ذنبي أعظم من أن يُحتمل. ١٤- إنك قد طردتني اليوم عن وجه الأرض ومن وجهك أختفي وأكون تائهاً وهارباً في الأرض. فيكون كل من وجدني يقتلني. ١٥- فقال له الرب لذلك كل من قتل قايين فسبعة أضعاف يُنتقم منه. وجعل الرب لقايين علامة لكي لا يقتله كل من وجده. ١٦- فخرج قايين من لدن الرب وسكن في أرض نود شرقي عدن. ١٧- وعرف قايين امرأته فحبلت وولدت حنوك. وكان يبني مدينة. فدعا اسم المدينة كاسم ابنه حنوك. (تك ٤: ١-١٧).

يبدأ تاريخ الإنسانية بجريمة بين أخوين ، قصة تعبر عن الغيرة مثلما تعرفها كل العائلات . ماعدا أن تلك تنتهي بالدم ! وبتسجيل تلك الحقبة في الخروج من عدن ، يقول سفر التكوين : إن الحسد والمنافسة هما في صميم السلوك الإنساني ، فالمنافسة ضرورية عندما تسمح للإنسان بالتفوق ، ولكنها تصبح قاتلة عندما تكون الشهوة التي تحركها شديدة الوطأة . وقد طلب الله بإلحاح من قايين أن يسيطر على غضبه ، ولكن قايين لم يعرف أن يتغلب على غيرته ، وقاده فشله لقتل أخيه .

الحسد (الاشتهاء)

لقد قابلنا هذا الشعور في نص السقوط ، عندما رأت حواء الثمرة « جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون ، وشهية للنظر » . وأبرقت الحية بصورة القدرة على كل شيء عندما قالت للمرأة إنها إذا خضعت لشهوتها وإن أكلت الثمرة مع زوجها ، فسيصبحان مثل الآلهة .

مع قايين ، لم توجه الشهوة نحو الألوهية بل للقريب ، وظهرت في شكل غيرة . فسر أحد الربيين تلك الكلمات التي وجهها الله لذلك الذي رُفضت ذبيحته : « لماذا سقط وجهك ؟ ألأنني لم أقبل تقدمتك ، أم لأنني قبلت تقدمة أخيك » .[1] ليس من الصعب التفكير في أنه إذا كانت ذبيحة هابيل تُقبل وكذلك ذبيحة قايين ، فهذا يسعد قايين . . . ولكان قد تصرف بطريقة أفضل .

اعتبرت الشهوة تمثل الخطية النموذجية في التقليد اليهودي . فهي تحتل مكان الاختيار في الوصايا العشر حيث أن آخر الوصايا العشر تقول : « لا تشته بيت قريبك ولا عبده ولا أمَته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما لقريبك » .[2] وضع المفسرون تلك الوصية في موازاة مع الأولى : « أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية » ، والخامسة « أكرم أباك وأمك » ، والسادسة : « لا تقتل » .

– الحسد هو عبودية ترفض التحرير . حيث أن الحاسد يقع تحت تأثير عبودية الشهوة فيما يمتلكه الغير الذي هو عطية الله .

– إكرام الأهل هو اختبار العرفان ، والحسد هو عكس الشكر . أما بالنسبة إلى التوازي بين الشهوة وقتل الأخ ، فهذا ليس له تفسير .

كتب « ألفونس ميلو » في تفسيره للرسالة إلى رومية : « العبودية هي الخطية العليا إذ إنها تبيع (تبعد) الإنسان وتسلمه لحقائق خارجية ، والحسد هو الخطية السفلى التي تدمر الإنسان في داخله »[3] يقود الحسد صاحبه إلى قياس وجود ما يمتلكه ، وعدم تقدير الآخر إلا بممتلكاته ، إنه كبرياء يبحث عن السيادة ، الاحتكار ، والاستبعاد . إنه مرض يعتبر الأخ مثل منافس ، القريب مثل شيء جامد ، والشيء مثل معبود

---

(١)- Martin Buber, *Les récits hassidiques*, Editions du Rocher, Monaco 1978, p.717.

(٢) (خروج ٢٠ : ١٧) .

(٣) Alphonse Maillot, *L'épître aux Romains*, Le Centurion 1984, p. 187.

(وثن) . مثل كل الوثنيين ، فالشهوة تنفتح على درب متعوج له طرق كثيرة يتوه فيها الإنسان . إذا أراد الإنسان أن يصبح كبيراً غنياً وقوياً مثل جاره ، سيجد الإنسان دائماً جاراً أكبر ، أكثر غنى ، وأكثر قوة منه .

يذكر « رينيه جيرار » الحسد ، بأنه يدعو لرغبة التقليد في أساس السلوك الإنساني ، ولكي يمكن وصفه فهو يقترح عمل هذه التجربة التالية : « ضعوا عدداً محدداً من اللعب ، كلها متشابهة في حجرة فارغة ، وبوضع عدد مماثل من الأطفال ، يحدث التالي : هناك احتمال قوي أن يتم التوزيع دون شجار[٤] ، لكن سيصل الأطفال بسرعة كبيرة إلى الجدال ليأخذوا نفس اللعبة ، إذ أن الرغبة لا تأتي من الإعجاب بذلك الشيء ، لكن من الرغبة في ما للآخر . يكفي أن يختار طفل لعبة اختارها طفل آخر حتى تأخذ قيمة أكثر أهمية . خلف امتلاك الشيء بالمعنى الواسع (قد يكون الأرض ، الأداة ، المرأة ، القدرة . . .) توجد إرادة التمركز بالنسبة للقريب ، والذي قد يصبح قدوة أو منافساً في ذات الوقت . وستجد صحة التفسير الذي فيه سأل الله قايين عن سبب ضربته ، ألأنه لم يقبل تقدمته ، أم لأنه قبل ذبيحة أخيه .

هناك مثل في الكتاب المقدس يقول : « حياة الجسد هدوء القلب ، ونخر العظام الحسد » .[٥] إنه يعلن الحقيقة ، نحن نعلم كم أن الحسد (الشهوة) التي تختبيء خلف كلمات الغيرة ، الحقد ، الحسرة ، الغيظ . . . . هو بالحقيقة نخر يأكل ويدمر ، بالرغم من أنه لا فائدة منه على الإطلاق[٦]، ويقول مفسر : إنه يشبه فرداً يمشي في وسط الآخرين مع غلق يديه بطريقة يصعب معها معرفة ما بداخلها . فيثير فضولهم بقوله : « خمنوا ما الذي يوجد في يدي؟ ألا تريدون معرفته؟ » فيذكر كل واحد من المجموعة ما يجول في نفسه ويتمناه هو شخصياً . وعندما ينتهي الاختبار يفتح يديه . . إذ بها خالية[٧] .

وبطريقة عكسية نستطيع أن نستشهد بسقراط الذي كان فيلسوفاً حقيقياً ، فقد كان يفكر بأن كل شخص حكيم عليه أن يتبع حياة متقشفة . لم يلبس سقراط حذاءً ومع ذلك كان يحب الذهاب للسوق ليرى البضاعة المعروضة ، وأجاب سقراط أصحابه الذين سألوه لماذا فقال : « أحب المجيء هنا لاكتشاف عدد الأشياء التي من دونها أنا في مطلق السعادة » . الغني الحقيقي ليس هو من لديه الكثير من المال ، بل الذي يسعد بما هو عليه ، وهو الشاكر لكل ما يمتلكه[٨] .

لم يمتلك قايين حكمة سقراط ، لم يحتمل أن يكون أخوه مختلفاً عنه ، لقد اضطرب بسبب الغيرة والتي لم

---

(٤) *Des Choses cachées depuis la fondation du monde*, Grasset, 1978, p. 17.

(٥) (أمثال ١٤ : ٣٠) .

٦ – هذا المثل يقودنا للسؤال عن طريقة عمل نظامنا الاقتصادي والذي يرتكز على الحسد (الاشتهاء) . يبالغ السياسيون المرشحون في مديح تنمية الاستهلاك دون التساؤل أبداً عن هدف هذا الاستهلاك . يرتكز هذا النظام على الإعلان الذي يريدنا أن نؤمن بأن في استهلاك الشيء المعروض سنشبه وقتها العارضون الذين يقدمون الإعلان . كما قال الفيلسوف Pascal Brucknera « الرهان المجنون للاستهلاك ، هو محاولة تحويل الطمع والشراهة والأنانية إلى نوع من الحضارة . كتابياً نستطيع التصريح أن هذا المسار مخجل ، إذ إنه لا يفعل شيئاً سوى أن نعيش في الوهم .

(٧) Jean Schwarz, *Une règle de vie,* La genèse, editions de ***L'Espérance***, Jérusalem 1993, p. 79.

(٨) وبالعكس يقول كبار الحكماء إن الغني الذي يحسد هو فقير لأن عنده دائماً نقص لما ليس لديه .

يستطع السيطرة عليها . كما لم يستطع السيطرة على الحقد والحسرة اللتين طرقتا بابه ، فقد قام ونفّذ الفعل ، قاده قتل أخيه للتيهان والوحدة ،ولكي يهرب من تلك المتاهة صنع مدينة .

روما وأورشليم

تحكي الميثولوجيا الرومانية قصة أخرى لأخوين عن الغيرة والقتل . أراد توأمان إقامة مدينة فاستشارا الآلهة ، واختار كل واحد منهما تلاً ، وأقام نفسه ملكاً على جماعته . وباقتناع كل واحد منهما بأحقيته لمكانة الآخر ، تواجه الأخوان وسقط واحد تحت قبضة الآخر ، وظل الأخير سيداً . وأنشأ المدينة التي ستحمل اسمه . وكان اسما الأخوين روميس وروميلوس (Remus & Romulus) وكانت المدينة هي روما .

تشبه هذه القصة النص الكتابي ، إنهما نصان مسجلان على أساس حضاري . في الحالتين يستشير الأخوان الآلهة ، يدخلان في منافسة ويتواجهان في صراع مميت حيث الغالب فيه ينشيء مدينة . يعطي Remulus اسمه لروما ، ويعطي قايين اسم ولده حنوك للمدينة الوحيدة التي بناها . يرتكز الاختلاف على طريقة القراءة الحديثة لهذين النصين المتوازيين . أصبح روميلوس ملكاً خرافياً لروما وتألَّه بعد موته . قايين نفسه دُعي من الله الذي سأله السؤال الكبير في كل الكتاب المقدس : « ماذا فعلت لأخيك ؟ » ، أصبح روميلوس ملكاً ، وحكم على قايين بالتجوال ، أخذ روميلوس تدريجياً تمثال الله ، بينما اعتبر قايين كقاتل وقح . روميلوس أُعتبر من القدماء العظماء ، وقايين هو أول القاتلين في تاريخ الإنسانية .

في قصة روما ، تأله روميلوس لأنه غلب ، لقد كان الأكثر قوة ، أقام مدينة حيث كان فيها الملك . في الكتاب المقدس ، كان قايين أيضاً الأكثر قوة ، وأقام مدينة أخرى ، ومع ذلك لم يعتبر سوى قاتل لأخيه . لا يبرر نجاحه في مشروعه الطريقة المستخدمة . النهاية لا تبرر الوسائل . عكس روميلوس ، يأخذ الكتاب المقدس جانب هابيل إذ إنه الأصغر ، الأضعف ، الضحية . بالنسبة لتقديمه أبكار قطيعه ، لم يذكَر شيء عن صفات أو إيمان أو أفعال هابيل . صفتهُ الوحيدة هي أنه ثاني العائلة ، وضحية أخيه . من بين الأخوة الأصغر دائماً هم المختارون : يعقوب هو الأصغر ، يوسف هو الأكثر صغراً من بين أولاد يعقوب ، موسى أصغر من هارون ، وداود هو آخر أبناء يسى . شرح مفسرون هذا التفضيل بأنه عندما يأتي الأصغر للدنيا ، يُفرض عليه الأكبر ، أن يكون أخاً في الحال . عندما أجاب قايين الله : « أحارس أنا لأخي ؟ » قد يُفهم سؤاله على أنه معارضة : « لقد كان عليه هو أن يكون حارسي ، وتعليمي أن أكون أخاً » .

وتستمر الرحمة للصغير في كل الكتاب المقدس ، وقد صوِّرت في المدراش الذي يفسر فيه طرد هاجر وابنها إسماعيل عن طريق إبراهيم في الصحراء . كادا أن يموتا من العطش ، وأظهر الله لهاجر الينبوع الذي سينقذهما ، صُدمت الملائكة بسلوك الله الذي ينقذ أعداء إسرائيل .

– هل ستعطى الماء للذين هم سيعذبون شعبك في النهاية ؟

نهاية القصة ليست مهمة ، أجاب الله : « لكن إسماعيل يموت الآن من العطش »[٩] .

إسماعيل هو الأكبر ، ولكن عندما يموت من العطش في الصحراء ، فهو الأصغر والذي سينقذه الله . في تلك اللحظة ، إنه أهم من مستقبل إسرائيل .

وبإعطاء حق لهابيل ضد قايين ، يدعو الكتاب المقدس البشر دائماً للتكاثر في شكل صغار ، خاسرين ، ضحايا .

المسئولية

لماذا سأل الله الذي يعرف كل شيء هذا السؤال لقايين : « ماذا فعلت لأخيك » . وقد أجبنا على هذا التساؤل بالقول إن في كل لحظة ، يتقدم الله لكل إنسان ليسأله نفس السؤال الذي يضع القريب في مواجهة مع قاعدة الأخلاق (القاعدة الأدبية) .

أوضح تاريخ هذا القرن أنه في الفترات الصعبة ، كان هناك القليل من الجلاّدين ، لكن الكثير من التابعين . نجاح مشروع الأوائل يرتكز على جمود الآخرين . وأوضح المؤرخون أنه ليس من الضروري أن نكون نازيين للإمساك بالماكينة النازية الجهنمية ، يكفي أن نظل غير مقاومين ونقدم عملنا حتى تسير المؤسسات سيراً طبيعياً . توحي الكلمة الموجهة لقايين بأدب المسئولية السياسية ، وليس بالإنعزالية .

يقترح المدراش سببين آخرين لسؤال الله[١٠] .

– ليعلمنا أنه عندما يقترف شخص خطأ ما ، لا نعاقبه دون استجوابه عن فعلته للتأكد من أنها لا تحمل دواع تؤخذ في الاعتبار .

– أعطى الله الفرصة لقايين ليتوب . وقد أتتنا هذه الكلمة من التلمود الذي يقول إن الخاطيء الذي يتوب هو أكبر من أكبر الصالحين الذي لم يقترف أبداً أي خطأ .[١١] ولكن قايين فوت الفرصة لأكبر قداسة . كان يكفي أن يجيب الله بما قاله داود ، عندما أظهر ناثان النبي خطيته مع بثشبع وقتل أوريا الحثي : « قد أخطأت إلى الرب »[١٢] .

بدلاً من ذلك ، تصنّع قايين البراءة وأجاب : « لا أعلم . . . أحارس أنا لأخي ؟ » . عندما أظهر الله له الحقيقة ، أضاف المدراش أن قايين ضاعف الحوار ليحلل موقفه . أعطى مئة وخمسين سبباً لقتل هابيل : « إنه أنت من يحفظ كل الخليقة ومع ذلك تطلب منّي الحسابات ! هذه حقيقتي ، لقد قتلته ، ولكن هذا خطأك . لماذا

(٩) D'après Jacob ben Isaac, Achkenazi de Janow, ***Le commentaire sur la Torah***, Verdier 1987, p.148.

(١٠) Rabbi Yaacov Couli, ***Meam Loez, Genèse Tome1***, Moznaim publishing, Jérusalem 1992, p.240.

(١١) كان الربيون يظنون أن الصراع يكون أكثر شدة بالنسبة للشخص الذي يتوب ويرجع عن الأمر الذي سمح لنفسه بفعله ، أكثر من الصراع الذي يعاني منه الشخص الذي كان يتميز بسلوك جيد .

(١٢) (صموئيل الثاني ١٢ : ١٣) .

سمحت بأن أقتله ؟ إنه أنت الذي قتلته لأنه إذا كنت قد قبلت تقدمتي مثلما قبلت تقدمته لما كان لدي سبب للغيرة ولما كنت قتلته[١٣] . (يمكن أن نعتبرها مرافعة محامي متمكن من مهنته ؟ ! !) لما كان قايين وحيداً ، دافع عن نفسه بحجته ، بالتظاهر بعدم المسئولية . إنه لا يفعل سوى تكرار سلوك أبويه في الجنة . عندما سألهم الله عن الثمرة أوقع آدم الخطأ على حواء ، وحواء على الحية .

وفي لحظة ، انتهى قايين بمعرفة جزء صغير من المسئولية : « ذنبي أعظم من أن يحتمل » حتى وإن بات مصيرة : « أن يقتله كل من يجده » ولكن الله وضع علامة عليه لتحميه . وعن طبيعة هذه العلامة اختلف المفسرون ، البعض يقول إن الله وضع خطاباً باسمه على جبين قايين ، والآخرون يرون بأن الله أعطاه كلباً كمصاحب له ، وآخرون ادعوا أن قايين ورث قلباً جريئاً حتي لا يظهر أي خوف . يقول المدراش إن الحيوانات تمثلت للانتقام لدم هابيل ، لكن أجابهم الله : « من يقتل قايين ، فسيُقتل هو أيضاً » بالرغم من أن قايين مسئول عن هذا القتل ، إلا أنني لا أبغي موتهُ ، إذ لم يحذره أحد . لكن كلكم الآن تم تحذيركم ، والذي سيرتكب هذا الجرم فسيُقتل[١٤] . قال آباء الكنيسة إن هذه العلامة كانت الصليب الذي هو علامة رحمة الله .

يدعو الكتاب المقدس الإنسان للمسئولية . أدان الله آدم ، حواء ، وقايين بالذنب ، وعاقبهم بنفيهم نفى الأوائل عن الجنة ، أما الثاني فقد أتاهه . لكن في الوقت نفسه ، ساعدهم الله على تحمل عواقب أعمالهم ، فقد ألبس آدم وحواء أقمصة من الجلد ليواجهوا الحياة القاسية التي تنتظرهما خارج الجنة ، ووضع علامة على قايين حتى لا يقتله أحد في تيهانه .

أمام الله ، كان آدم وحواء وقايين أشخاصاً ماثلين أمام الله ومسئولين عن أفعالهم ، ليس كأطفال صنعوا حماقة ، لكن كان يلتمس العذر لهم ! يحكي المدراش أنه ، عندما كان يحكم داود بين شخصين ، لم يكن ليّنا في عدله . إذا أخطأ الفقير في عمل شيء ، كان يحاكمه بنفس الصرامة[١٥] التي يحاكم بها الغني ، وبعد أن يحكم عليه كان يعطي له الأموال التي يجب دفعها من حسابه الخاص[١٦] .

---

(١٣) Louis Ginzberg, ***Les légendes des Juifs***, Cerf collection Patrimoines: Judaïsme 1997, p.83.

(١٤) Rabbi Yaacov Couli, ouvrage cité, p.242.

(١٥) بالفعل يحدد التوراة « لا تأخذوا بوجه مسكين »(لاويين ١٩ : ١٥) .

(١٦) Talmud de Babylone, Traité Sanhédrin 7a.

منطق هابيل

في واحد من كتبه ، يشرح رينيه جيراد René Girard أن القيم الكتابية أصبحت سائدة في التاريخ المعاصر : ربح هابيل في صراعه ضد روميلوس ، قال جيراد : « ماتت الأيديولوجيات وبقى هذا الاختلاف الرائع لعالمنا مع كل الذين سبقوه » .

اليوم الضحايا لهم حقوق . أما في الماضي فإذا استطعتم مقابلة موظفين إغريق أو رومان ، وتحاولون إقناعهم أن للضحايا حقوقاً ، فهذا لن يجعلهم حتى يضحكون !! لأنهم لن يفهموا الموضوع أصلاً(١٧) .

وآخذ مثلاً مما حدث مع Vercingétorix الذي أُخذ أسيراً لروما ليشارك في انتصار القيصر . وما أن انتهت المهمة ، حتى أُهمل ولم يعد لوجوده أهمية . فقط أصبح بلا فائدة (منطق Romu-lus) . واليوم لو حدثت حالة مشابهة ، لتولّت حركة دولية الدفاع عن Vercingétorix ولطلبت من الحاكم الروماني برنامجاً لمساعدة بلاد الغال النامية . إنه منطق هابيل « أتفق معكم أن البلاد الغنية بعيدة عن هذا المنطق ، لكنه أيضاً من العجيب أن ندرك أنه بعد مضيّ ثلاثة أشهر من نهاية الحرب الباردة لم يكن هناك سؤال عند الغربيين سوى مساعدة روسيا ، يوجد هنا سابقة خطيرة في تاريخ الإنسانية »(١٨) .

(١٧) *Quand ces choses commenceront.., arléa* 1994, p. 23.

(١٨) idem p.174

كيف لا نحسد؟

قيل إن الملك الإسكندر الأكبر طلب من حكيم أن يخبره بكلمة حق . فأعطاه الحكيم جسماً مستديراً . أخذ الملك الجسم ، وحاول اختباره ، أراد معرفة وزنه . فوضعه على كفة ميزان ووضع ذهباً أو فضة على الأخرى . لكن لم ترتفع الكفة التي بها الجسم . فأضاف المزيد من الذهب على الكفة الأخرى ، لكن لم يتحرك الجسم . فسأل عندها الإسكندر الحكيم عن طبيعة هذا الجسم المستدير ، وأجابه هذا الأخير : « إنها عين الإنسان . لم تكتف أبداً ، كلما امتلك ، كلما اشتهت »[(١٩)] . تقول الحكمة من بين ألف رجل مدفونون في المدافن ، مات تسعمائة وتسعون منهم مقتولين بالحسد (الشهوة) والعشرة الباقون ماتوا موتاً طبيعياً .

إذا لم يرد إنسان أن يؤذيه ذووه ويصنعوا به سوءاً فيستطيع هو أن يغمض عينيه . وإذا أراد أن يمسك لسانه ، فيستطيع أن يضع قفلاً على شفاهه . لكن أيستطيع الامتناع عن التفكير؟ لا . أيمكنه عدم الاشتهاء؟ يجيب المفسرون قائلين بما أنها وصية نجدها في الوصايا العشر ، فإطاعتها ممكنة .

هل يشتهي الإنسان أن يطير كالعصافير لأنه أراد الوصول للطيران بتحريك ذراعيه؟ لا ، لأنه يعلم أن ذلك مستحيل . هذا مثل فلاح يرى ابنة الملك تعبر حقله ، فهو لا يشتهيها ، لأنه يعلم جيداً أنه لن يقدر أبداً الزواج بها ، في المقابل سيشتهي أجمل فتاة في قريته .

قال الحكماء إنه لا يوجد سوى مضاد واحد للاشتهاء : وهو الشكر . تأتي الوصية الخاصة بالاشتهاء في نهاية باقي الوصايا العشر التي تنفتح على التحرير (أنا الرب إلهك الذي أخرجك من بيت العبودية) . إنه بالتأصل في التحرير كأن الله يقول إن علينا الشكر لكل مالنا ، وأن نطفيء الاشتهاء الذي داخلنا لئلا نشتهي . يجب محاربة النظرة ، تعلّم حب ما هو لنا ، وشكر الله لكل شيء . الشهوة هي شمعة ، وغمر النفس في الشكر يقرِّب الشمعة لأتون نار : فتذوب وتختفي .

---

(١٩) Rabbi Yaacov Couli , *Meam Loez, Genèse Tome 1*, Moznaim Publishing, Jérusalem 1992, p.33- 34.

١٦

حنوك، المدينة

الخَلْق هو لغة الله، الوقت هو ترنيمته، أفلاك الفضاء ليست إلا حروف ساكنة.
(أبراهام هيشل Abraham Heschel)

٩- فقال الرب لقايين أين هابيل أخوك. فقال لا أعلم. أحارس أنا لأخي. ١٠- فقال ماذا فعلت. صوت دم أخيك صارخ إليَّ من الأرض. ١١- فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك. ١٢- متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها. تائهاً وهارباً تكون على الأرض. ١٣- فقال قايين للرب ذنبي أعظم من أن يحتمل. ١٤- إنك قد طردتني اليوم عن وجه الأرض ومن وجهك أختفي وأكون تائهاً وهارباً في الأرض فيكون كل من وجدني يقتلني ١٥- فقال له الرب لذلك كل من قتل قايين فسبعة أضعاف ينتقم منه. وجعل الرب لقايين علامة لكي لا يقتله كل من وجده. ١٦- فخرج قايين من لدن الرب وسكن في أرض نودٍ شرقي عدن. ١٧- وعرف قايين امرأته فحبلت وولدت حنوك وكان يبني مدينة. فدعا اسم المدينة كاسم ابنه حنوك. ١٨- وولد لحنوك عيراد. وعيراد ولد محويائيل. ومحويائيل ولد متوشائيل. ومتوشائيل ولد لامك. ١٩- واتخذ لامك لنفسه امرأتين. اسم الواحدة عادة واسم الأخرى صلَّة. فولدت عادة يابال. الذي كان أباً لساكني الخيام ورعاة المواشي. ٢١- واسم أخيه يوبال. الذي كان أباً لكل ضارب بالعود والمزمار. ٢٢- وصلَّة ولدت أيضاً توبال قايين الضارب كل آلة من نحاس وحديدٍ. وأخت توبال قايين نعمة ٢٣- وقال لامك لامرأتيه عادة وصلة. اسمعا قولي يا امرأتيْ لامك وأصغيا لكلامي. فإني قتلت رجلاً لجرحي وفتى لشدخي ٢٤- إنه يُنتقم لقايين سبعة أضعاف. وأما للامك فسبعة وسبعين. ٢٥- وعرف آدم امرأته أيضاً. فولدت ابناً ودعت اسمه شيثاً. قائلة لأن الله قد وضع لي نسلاً آخر عوضاً عن هابيل.

لأن قايين كان قد قتله. ٢٦– ولشيث أيضاً وُلد ابن فدعا اسمه أنوش. حينئذ ابتُدىء أن يدعي باسم الرب. (تك ٤: ٩– ٢٦).

إذا لم يكن هناك في الكتاب المقدس سوى قايين وهابيل ، لقلنا أنه ليس لآدم وحواء حظ في أولادهم . لكن من بعدهم كان هناك أخوان آخرون لهم علاقات صاخبة : إسماعيل وإسحق ، يعقوب وعيسو . في كل من تلك الحالات ، يظهر الإخوة أكثر مما هم عليه ، لقد كانوا رموزاً لحضارات مختلفة . يقدم نهاية الفصل الرابع من التكوين ولدين أقل شهرة ، حنوك وأنوش .

حنوك هو ابن قايين ، وهو أيضاً الاسم الذي أعطاه هذا الأخير للمدينة الأولى في الكتاب المقدس . في نسله ، نجد بعضاً من الأجيال ، لامك الذي كان له امرأتان وثلاثة أولاد . كان واحد من أبنائه هو أب الرعاة ، وكان الثاني أب الموسيقيين والثالث أب الحدادين . بالزراعة ، والفن والصناعة ، بدأت الحضارة في أخذ مكانها ، واختفت مع الطوفان .

بالتوازي مع نسل قايين –حنوك ، ظهر نسل ثانٍ . ولد آدم وحواء ابناً آخر والذي أسمياه شيث ، ليأخذ مكان هابيل . وكان لشيث نفسه ولد وهو آنوش ، ويقول المكتوب أنه منذ تلك اللحظة ابتُديء أن يُدعى باسم الله تحت اسم يهوة « YHWH » . ويتكلم الفصل القادم عن نسل آنوش الذي يصل إلى نوح .

حنوك وآنوش ليسا إذاً إخوة ، بل بل أولاد عم . يعطي الأول اسمه لمدينة بينما يُحدِّث الثاني باسم الله . واحد هو أب لحضارة تفسد نفسها وتضيع في الطوفان ، والآخر هو الجد الأكبر لنوح الذي سينقذ العالم من نفس هذا الطوفان .

هذا المقطع سيتكلم عن حنوك بصفة خاصة . وسنسمع قصة آنوش في الفصل القادم .

التيهان

كان قايين تائهاً ومتشرداً على الأرض ، كقاتل لأخيه . كان ملعوناً على سطح التربة التي قبلت دم هابيل ، وذهب في منفى عند شرقي عدن . عندما طُرد آدم وحواء من الجنة ، كانا قد ذهبا أصلاً إلى الشرق . وهنا ، ذهب قايين لشرق الشرق ، بعيداً عن وجود الله . ووصل إلى بلد نود (Nod) ، وهي كلمة بالعبرية تعني (توهة) . رأى راشي Rachi أن نود تعني أيضاً (يكون في حركة أو هروب) . أينما يذهب قايين ، تكون الأرض في حركة تحت قدميه ، ليس له أمان ، ما من علامات إرشاد[1] . كان مشتتاً في ذهابه .

هرب قايين ، واختفت الأرض من أمامه ، ولكن تيهانه يظل داخله . كما اختبأ أبوه آدم عند سماع صوت الله في الجنة ، ابتعد قايين عن الوجود الإلهي . لكن في تيهانه ، لم يُترك . حتى لو هرب من وجود الله ، فهو

(١) *Commentaire du Pentateuque, la Genèse*, fondation Samuel et Odette Lévy, Paris 1993, p.27

يحمل علامة الحماية الإلهية . الكلمة العبرية التي نترجمها بعلامة هي كلمة قوية جداً . في الكتاب المقدس ، تنطبق أيضاً على قوس قزح ، وعلى الختان ، أو على عيد الفصح . إنها تمثل رحمة الله التي تعطي لقايين إمكانية إعادة بناء حياته ، بالرغم من ماضيه . لكن الإنسان لا يثق في العلامة ، ويفضل تأمين حمايته بنفسه . وعندما وصل إلى التيهان ، أنشأ مدينة .

زرع الله جنة ، ووضع فيها الإنسان الذي وفَّر له فيها كل احتياجاته ، أشجار ، ثمار ، حيوانات ، قرين (زوجة) ووصية . لكن ثار الإنسان على الله ونُفي أول مرة . وقتل أخاه ونُفي للمرة الثانية . يقول المدراش إنه بدلاً من محاولة التوبة وإلغاء الحكم على خطئه صرف قايين وقته في البناء ، حتى ينسى . وتاه في إنشاء المدينة لدرجة أنه لم يأخذ الوقت للراحة .[٢] إنه حتى في ذلك العصر ، كان العمل وسيلة للهروب من الواقع !

المدينة

في العهد القديم ، أعطت معظم المدن معنى سلبياً . المدينة هي دائماً المكان الذي يجد الإنسان نفسه فيه ليبني حياته ضد الله . بابل هي رمز الإنسانية التي بنت برجاً لتتخلص من الله ، أور هي مدينة الأوثان التي كان على إبراهيم مغادرتها ، سدوم وعمورة هما رمزان للفساد (الفجور) ، أريحا التي أقامت الأسوار العالية لمنع الوصول لأرض الموعد للعبرانيين ، نينوى هي رمز مدينة العنف والحرب ، بابل هي مدينة المنفى . . . كل هذه المدن كانت عبارة عن منشآت والتي أقامها الإنسان لاعتراض خطط الله للتاريخ . قد يكون الاستثناء الكبير هو أورشليم ، مدينة السلام ولكل المؤمنين . وصنع منها داود عاصمة لمملكته وهو في قمة مجده ، لكن نقطة البلوغ تتمثل أيضاً في بدايات الانحطاط والخراب . في فم الأنبياء ، كانت أورشليم هي مدينة الدسائس ، الغدر والخيانة . إنه في أورشليم ضُحّي بيسوع[٣] .

ولبيان المعنى المعطى لبناء المدن ، أعطى قايين لمدينته اسم ولده حنوك ، مثل روميلوس والإسكندر ، وقسطنطين ، وستالين الذين أعطوا أسماءهم لمدن .[٤] حُكم على قايين بالتيهان ، وكان هو يبحث عن الخلود في أعماله . هذا العطش للبناء الذي يهدف إلى الوصول إلى الخلود كان دائماً ما يبحث عنه الأقوياء . كون العجز والموت مجالان لا يمكن التحكم فيهما ، فقد أنشأ مدينة ليثبت اسمه في الذاكرة . ما نسميه (lithomonia جنون الأحجار والإنشاءات الضخمة) وقد كانت دائماً شهوة القادرين . وهي لم ترفق بالمسيحيين . يذكر « بيتر برون Peter Brown » أن « ثاوفيلس Théophile » من الإسكندرية قد بدَّد الهبات المخصصة للفقراء في إنشاء الكنائس الضخمة : « أُلتهم طعام الفقراء بالأحجار والرخام الملون وقطع الذهب للكنائس الجديدة » .[٥]

(٢) Rabbi Yaacov Couli, ***Meam Loez, Genèse Tome1***, Moznaim publishing, Jérusalem 1992 p.245.

(٣) بالنسبة للاهوتية المدينة انظر Jacques Ellul, Sans feu ni lieu, Gallimard 1975

(٤) في العهد الجديد لا نجد إلا طبرية – طيباريوس ، قيصرية – قيصر

(٥) Cité par Jean-Claude Guillebaud, ***La refondation du monde***, seuil 1999, p.132.

الحضارة التي تركت عدداً كبيراً من الآثار هي الحضارة المصرية الفرعونية . لا يرى الكتاب المقدس هذا البلد بعين سائح متفرج ، لكن عن طريق العرق والدم والدموع التي سالت من العبيد الذين عاشوا هناك لفترة ٤٠٠ سنة . لم يترك العبرانيون عند رحلتهم من مصر إلى أرض الحرية أي أثر من ميراث الإنسانية ، لكنهم نقلوا عملاً والذي نستطيع اعتباره أكثر أهمية : التوراة التي هي كتابات أدبية ، بل وقانون أيضاً ، إنها أدب ووعد ! .

إعطاء اسم ولده لمدينة هو رمز كبرياء ومقدرة . لم تكن مدينة قايين مكاناً حيث يلتقي فيه البشر ليتقابلوا أو يعيشوا في سلام ، إنها قوة محاطة بأسوار ضخمة عالية . يقول التقليد الربيني : « إن قايين زاد من محاسنها بالسرقة والعنف وأنه أقام ستة مدن أخرى . وأصبح طاغية يُدخل الرجال في الثورة ضد الله .

في المدينة المنشأة من قايين ، ظهرت حضارة . وسيكون نسل حنوك هم أصل الرعي والفن والصناعة .

حضارة أولاد قايين

حنوك ، عيراد ، محويائيل . . . تتوقف ذرية نسل قايين عند الجيل الخامس على اسم لامك الذي كان له أربعة أطفال : يابال ، يوبال ، توبال قايين وأخته نعمة . يابال هو أول رحَّالة في الإنسانية[٦] ، كان يتحرك ويضع خيمته في الأماكن الموحشة ، هناك حيث يوجد مرعى لقطيعه . عندما يصبح العشب نادراً ، يذهب أكثر بعداً . يحكي التقليد الربيني أن يابال كان أيضاً أول رجل ينشيء معبداً ويقدم لوثن .

يوبال هو أول عازف في الإنسانية . وهو يتقن فن العزف على كل أنواع الآلات الموسيقية ، وبالتالي ، هو أيضاً وضع قدمه في خدمة الوثنية وهو يلعب الموسيقى في معبد أخيه .

توبال قايين هو أول حدَّاد في الإنسانية . يعرف تسنين الحديد والنحاس . إنه أول صانع أسلحة الحرب .

حصلت أخته نعمة على اسمها ، الذي يعني (الفاتنة) ، بسبب الأصوات الفاتنة التي أخرجتها من الصاجات عندما دعت العابدين لتقديم العبادة للأوثان .

مع امرأتيه ، عادة وصلَّة ، قدم لامك الضرة (تعدد الزوجات) في الكتاب المقدس . يقول التقليد إنه في ذلك العصر ، كان الرجال يتزوجون امرأة أولى التي خُصِّصت للولادة حتى يستطيعوا الحصول على وريث . لكن مثلما يحدث أن الأمومة تضعف النساء وتذبل جمالهن ، فإن الرجال يتزوجون من الثانية للمرح ويجعلوهم عاقرات بمساعدة جرعة من دواء[٧] . ولأن رجال ذلك العصر منجذبون نحو المتعة أكثر من مسئولياتهم ، فقد أعطوا كل اهتمامهم للنساء العاقرات ، بينما تعيش الأخريات دون فرح ، بل في حزن . من بين نساء لامك ، صلَّة ، بالرغم من شرب الدواء المسبِّب للعقم فقد استطاعت الولادة . وهذا هو السبب لأن يقول النص : « وصلَّة ، ولدت أيضاً . . . » .

---

(٦) لوصف أولاد لامك ، انظر Rabbi Yaacov Couli, ouvrage cité, p.246

(٧) D'après Rachi, ***Commentaire du Pentateuque, la Genèse***, fondation Samuel et Odette Lévy, Paris 1993, p.29.

في النص الثاني للخلْق ، قُدمت المرأة كشريكة مدعوة للعيش جنباً لجنب مع الرجل . وانحصرت الآن في استخدامها في صنع أطفال وإعطاء متعة . الآن هم بعيدون جداً عن مشروع الله للزواج !

من أول فقرتنا هذه ، فالمرأة ، التي تمثل حتى في هذا العصر نصف الإنسانية ، تغيب من أنسال الكتاب المقدس . المرأة التالية والتي سنعرف اسمها ستكون سارة . امرأة إبراهيم والتي سنحدد عندها أنها كانت عاقراً . بين عادة وصلَّة ، نساء لامك ، وسارة ، يعطي الكتاب المقدس اسم أكثر من (٦٠) رجلاً ، وليس اسم امرأة واحدة . كما لم تحظ النساء إلا بقليل من الأهمية ، فقد انحصرت لتكون (الشيء) الخاص بالرجل .

ولامك لم يقدم فقط على تعدد الزوجات ، بل كان عنيفاً أيضاً مثلما يشهد التصريح اللغزي الذي أخبر به امرأتيه : « إني قتلت رجلاً لجرحي وفتى لشدخي » إذ إنه يصعب ترجمتها مع الاحتفاظ بالمعنى العام . قتل لامك رجلاً ، وفتى ، ليثأر لجرح وكدمة . بقايين أُدخل العنف إلى العالم ، ولكنه يظل عنفاً عَرَضياً . وهنا يُعمَّم العنف : القتل هو الإجابة الوحيدة لأقل إهانة . في حياة لامك لا يوجد لا حق ولا قانون ، بل الثأر وحده . حياة الآخرين غير مقدسة .

في التقليد الربيني ، تتوازى سادس الوصايا العشر : « لا تقتل » مع الأولى « أنا الرب إلهك » ، الذي يرتكب القتل يقلل من تأثير كلمة « أنا هو » « أي الله نفسه في العالم » . في المدن المقامة بقايين ، طرد البشر الله من وجودهم .

حسب الكتاب المشكوك فيه عن أخنوخ[٨] ، ستؤول عبودية هذا الجيل لملائكة خاطئين . سينزلون للعالم للتدخل بين البشر وتعليمهم أعمال السحر والشعوذة ، فن التجمل وطريقة صناعة الأسلحة . وقد أعدَّ أولاد لامك القدرة التي يستطيعون الوصول إليها مع أسرار الصناعة ولغز الألوهية . وكانت النتيجة : « انتشر الظلم والقسوة ، وعصت المخلوقات وأفسدت كل طرقها » .[٩] وقامت حضارة أولاد قايين على الوثنية ، صناعة العنف والكبرياء الانتهاكات .

- مع حضارة لامك ، نحن بعيدون جداً عن عدن .
- زرع الله الجنة ، وأقام قايين مدينة .
- أعطى الله المرأة كشريكة للرجل ، وكان لامك متعدد الزوجات .
- أعطى الله وصية للإنسان ، وثأر لامك مع غياب كل حق .
- تكلم الله مع الإنسان بالكلمة ، لكن أولاد لامك جعلوا من أنفسهم إلهة .

(٨) هو أخنوخ بن يارد وهو من نسل آنوش والذي رُفع للسماء دون معرفة الموت : (تك ٥ : ٢٤) .

(٩) Hénok 8.2-3, *(in La Bible, écrits intertestamentaires*, Gallimard bibliothèque de la Pléiade, 1987, p. 479).

المدينة ...... حتى إن كانت

إذا كانت المدينة هي مكان التيه والتمرُّد ، فهل يجب الهروب من المدن والإقامة في الريف لإيجاد الله ؟ لحسن الحظ بالنسبة للمدنيين هناك عامل كتابي يسمح بالاستمرار في المدن ، إنها المملكة التي جاء ذكرها في سفر حزقيال الجزء الرؤوي ، وهي تظهر في شكل مدينة ، أورشليم السمائية .

في البدء ، كان الملكوت في الجنة حيث يعيش الإنسان في انسجام مع الطبيعة ومع الله . وعندما انكسر هذا الانسجام ، خرج من الجنة وأنشأ مدينة . عندما يتكلم المكتوب عن الملكوت القادم فإن مكانه لا يتحدد أبداً في الجنة ، بل في حياة مجدَّدة . إن مشروع خلاص الله ليس إعادة الماضي ، بل بإنصاف عمل الإنسان . . . حتى عندما نتميز بالثورة والكبرياء . هذا هو السبب الذي من أجله سيُرسل رجال الكتاب المقدس إلى المدن . شفع إبراهيم لسدوم ، بُعث يونان لنينوى ، انضم حزقيال للمنفى في بابل ، بكى يسوع على أورشليم ، وأراد بولس الذهاب لروما . إذا كانت المدينة علامة الكبرياء والتمرد للإنسان ، فتبقى على الأقل محبوبة عند الله الذي يسجلها في قلب خطته للخلاص .

لأن الله ينقذ المدن ، البشر يرونه في وسط الضوضاء ، الأبراج والدخان والزحام .

عدالة الله

بخصوص العدالة ، نستطيع أن نتساءل إذا كان الله قد سامح قايين بإعطائه علامة كأسلوب لحمايته . الذين يجيبون بنعم هل سألوا أنفسهم عن سكان مدينة حنوك ، عن ضحايا الطغيان ؟ عندما يعلن الإنسان العدالة لله أمام أكبر فضائح عالمنا التي هي الظلم والعذاب والعنصرية ، فماذا يسأل ؟ ما الذي يمنع رحمة الله ؟

لكن من جهة أخرى ، لو كان الله أزال قايين فهل كان العالم يستمر ؟ إنه السؤال الذي وضعه إبراهيم بخصوص سدوم . وضع المدراش في فم أحد الآباء الصلاة التالية : « سيد العالم ، أنت تريد العدالة وتريد الحياة . أنت تريد شد الحبل من طرفيه ، لكن هذا لا يمكن أن يحدث ، يجب أن تختار . إذا أردت أن يعيش العالم ، فعليك أن تسمح لبعض (الظلم) بالبقاء للسماح للإنسان بتجاوز خطئه . وإن لم يكن ذلك ممكناً فلم يكن من الواجب أن يُخلَق العالم[١٠] » .

عندما نصرخ من الظلم ، فعلينا أن نعرف ببساطة أنه إذا طبق الله عدله بصورة فورية ومباشرة ، فمن منا يستطيع البقاء ؟

(١٠) *D'après Midrash Rabba, Tome 1 Genèse Rabba* 49.9, Verdier 1987, p.523.



١٧

الله التاريخ

إنها الذكرى التي تحمل سر الخلاص.
(بال شم توف Baal Shem Tov)

(تكوين ٤)
٢٥- وعرف آدام امرأته أيضاً. فولدت ابناً ودعت اسمه شيثاً. قائلة لأن الله قد وضع لي نسلاً عوضاً عن هابيل. لأن قايين كان قد قتلهُ. ٢٦- ولشيث أيضاً وُلد ابن فدعا اسمه آنوش. حينئذ ابتديء أن يدعي باسم الرب. (تك ٤: ٢٥).

(تكوين ٥)
١- هذا كتاب مواليد آدم. يوم خلْق الله الإنسان على شبه الله عمله. ٢- ذكراً وأنثى خلقه وباركه ودعا اسمه آدم يوم خُلِقَ. ٣- وعاش آدم مئة وثلثين سنة وولد ولداً على شبهه كصورته ودعا اسمه شيثاً. ٤- وكانت أيام آدم بعدما ولد شيثاً ثماني مئة سنة وولد بنين وبنات. ٥- فكانت كل أيام آدم التي عاشها تسع مئة وثلاثين سنة ومات. ٦- وعاش شيث مئة وخمس سنين وولد أنوش. ٧- وعاش شيث بعدما ولد أنوش ثماني مئة وسبع سنين وولد بنين وبنات. فكانت كل أيام شيث تسع مئة واثنتى عشرة سنة ومات. ٩- وعاش أنوش تسعين سنة وولد قينان. ١٠- وعاش أنوش بعدما ولد قينان ثماني مئة وخمس عشرة سنة وولد بنين وبنات. ١١- فكانت كل أيام أنوش تسع مئة وخمس سنين ومات. ١٢- وعاش قينان سبعين سنة وولد مهللئيل. ١٣- وعاش قينان بعدما ولد مهللئيل ثماني مئة وأربعين سنة وولد بنين وبنات. ١٤- فكانت كل أيام قينان تسع مئة وعشر سنين ومات. ١٥- وعاش مهللئيل خمساً وستين سنة وولد يارد. ١٦- وعاش مهللئيل بعدما ولد

يارد ثماني مئة وثلاثين سنة وولد بنين وبنات. ١٧- فكانت كل أيام مهللئيل ثماني مئة وخمساً وتسعين سنة ومات. ١٨- وعاش يارد مئة واثنتين وستين سنة وولد أخنوخ. ١٩- وعاش يارد بعدما ولد أخنوخ ثماني مئة سنة وولد بنين وبنات. ٢٠- فكانت كل أيام يارد تسع مئة واثنتين وستين سنة ومات. ٢١- وعاش أخنوخ خمساً وستين سنة وولد متوشالح. ٢٢- وسار أخنوخ مع الله بعدما ولد متوشالح ثلاث مئة سنة وولد بنين وبنات. ٢٣- فكانت كل أيام أخنوخ ثلاث مئة وخمساً وستين سنة. ٢٤- وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه. ٢٥- وعاش متوشالح مئة وسبعاً وثمانين سنة وولد لامك. ٢٦- وعاش متوشالح بعدما ولد لامك سبع مئة واثنتين وثمانين سنة وولد بنين وبنات. ٢٧- فكانت كل أيام متوشالح تسع مئة وتسعاً وستين سنة ومات. ٢٨- وعاش لامك مئة واثنتين وثمانين سنة وولد ابناً. ٢٩- ودعا اسمه نوحاً. قائلاً هذا يعزينا عن عملنا وتعب أيدينا من قبل الأرض التي لعنها الرب. ٣٠- وعاش لامك بعدما ولد نوحاً خمس مئة وخمساً وتسعين سنة وولد بنين وبنات. ٣١- فكانت كل أيام لامك سبع مئة وسبعاً وسبعين سنة ومات. ٣٢- وكان نوح ابن خمس مئة سنة وولد نوح ساماً وحاماً ويافث (تك ٥: ١- ٣٢)

بنسل قايين، أظلَّمت الإنسانية بالعنف، وتعدد الزوجات، وتجارة الأسلحة، والوثنية، وانتشر الطغيان على وجه الأرض.

حصل آدم وحواء على وصية التكاثر والنمو. كان لهما ولدان، لكن واحد مات، وذهب الآخرفي التيه. فاستدار الرجل والمرأة الواحد جهة الآخر ليكملا الحياة بالرغم من كل شيء. كان لهما ولد آخر، واللذان سمياه شيثا. وكان لشيث نفسه ولد، هو أنوش.

في الفصل السابق، علمنا أن حنوك وأنوش، ابنا قايين وشيث، كانا أولاد عم. وعلمنا أن قايين أعطى اسم ولده للمدينة الأولى في الكتاب المقدس، ابن قايين ينتمي إلى مؤسَّسة ضد الله. وعلى عكس حنوك، يتكلم التكوين عن أنوش والذي من عنده يحدد النص عند نهاية الأصحاح الرابع، بداية الدعوة باسم الرب. كلمة (أنوش) تعني (رجل) بالعبرية، وهي تأتي من أصل يعني «ضعيف» و« قابل للقتل» « فانٍ». على عكس حنوك الذي أقام حضارة على الصناعة والقوة، فأنوش يرمز للإنسانية التي تتعرف على حدودها وضعفاتها والتي في خشوع تنفتح على وجود الله والقريب. لم يوصف أنوش بإنشاءاته، بل بنسله.

عندما قتل قايين أخاه، استجوبه الله قائلاً: « صوت دم أخيك صارخ إليَّ»، يتساءل المدراش: « لماذا جاءت كلمة دم في صيغة الجمع؟» فأجاب: « إن الصراخ خاص بدم هابيل ودم كل النسل الذي لن يكون

له ![1] . سيأخذ نسل شيث مكان نسل هابيل بطريقة ما » .

ذُرِّية رائعة

يقدم المكتوب تسلسل الأنساب للتذكير بأهمية التاريخ . ما ندرسه الآن يربط بين آدم ونوح ، ومن ثم ، بعد عدة أصحاحات . يبدأ نسل آخر من نوح ويصل إلى إبراهيم . يبدأ سفر الأخبار الذي يحكي تاريخ مملكة إسرائيل ، بعشر أصحاحات عن الأنسال ، ما بين آدم وداود . أما بالنسبة للعهد الجديد ، فإن ذكر تسلسل النسل لم يتوقف ، إذ أن الأصحاح الأول يذكر أجداد يسوع .

هذه الذرية الأولى تتميز بطول العمر ، بالنسبة للرجال . عاش آدم (٩٣٠) سنة ، شيث (٩١٢) ، أنوش (٩٠٥) . يتواصل عمر أحفاد آدم إلى أن يصل إلى لامك ، أبي نوح ، الذي عاش (٧٧٧) سنة . وعاد السجل مرة أخرى عند متوشالح الذي وصل إلى (٩٦٩) سنة ويمكننا أن نتخيل أن عدد هذه السنوات أعطى الفرصة لعدة تحليلات[2] .

فيعلل (Maïmonide) –الذي كان طبيباً– طول العمر بالنظام الغذائي الذي اتّبعه رجال الكتاب المقدس . فهم نباتيون ، يأكلون القليل ولا يشربون إلا الماء . ونشاطهم الجنسي محدود ، فعدد أولادهم قليل بالنسبة لعمرهم . وهو ليس متأكداً أن مثل ذلك الزُّهد كافٍ للوصول إلى تسع مئة سنة ! .

ويشرح تحليل آخر امتداد العمر بأنه علامة ضعف وليس قوة . كما لم يكن هناك تاريخ للبشر الأوائل ، ولا تقاليد ، فقد كانوا في حاجة لمزيد من الوقت عن الآخرين ليفهموا الطريقة التي عليهم أن يعيشوا عليها . كما كتب أحد الربيِّين : « من الممكن أن يكون الله قد أراد أن يعمِّر الأجيال الأولى حتى يكون لهم متسع من الوقت ليتعلموا ويضعوا معرفتهم بالكتابة ، حتى يتعلمها نسلهم من بعدهم . لا تكفي الـ (٧٠) سنة من حياة الإنسان للوصول للمعرفة إذا لم يتأسس على المعرفة المنقولة من الأجداد[3] . حسب هذا التحليل ، فهدف الحياة هو التعلُّم ، ولأنه كان ينقص البشر الأولين التقاليد ، فلهذا يلزمهم المزيد من الوقت !

وأخيراً ، إذا كنا متمسكين أكثر بالتدقيق العلمي عن الأدبي ، فسنقول إن الذُرِّيَّات تؤكد التحوُّل ما بين الوقت (الخرافي) للفصول الأولى ، ووقت التاريخ الإنساني الذي يبدأ من إبراهيم . يلزم وجود مرحلة انتقالية بين الحياة في الجنة والمميزة بالأبدية ، والحياة التي نعرفها في أيامنا . في وقت الله ، يوم واحد مثل ألف عام ، وعليه ففي وقتنا الحالي ، فمدة حياة الإنسان لا تتعدى (١٢٠) سنة . تعبر أنسال التكوين من المرتبة الأولى من الطول (السمو) إلى الثانية . فالإنسان الأول الذي خُلق خالداً ، في جسم لا يشيخ ، احتفظ بحيوية استثنائية ، حتى بعد السقوط .

وبتأمل هذه الأرقام المؤثرة ، يتساءل المدراش : « لماذا لم يتعد أحد الألف سنة . ويجيب إن آدم عليه أن يصل

(١) Talmud de Babylone, traité Sanhédrin 37b.

(٢) Rabbi Yaacov Couli, *Meam Loez, Genèse Tome 1*, Moznaim Publishing, Jérusalem 1992, p.266s.

(٣) Elie Munk, *La voix de la Thora, La Genèse*, fondation Samuel et Odette Lévy, Paris, 1992, p.64.

لهذه السن . وحسب قانونية الكتب ، عليه أن يموت في يوم خروجه من الجنة . ولأنه بالنسبة لله ، فاليوم مثل ألف سنة ففي ذلك اليوم جعل الله آدم يرى كل الأنسال القادمة ، لاحظ آدم أن ليس لداود أن يعيش أكثر من ثلاث ساعات . فاستدار نحو الله وقال : أريد أن أعطيه (٧٠) سنة من حياتي حتى يتمكن من أن يكون ملكاً ، ويتغنَّى بمجد الرب ، ويكون له نسل والذي يأتي منه المسيح (المخلص) . فوقَّع آدم عقداً والذي كان مشروطاً بألا يعيش سوى (٩٣٠) سنة ، وأن يعطي (٧٠) سنة لداود[٤] » . هذا المدارش مثير حيث إنه يقول إن آدم ، وداود والمسيح المخلِّص ينتمون لنفس سلسلة الأنساب . حيث من المفضل أن مسار التاريخ يتم تتبعه عن طريق الأنسال . ترتكز قراءة أخرى لهذا المدراش على أن داود ظل يُذكر في المكتوب على أنه رجل التوبة . بربط داود وآدم ، فهو يعطي طابعاً كونياً آدمياً (من آدم) لتوبة ملك .

الذكرى، وصية

يدعو الكتاب المقدس في الأساس إلى التذكُّر إذا كان الله قد صنع الاختيار بالظهور في التاريخ ، فعلى الإنسان أن يحفظهُ بالتذكر في العهد القديم ، التذكُّر وصية وردت (١٦٩) مرة . ولم توضع أبداً في شكل تجريدي ، لكن دائماً بطريقة معينة . في المرة الأولى التي ظهرت فيها الوصية ، كانت في سفر الخروج ، في الأصحاح « ١٣ » ، بينما مازال الشعب في مصر : « اذكروا هذا اليوم الذي فيه خرجتم من مصر من بيت العبودية » ويرد بقية المقطع بإقامة عيد الفصح والذي يرد هكذا : « ويكون متى سألك ابنك غداً قائلاً ما هذا ، تقول له بيد قوية أخرجنا الرب من مصر من بيت العبودية »[٥] .

وحتى نشعر بأهمية الوصية ، يجب تخيُّل الآتي : استعدادات السفر ، الاضطراب أمام عظمة الموقف ، الخوف من المجهول ، تهديد فرعون . . . أخذ موسى الكلمة وتقدَّم للشعب ليعطيه الإرشادات الأخيرة . ماذا سيقول ؟ « عندما ينتهي كل شيء ، لا تنس بأن تخبر ابنك بذلك » . فالحرية لم توجد بعد ، فكَّر موسى أن الأمر الأكثر أهمية هو أن يعيد عليهم وصية التذكرة بالأمور التي مازالت مستقبلية ! ! ! منذ ذلك اليوم ، في كل مرة يبتعد فيها الشعب عن الله ، يقوم نبي ليطلَب منه تذكُّر تاريخه . الفاجعة التي تعكر العلاقات بين الله وإسرائيل هي النسيان . عندما يصنع الله دعوى للإنسان ، فهو يلومه على ضعف ذاكرته[٦] . من ناحية أخرى ، فالرجل الكتابي ، في مأساته ، يسأل الله لماذا نسيه[٧] . إن صراع الذكرى ضد النسيان إنما هو دائم ، نجده في المذكرات والطقوس الدينية وحتى في تعليم الأطفال .

• لتحديد الوقت ، أنشأ رجال الكتاب المقدس آثاراً صغيرة والتي لم تكن سوى أكوام من الأحجار ، للتذكُّر بفعل أو كلمة خاصة لله . ويتكلم يشوع عن كثير من تلك الآثار ، ويحدد أنها « هناك إلى هذا اليوم »[٨] .

---

(٤) idem, p. 62.

(٥) خروج ١٣: ١٣ – ١٤ .

(٦) تثنية ٣٢: ١٨ ؛ إشعياء ١٧: ١٠ ؛ إرميا ٢: ٣٢ .

(٧) مزمور ١٣: ٢ ؛ إشعياء ٤٩: ١٤ ؛ إرميا ١٥: ١٥ .

(٨) يشوع ٤ : ٩ / ٧ : ٢٦ .

•للمساعدة على التذكير ، فإن الأعياد والطقوس الدينية هي فرص لتحقيق أفعال عظيمة ماضية . الفصح يذكّر بالخروج من مصر ، والأعياد الأخرى تذكّر بهبات التوراة ، السير في الصحراء ، تقدمة الهيكل . الهدف من تلك الطقوس الدينية هو التذكير بفعل الله ، حتى لو كان الشعب لا يراه في تاريخه الخاص .

•الإرشاد « التعليم » ، في إسرائيل ، هو الواجب الأول للأب تجاه ابنه . عندما يكلم الله شعبه في التثنية ليبلغه عن الأمور الأساسية في الإيمان يقول : « اسمع يا إسرائيل ، الرب إلهنا رب واحد . فتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك . ولتكن هذه الكلمات التي أنا أوصيك بها اليوم على قلبك . وقصُّها على أولادك وتكلم بها حين تجلس في بيتك وحين تمشي في الطريق وحين تنام وحين تقوم »[٩] .

في عصر السنهدريم ، كان في استطاعة قضاة ذلك المجلس الدخول إلى رجل وتهديده بأخذ ثروته ، إذا رفض إرشاد وتعليم أطفاله . وهناك قول تلمودي مفاده : « إن الله سوف يدمر العالم لو خلا في لحظة ما من شخص واحد يدرس التوراة ويفسرها » . تحكي قصة أن بعض الوثنيين ذهبوا لأخذ نصيحة من قِبَل الفليسوف « Avnimus » وسألوه إن كان هناك من طريقة لقهر اليهود . فأجاب الفيلسوف : « اذهبوا لتروا مدارسهم . لطالما سمعتم صوت الأطفال الذين يدرسون ، فلن تستطيعوا فعل أي شيء ضدهم » . وهو بالفعل ما قاله لهم أحد الآباء وهو إسحق : « طالما يرن صوت يعقوب في الصلاة وفي الدراسة ، ستكون يد عيسو غير قادرة عليكم »[١٠] .

قاعدة التعليم هي دراسة التاريخ لحفظ الذاكرة . بخصوص هذا الواجب للذكرى ، يقول أحد الربيين « صُنع تاريخ شعب الله من (النفي ، السحق والتسخير) . تصرخ كل صفحة من هذا التاريخ عن غياب الله . لكن إذا أوصلنا كل تلك الصفحات ببعضها لعمل كتاب ، فسيكون أجمل شاهد لوجود الله الذي يصاحب ويحمل شعبه . بالرغم من كل تقلبات هذا التاريخ الدرامي ، يستطيع الله وحده شرح وجود هذا الكتاب وهو نجاة شعبه » . عندما يبعث الحاضر بفكرة غياب الله ، تسمح الذكرى بالحفاظ على الإيمان والأمل .

الذكرى ضد المدينة

عُرف آنوش بنسله وحنوك بالمدينة التي تحمل اسمه . يرمز أولاد الأعمام إلى التضاد بين الذكرى والمملكة ، مثل الوقت والفضاء تضاداً يصنع صدى متتابعاً ، بين « يكون » و « يمتلك » أي بين الحركة والسكون .

أظهر كتاب حديث « Pierre de Lagarde » مقابلة تتخلل كل مجالات الحضارات ، وتدخل من جهة النظام والثبات ، ومن الجهة الأخرى الحركة والحياة[١١] . لقد أوضح الكتاب المشار إليه التضاد بين المستقرين والرحالة ، والذي يعود إلى مجتمعات أولية . فالأولون مرتبطون بقيم الممتلكات الخاصة والسلطة الكهنوتية والانتقال ، بينما الآخرون يفضلون العدالة ، الحرية والمساواة[١٢] . تظهر هذه القطبية في المعمار :

---

(٩) تثنية ٦ : ٤ – ٧ .

(١٠) Victor Malka , *Les plus belles légendes juives*,Seuil Points Sagesses 134, p.149.

(١١) *le grand duel, esprit nomade et culture sédentaire*, Bucher Chastel 1997.

(١٢) ليس من الصدفة أن تظهر الديمقراطية في ثلاث فترات مختلفة في موانيء : أثينا ، فينيسيا ، لندن .

(الكلاسيكي – الباروك)* ، الرسم : (رافائيل – رابنز) والمسرح : (راسين – شكسبير) ، الموسيقى : (موزار – بيتهوفن) ، الدين (بطرس – بولس – أوغسطينوس – البلاجيوسيون – إرازموس – لوثر) ، ومجالات أخرى مثل السينما ، الموضة ، العلوم ، أو السياسة . ينتهي « Lagarde » بالقول إن المعسكرين هم أعداء دائماً وبشراسة ، لكنهما على الأقل باطنياً « داخلياً » مكمِّلين ، كما أن الوقت والفضاء متكاملين (مكمِّلين لبعضهما) .

الميل الطبيعي للإنسان هو الانغلاق على نفسه في فضائه ، وهذا هو دور الفنانين والحكماء والأنبياء . إن أنسال الكتاب المقدس هم الشاهد لإله غير مقيد بأي فضاء والذي يدعو الإنسان لإيجاده في تاريخه .

يجب أن نكون ببساطة منتبهين ألا يكون التاريخ « hagiographie هاجيوجرافي » يجعل نقاء الدم أمراً مثالياً ، وهو ما سيجعله يسقط في الفئة التي ترتكز على الفصل والحدود والعنصرية . هناك اثنان من العوامل المميزة لعلم التاريخ الكتابي يجذبان انتباهنا لعدم الوقوع في ذلك الخطأ :

● يحكي التاريخ الكتابي عن حياة الرجال والنساء من لحم ودم والذين عرفوا قفزات من الثقة والكرم ، لكن أيضاً فترات شك وخوف . ليست كل شخصيات الكتاب المقدس نماذج للفضيلة . يترك هذا التاريخ أيضاً الباب مفتوحاً أمام الغريب الذي هو دائماً يمثل ثراء . لكل المتمسكين بالنقاء العرقي ، يجيب الكتاب المقدس بالتذكرات : امرأة موسى صفورة كانت كوشية ، فعندما بلغ خمسة وثمانين عاماً تزوج من أثيوبية . فعاتبه أخوه وأخته على سلوكه ، لكن الله حمى نبيه وأجاب على الكلمات غير الطيبة لمريم بجعلها برصاء[١٣]. في سلسلة نسل أجداد يسوع المذكورة بمتى ، نجد أربع نساء اللاتي كنَّ من أصل أجنبي[١٤] :

(ثامار) تنتمي لقبيلة (عدلام) ، (وراحاب) تسكن (أريحا) ، كذلك (راعوث) و (بيثشبع) التي من (الحثيين) .

● لم يُسجَّل التاريخ لإرواء الحنين للماضي ، لكن لإنارة الحاضر . في العبرية الحديثة يرد المصطلح الذي يعني تقدُّم hitkadmout وجذره (kedem) والذي يعني « أصـــل »[١٥] . يتقاطع الأصل والتقدُّم ، التقدم والعودة للمصادر هي نفس الحركة كما يبينها هذا التعريف لعشاء الفصح ، : « سنعيش الماضي في الحاضر ، لصنع المستقبل » . في عدد من مرجع « Esprit » كتب (Paul Ricoeur) : « ليس هناك مجتمع دون مشروع دائم . . . وكيف يكون هناك مشروع لمجتمع ، إن لم يرتكز على مجموعة من القصص المروية « المحكية » ، ودون

* الباروك أسلوب فني ساد في القرن ١٧ وتميز بالزخارف والحركة والحرية في الشكل ، وهو أسلوب فني يخالف الأسلوب التقليدي أو الكلاسيكي . (المترجم)

(١٣) عدد ١٢ .

(١٤) متى ١ : ٣ و ٥ و ٦ .

(١٥) في كتابه عن الوصايا العشر ، يقول (Marc-Alain) إن الوصية الرابعة : « اذكر يوم السبت » يمكن أن تترجم « اذكر مستقبلك » . ويذكر (Rabbi Nahman de Barslav) : « ليس هناك ذكرى سوى العالم المستقبلي . (Les dix commandements) ، ١٩٩٩ ، ص ٩٥ .

حفظ التذكرة ؟ »[١٦] .

يوجد الترابط بين الماضي والحاضر في أهمية كلمة (اليوم) في التعبير الكتابي القائل : « الكلمة التي أعطيك اليوم » . يقول راشي : « إن تلك الكلمة لا تخص فقط اليوم الذي كتب فيه موسى هذا المقطع ، لكن أيضاً اليوم الذي يفتح فيه أي شخص التوراة »[١٧] . هناك تفسير لعيد الفصح يوضح هذه الفكرة بإعلان أن : « في كل جيل ، يجب أن نعتبر أنفسنا أننا في حالة الخروج من مصر » . ويقطع أحد الأتقياء بعداً في التحقيق بقوله : « يجب أن يخرج الإنسان كل يوم من مصر »[١٨] . في الطقوس الدينية لـ « Roch Hachana » ، كان العام اليهودي الجديد الذي يصنع ذكرى الخلْق ، يعلن للجميع بصوتٍ واحد : « اليوم نستطيع أن ندرك ماهية العالم » ، تدعو الذكرى لأخذ خطوات للخلف بالنسبة للحقيقة اليومية . فهي تدعو لمقاومة إغراء التفكير بأن العالم ينحصر في ما يعيشه الإنسان . إذا كان هذا صحيحاً ، فالعالم كله في الظلام . وإذا كان هذا جميلاً ، فليس هناك احتياج لله . تضع الذكرى مسافة بين الشخص وما اعتاد عليه . ويتسع تأثيرها لأكثر من ذلك ويمكنها أن تخلّص الشخص من عاداته . يُحكى أن طفلاً طلب من جده ، الذي كان مُقعداً (مشلولاً) ، أن يكلمه عن (Baal Shem Tov) الذي عرفه عندما كان صغيراً ، بدأ العجوز بالكلام عن الروحانية الملتهبة عند سيده . فقال إن ذلك السيد كان حاضراً كلياً في صلاته . عندما كان يصلي ، كان يتكلم ، يغني ، يصرخ ، يبكي ، ويرفع ذراعيه نحو السماء ويركع على الأرض ، وقد كان يحدث أيضاً أن يقفز ويرقص . وفي أثناء الكلام ، كانت عينا الجد العجوز تلمع . لقد حضر تماماً في ذاكرته تلاوة صلاة سيده ، كان يعتدل أكثر فأكثر ، وقام وأخذ يرقص كعادة سيده . ومنذ ذلك اليوم ، شفي الجد من شلله[١٩] .

إن أهمية الذكرى هي أن تُسمع في مجتمعنا الذي يشبه الجزيرة التي عانى فيها أحد أبطال الأساطير من الفشل بعد عاصفة رهيبة . وبعث ببحّارين ليتعاركا مع أهل البلد . فاستقبلهما هؤلاء بكل ترحاب ، وأدب ، ودعوهما ليشاركاهما أكلهم المعتاد . وقد كانوا (لوتسيين) أي من آكلي نبات اللوتس . وعندما يبتلع شخص ما هذا الطعام الشهي فإنه ينسى كل شيء ولا يتذكر أي شيء من ماضيه ، ويفقد كل حس لما هو عليه ، من أين يأتي ، وإلى أين يذهب . وعندما وجد رسل هذا البطل رفيقيهما كانا قد تخدرًا في فضاء من السعادة التي تشل ذاكرتهم . أليست تلك الجزيرة على صورة مجتمعنا الذي يقيم الحاضر واللحظي في ثقافة الـ (حالاً حالاً) ويمحو الماضي من ذاكرته ؟

كل تطور يحدث تغييرات ، ويزيد في الوقت نفسه من جاذبية الاحتفال بالأعياد والتذكارات (التذكر) . إذا كان الغرض من هذه الاحتفالات هو تعظيم الحنين للماضي ، إذن فليس لها أية أهمية . في المقابل ، إذا كانت فرصة لإعادة قراءة التاريخ لسؤال الحاضر واستخراج تحديات الحداثة ، إذاً فهي تظهر ما يدعوه (Ricoeur) « استيعاب الذكرى » وتحقق قصد ذكر تسلسل الأنساب في الكتاب المقدس .

(١٦) Esprit, Juillet- Août 1998, p.300.

(١٧) in Emil Fackenheim, ***Judaïsme au présent***, Albin Michel 1992, p.37.

(١٨) Martin Buber, ***Les récits hassidiques***, Editions du Rocher Monaco 1978, p. 391.

(١٩) Raconté par Marguerite Rosensthiel et Hélène Zuber, ***Raconter la Bible, Cerf Foi Vivante 385***, p.88.

الذكرى في مواجهة الحداثة

ينتمي كل شخص لتاريخ : تاريخه الشخصي ، تاريخ عائلته ، تاريخ السحابة الكبيرة للشهود الذين تتابعوا ليحملوا المعنى ، للأجيال المتتابعة الذين تصارعوا حتى يكون الخلْق عالم سكني .

هناك شهود في هذا التاريخ قد تكلموا . يستطيع كل إنسان أن يصرف وقتاً ليتذكّر رجالاً ونساءً كانوا مهمين في حياته ، حتى يكتب نسله الخاص به . هذا التمرين للذاكرة مفيد حيث يسمح بتأسيس جذور للنفس . تعطي الجذور صلابة ، فهي تمنع الشخص من أن يترك ليُحمل من الضربة الأولى للهواء ، العاصفة الأولى ، الاختبار الأول . إن شخصاً ، مجموعة من الناس ، كنيسة ، ليس لهم جذور ولا تاريخ إنما يعانون من الرخاوة والضعف وهم في خطر أن يحملهم تيار أول (موضة) آتية . إنهم مهددون بمرض الزهيمر (Alzheimer) ، هذا المرض المفزع الذي يسبب اضطرابات في الذاكرة ، ويمنع تدريجياً الحديث ، وفي النهاية يدمّر كل أنواع الاتصال . يشد هذا المرض انتباهنا إلى الطابع المميز للذاكرة . حيث أنه دون الصلة التي تربط الحاضر بالماضي ، القريب أو البعيد ، فإن الحياة الإنسانية تفقد تكوينها وتسقط في اللامعنى .

وبنفس الأهمية يمكن أن يثور سؤال إن الحداثة تميل إلى إلغاء معنى التاريخ حتى لا يُعطي قيمة إلا للتجديد ، اللحظية ، والزوال . إنه عالم مرتبط بأكثر من ارتباط . والذي فيه القيمة الرئيسية هي الصفر ، وهو عالم مهدّد بالحداثة . . والحداثة هي ذلك المرض الذي يكمن في الاعتقاد بأن كل شيء قديم سيىء ، وأن الصفر هو قيمة كبيرة . كل النظم الكلية تركزت على الصفر في البحث عن خلق إنسان جديد ، إنسان بلا ذكرى وبدون تاريخ(٢٠) . في مواجهة الحداثة ، يقول علم الأجناس « ستتذكر . ستكون رجلاً ، امرأة من الذكرى . ستعمق جذورك لتفهم عالم اليوم . ستتغذى من عُصارتها لتحمل ثمرة » . وهذا ما يقوله « إن المستقبل هو لمن له الذاكرة الأعمق » .

(٢٠) Voir Bernard- Henri Lévy, *Les aventures de la liberté*, Grasset 1991, p.321.ss.

فساد التاريخ

في كتابه (مستقبل الإنكار L'aveñir d'une négatian)[٢١] وضع (Alain Finkielkraut) في المقدمة عبارة « الأحداث عنيدة » . بالتعليق على هذا الموقف ، اضطر الكاتب أن يسجِّل أنه كثيراً ما يتم تحوير الأفعال لصالح الأيديولوچية السائدة ، ولكن كثيراً ما تكون الأحداث ليست بهذا الجمود ، بل تكون قابلة للتشكيل والتسخير بلا حدود .

في الصين والاتحاد السوفيتي ، أُعيدت كتابة الماضي لصالح الشيوعية في الاتحاد السوفيتي ، كان تاريخ الثورة يعاد في كل مرة مع تغيير في الفريق الحاكم والاتجاه السياسي . ويتم تعديل واستبدال الصور الرسمية لمحو وجه القادة أولاً بأول عندما يتم إقصاؤهم . في الصين كان التحول الثقافي عبارة عن مشروع تدميري لذاكرة الشعب الصيني عن طريق هدم مباني الماضي ، المتاحف ، أعمال الفن ، الكتب والمكتبات . كان هدف الجماعة المواجهة هو قطع الشعب عن ماضيه ، ومحو ذاكرته .

إنه بذلك ، وعلى نفس المنوال يجب تحليل ما يسمى عمل المراجعين الذين يعملونه ، باسم حرية الفكر ، على طمس أحداث الماضي لتتواءم مع سياستهم الجديدة . ويحاولون تجاهل الضحايا والشعوب المبادة على مر التاريخ . وهذه المسيرة ليست فقط مهينة ، لكنها أيضاً فاحشة في نظر الضحايا الذين يجدون أنفسهم مجبرين على دحض الادعاءات ، وكما قال برنارد هنري ليڤي : « أتعلمون ماذا نصنع لقتل رجل مرتين ؟ أن ننسى ببساطة أننا قتلناه مرة من قبل »[٢٢] .

---

(٢١) Alain Finkielkraut, ***L'avenir d'une négation***, Seiul 1982.

(٢٢) ***Question de principe deux***, Grasset, Le livre de poche Biblio essais 4052, p.167.



١٨

عالم ما قبل الطوفان

لا تطبخ جدياً بلبن أمه.

(خروج ٢٣ : ١٩)

١- وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات. ٢- أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حَسَنات. فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا. ٣- فقال الرب لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد. لزيغانه هو بشر وتكون أيامه مئة وعشرين سنة. ٤- كان في الأرض طغاة في تلك الأيام. وبعد ذلك أيضاً إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدْن لهم أولاداً. هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم. ٥- ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض. وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم. ٦- فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض. وتأسف في قلبه. ٧- فقال الرب أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته. الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء. لأني حزنت أني عملتهم. ٨- وأما نوح فوجد نعمة في عيني الرب. (تك ٦ : ١- ٨).

إن نوح شخصية كونية . وقد يكون الأكثر شهرة في الكتاب المقدس ، ربما أكثر من موسى وإبراهيم . والأطفال الذين ليس لهم إلا قدر ضئيل جداً من الثقافة الدينية يعرفون قصة نوح وفلكه الممتلىء بالحيوانات . وهذا قد حدث بسبب الطابع الكوني لنصوص الطوفان . ونجد منها تشابهات في الميثولوچيا المصرية أو في ميثولوچيا بين النهرين ، وأيضاً في الحضارات الأكثر بُعداً عن المحيط الكتابي مثل تلك التي للهنود الأمريكيين أو في الصين .

تقودنا هذه الكونية التي تشكل الكون لقراءة النص الكتابي مع كثير من الحرص لإيجاد الكلمة المحددة لنص التكوين .

لا- خلق

الطوفان هو فشل الخلْق . خلَق الله الدنيا التي كانت جميلة ، بل وجميلة جداً ، ولكن الأحداث التي كانت تدور أمام عينيه كانت تحزنه . فينظر ، ويرى شر الإنسان يتضاعف على وجه الأرض .

ولكي نفهم معنى عبارة « تأسُّف الله » ، فيجب العودة إلى المشروع الذي أقام الخليقة . تكونت حركة الخلْق التي قام بها الله من فصل ما كان ممتزجاً ، وتنظيم ما لم يكن سوى خراب غير منتظم . في اليوم الأول ، خلَق الله الوقت بفصلِ النهار والليل . وفي اليوم الثاني ، خلَق الأرض والسماء بفصل المياه العليا عن المياه السفلى . والثالث ، خلق الأرض المزروعة بفصل المحيطات عن اليابسة . خرجت الكلمة الخلاّقة لله من فصل غير المنتظم ، والتنظيم في الخراب . ولكن ماذا نرى في تطور الإنسانية ؟ يتزوج أولاد الله ببنات الناس .

وسنرى فيما بعد كيفية فهم التعبير (أولاد الله) ، لكننا نستطيع الآن رؤية ارتداد وتراجع في نظام الخلْق الذي يرتكز على التباين . وبالفعل ، عندما وصفوا عالم ما قبل الطوفان ، صوَّر المفسرون الربيون مجتمعاً فاسداً ، مميزاً بالجور واللوطية والحيوانية (الجنس مع الحيوان) . يقول المدراش : إن كل التباينات اختفت ، فيتزوج الكلب مع الذئب ، والديك مع الطاؤوس . حتى الأرض نفسها تقاد مثل مصرف ، فنزرع القمح وتنتج زواناً [١] . الفروق الأساسية بين الخير والشر ، الصواب والخطأ ، الإله والإنسان ، كلها قد اختفت .

يحكي في مَثَل أنه ذات يوم قرر الجمال والقباحة الذهاب للاستحمام . فوصلا عند حافة البحيرة ، وخلعا ملابسهما وغطسا في الماء . وخرجت القباحة أولاً ، واستغلت غياب الجمال لتلبس ملابسها قبل أن تخرج .

وعندما خرجت الجمال بدورها ، غضبت لسرقة ملابسها ، لكنها مجبرة بلبس الملابس الخاصة للقباحة . ومنذ ذلك اليوم ، فالتمييز بين الجمال والقباحة أصبح مشوَّشاً . أما في النص موضوع البحث فليس الجمال والقباحة هما فقط اللذان أبدلا ثيابهما لكن أيضاً ، الرجل والمرأة ، الشاب والطفل ، الإنسان والحيوان .

كان عالم ما قبل الطوفان هو عبارة عن مجتمع بدون تباينات ، حيث فيه الإنسان حيوان لا يبحث إلا عن إشباع رغباته ، لا يستطيع مثل ذلك التطور إلا الانفتاح على العنف . يحكي المدراش أن الأكثر قوة يستولون على النساء الجميلات ، ويقضي الرجال وقتهم في تحريك « علامات الحد » لحقولهم ليعتدوا على حدود الجيران ، وعندما لا يملك الفقير إلا سلة من الفاصوليا يسرق كل واحد منه و احدة بحيث يكون هناك ما لا يكفيه ولا يبقى له إلا الموت جوعاً[٢] .

والعالم الذي عاش فيه نوح كان يتجه تدريجياً نحو الخراب ، لدرجة أننا نستطيع التساؤل ما إذا كان الطوفان ، ليس إلا نتيجة لهذا الارتداد ؟

(١) Midrash Rabba, Tome 1 Genèse Rabba 28.8, Verdier1987, p.305.

(٢) Genèse Rabba 31.5 idem, p.321.

الجبابرة

هناك صورة تلخص محو الاختلافات ، وهي ظهور الجبابرة . نستطيع أن نتساءل عن من هم هؤلاء الخارقين ، ثمار تزاوج أبناء الله مع بنات الناس ؟ هل مازلنا في الكتاب المقدس أم انزلقنا جهة الخرافات الإغريقية ؟

لفهم هذه الصورة ، يجب العودة للتضاد بين الأطفال الصغار أولاد آدم وحواء الذي توصلنا إليه في الفصول السابقة . حنوك ، ابن قايين ، أعطى اسمه للمدينة الأولى في الكتاب المقدس ، بينما من أول أنوش ، ابن شيث ، ظهر اسم الله على الأرض . تميز نسل قايين بنمو المدن ، الفنون والصناعات ، وظهور تعدد الزوجات ، بينما يدرج نسل شيث في بند النسل الذي يبدأ بالتذكير بمثال الرجل والمرأة أمام الله : « يوم خلَق الله الإنسان على شبه الله عمله ذكراً وأنثى خلقهُ »[٣] . قال « ماركس Marx » : « إن على أي مجتمع أن يحاكم نفسه بالطريقة التي يتعامل بها مع النساء » . على هذا القياس ، تميز التضاد بين النسلين في الاختلاف بين تعدد الزوجات ، والزوج (رجل – امرأة) هو الذي فيه يرتسم تماثل الله . إن البُعد القياسي المتمثل في المرأة والذي يستخدم المرأة لوصف حضارة ما ، قد ظهر في النص في معنى الأسماء .

يأتي قايين من كلمة تعني (امتلاك) ، واسم حنوك يشير إلى تقديم مدينة أو أثر . إن جيل قايين – حنوك هو جيل الإنسانية التي تُعرف بمنشآتها ومقتنياتها ، على حساب ضرر الآخرين . ووصفه بعض المفسرين بجيل أبناء الناس .

شيث هو اسم يعني « الذي يسبب » وأنوش يعني « الرجل في ضعفه » . جيل شيث – أنوش هو الجيل الإنساني المدرك لضعفه ، الذي ينشأ وجهاً لوجه مع الله . أطلق عليه بعض المفسرين جيل أبناء الله .

ماذا نرى في بداية النص الذي نتأمله ؟ « أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل من اختاروا » . نستطيع تحليل هذه الآية المثيرة للحيرة بقول إن التقابل بين أولاد الله وبنات الناس يماثل الامتزاج بين نسل أنوش ونسل حنوك[٤] . الجيل « الصحيح » ، الخاص بأولاد الله ، لم يحافظ على صحته ، وانتهى بتقليد طريقة عيش الآخرين . . . . بالرغم من أن بناتهم كن جميلات أيضاً !

بهذا التقابل وُلد الجبابرة . وكأنصاف آلهة ، نستطيع فهم هؤلاء العمالقة كممثلين لجيل يهجر البُعد الروحي للإنسان ، حتى لا يتعلق إلا « بإنجازاته الطبيعية »[٥] بالفعل لم يكن الجبابرة إلا أقزام في مجال الروحانية ! اليوم ، ألسنا نحن نعيش في حضارة ينتفخ فيها البشر ويتكبرون أكثر فأكثر ؟ وتخلو الكنائس أكثر فأكثر ؟ هذا ليس لأن

---

(٣) تكوين ٥ : ٢ .

(٤) Louis Ginzberg, ***Les légendes des Juifs,*** Cerf collection Patrimoines: Judaïsme1997, p. 112.

(٥) رأينا أن (أنوش) تعني الرجل في ضعفهُ الإنساني . قد يفهم أيضاً « الالتصاق بالإنجاز الطبيعي » كما لو كان هروباً مقصوداً لحماية الضعف الأساسي الذي يصف حقيقة إنسانيتنا . تلك فكرة الجبابرة التي تلتقي مع فكرة الميثولوجيا الإغريقية . في كتاب ***L'univers, les dieux, les hommes*** لـ Jean Pierre Vernant الذي يقول إن الجبابرة يمثلون قوة الأسلحة ، والعنف في حالته النقية ، قوة الجسد ، الصغر الطبيعي . (Seuil 1999, p.53.) .

الضعف هو الأفضل ، لكن لملاحظة أنه ، عندما نقتل الروحانية ، ننقاد لإعطاء مزيد من الأهمية للإنجازات المادية .

وُصف جيل الطوفان بالعودة للخراب والامتزاج ، وسقوط موقع المرأة في تعدد الزوجات ، وخسارة البعد الروحي للإنسان . هذه الدلائل هي علامات لفشل الخلْق الذي وضّحه وأراده الله . « ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض . وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم . فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض . وتأسف في قلبه . فقال الرب أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته » .

اختيار الله

ينبّر المفسرون على أن الله انتظر أطول وقت ممكن قبل الحكم بالطوفان . لم يصنع الحكم المُهلك إلا عندما انتشر العنف على وجه الأرض والذي لم يحدّه حد[٦] . حسب التقليد ، انتظر الله مئة وعشرين عاماً بين اللحظة التي طلب من نوح أن يبني فلكه وأول قطرة مطر ، مئة وعشرون عاماً في أثنائها تمنّى أن يرجع البشر عن طرقهم السيئة .

قبل أن نقول إن الحل الذي اختاره الله يتميز بالصرامة ، علينا أن نقدر شعور الله بالأسف . صنع الله مراهنة على الحرية الإنسانية . فقد ترك ثمرة في وسط الجنة ليترك للإنسان حرية الاختيار والحركة . لم يرد أن يغلق عليه في قفص من ذهب ، لكنه ترك له اختيار قيادة حياته كيفما يشاء . لقد حذّره ببساطة : « إن لم تسمعني ، فسيقودك سلوكك للموت » . فضّل الإنسان اتّباع طريقه الخاص ، وخسر الله رهانه . إنه مثل قصة راعي الأغنام الذي ترك فتحة في سور حظيرته . فيتسلل الخروف إلى الشق ليخرج من حظيرته التي تحميه ، ليخرج إلى الوسع ويتذوق طعم المغامرة . وكان الخروف سعيداً حتى اللحظة التي أدرك فيها أن الذئب يتبعه . فجاء الراعي واصطحب الخروف بحنان إلى المرعى ، لكنه رفض دائماً أن يضع خشبة على الفتحة التي على السور لأنه يريد أن يترك الحرية لقطيعه . فخرج الخروف مرة أخرى وكان الذئب يتعقبه ، حذّره الراعي أيضاً . ويعاد السيناريو حتى اللحظة التي أُجبر فيها الراعي بترك الخروف لكي يأكله الذئب[٧] .

لكي نفهم ما عمله الله في الطوفان ، فعلينا أن نفكر في أب يترك الحرية لابنه . فقد أعطاه كل شيء وعلّمه بأفضل ما يستطيع ، لكن الطفل أصبح مجرماً وقاتلاً ، يريد الأب أن يكمل ويعيش مع ابنه ، لكن هذا الأخير أصبح عنيفاً وسارقاً أكثر فأكثر ، متكبّراً ومدمّراً . فإذا قرر الأب أن يترك ابنه ليكمل طريقه ، أفلن يفعل ذلك بحزن عميق ؟ أراد الله أن يلعب مع الإنسان لعبة الحرية . . . وخسر .

(٦) René- Samuel Sirat, *La tendresse de Dieu, Nil* 1996, p. 231 ، صُدم الله جداً بالعنف لدرجة أنه عند خروج الفلك ، قبل مطالبة الإنسان بالتكاثر ، أمره بالحفاظ على الحياة : « سافك دم الإنسان بالإنسان يسفك دمه لأن الله على صورته عمل الإنسان » (تك ٩ : ٦) .

(٧) D'après Anthony de Mello, *Comme un chant d'oiseau*, DDB 1994, p. 117

ستكون هذه القصة في غاية التشاؤوم إن لم توجد الآية الأخيرة : « أما نوح فوجد نعمة في عيني الرب »[٨] تكاثر البشر على سطح الأرض ، وكانوا جميعهم فاسدين . كان الخطر يهدد بالرجوع لليوم الأول للخلق ، للخراب الأولي ، للحظة التي لم يكن فيها إلا المياه على سطح الأرض . لو لم يكنْ هناك صالح واحد لكان الخلق كله قد ابتلعته الكارثة . رجل واحد ، وحيد مع أولاده ، يسمع صوت الله وينشيء فلكاً في وسط البلدة . الطوفان يهدد ، لكنه يحمل مجموعة صغيرة في داخله لإعادة البدء لتاريخ البشر . الحدث الكبير هو أن الله اختار العودة ، (الخالق) لم ينه مشروعه ، وبدأ مرة أخرى لإعطاء الحرية للإنسانية .

(٨) يحكي المدراش أن النعمة تعني أن إنقاذ العالم وإعادة بدء الخلْق لا تتوقف على استحقاقات نوح ، ولا أبنائه ولا أحفاده ، ولا الاستحقاقات المستقبلية لإسرائيل ، ولا حتى لاستحقاقات المسيح (المخلِّص) ، لكن فقط لإرادة الله وحدها التي تريد أن يعود الإنسان إليه .

بين السقوط والطوفان

ردّت بعض التحليلات الاعتبار لسلوك الرجل والمرأة اللذين أكلا من الثمرة المحرمة في الجنة . فهي تقول إنه سلوك يعبّر عن « حركة حرية » للإنسانية التي تخرج من سن الطفولة لتدخل في سن المسئولية البالغة .

هذه القراءة آخّاذة ومغرية . آخّاذة لأنها تتعارض مع القراءات المعتادة التي سمعناها حتى اليوم ، ومغرية لأن عندنا ميل تجاه التمرد . مشكلة هذه القراءة أنها متناقضة مع بقية سفر التكوين . إذا كان آدم وحواء قد تحوّلا إلى بالغين بمغادرة الجنة ، فماذا كانت عاقبة هذا الفعل الادّعائي للحرية ؟ أصبح الرجل قاتلاً لأخيه (قايين وهابيل) ، اخترع تعدد الزوجات وأقام حضارة العنف والامتزاج .

تدل الأصحاحات ٤ إلى ٦ من التكوين على أن عصيان الرجل والمرأة في الجنة لم يكن « حركة حرية » لبالغ يريد الوصول للحرية ، لكن طلب استرداد الحق لناضج يرفض أن يوضع أي حد لرغبته في الحصول على كل شيء . إن أكل الفاكهة لم يكن بالخطأ السعيد الذي يفتح للإنسان معرفة الأسرار ، إنه سقوط الإنسانية الذي ينمو في العنف والرفض .

يؤكد تاريخ القرن العشرين ما جاء في الكتاب المقدس ، لكننا أحببنا إعلان أن الإنسان قد أصبح ناضجاً صانعاً اختبار الحكمة والمسئولية . لكن يذكرنا (Mais Verdun, Auschwitz, Kolyma et le Rwanda) بقوة أنه بالصدفة يمكن الاعتماد على حكمة الإنسان . كما يقوله الفيلسوف Alain : « الحضارة هي قشرة رقيقة والتي تكفي صدمة واحدة لقطعها ، وتظهر البربرية (الهمجية) عبر التقطعات » .

قبل المراهنة على الجمال الطبيعي للإنسان ، وعلى قدرته ليكون بالغاً ، أليس من الأقيم سماع نص التكوين الذي يقول إن الإنسان عنده ، في أعماقه عطش لكل مقدرة تدفعه ليكون قاتلاً لأخيه . فهو إذاً في حاجة لوضع إطارٍ لحياته . عندما يتخلص الإنسان من الله ، فهو على حافة ناعمة ولزجة والتي تقوده للتخلُّص من أخيه .

وقتنا ووقت الطوفان

• ما هي العلامات الرئيسية التي تعرّف العالم الحديث ؟

• بتشابه الثقافات : في القارات الخمس ، ينمّي البشر نفس التذوق ونفس التطبيقات . يأكلون نفس الشيء ، يشاهدون نفس الأفلام ، يسمعون نفس الأخبار ويلبسون بنفس الطريقة .

• بالتوازي : فنحن نشارك في تقدير القيم ، الخير والشر ليسا إلا تقديرات شخصية ولكننا في الوقت نفسه نحرّم على الآخرين من السلوك الشخصي لهم . في المستوى الإجمالي نحرّم كل حكم فكري (عقلي) على السلوك الخاص للأشخاص . بالمثل فإن التباينات تضيع بين الرجل والمرأة ، البالغين والأطفال ، النهار والليل !

• نمو المدن هو ظاهرة طبيعية مؤثرة : في « عام ١٩٥٠ » ، لم يكن هناك سوى ثلاث تجمعات في العالم التي تصل إلى (١٠) ملايين نسمة (نيويورك ، لندن ، شنغهاي) . في « ١٩٧٥ » ، أصبحت ستة ، وفي « ١٩٨٥ » اثنتى عشرة ، وفي (٢٠٠٠) ثلاث وعشرين !

• تدفق العنف بانتظام : تحمل الوقائع انفجارات عنف والتي هي دليل على مجتمع فقد خصائصه . إنه لا يدل على عنف يمارس كوسيلة للوصول لهدف ما . إنه عنف في هيئته الفظة والعشوائية ، مثل انفجار فوضوي وغير منتظم .

• من بين معبودات اليوم ، نجد نمو الإنجاز الطبيعي . فالجبابرة من أبطال التنس ، لاعبي كرة القدم ، وأبطال الألعاب الأوليمبية ، جميعهم صاروا أبطالاً خارقين جدد .

• تشابه الثقافات ، فقدان القيم ، تنمية المدن ، تدفق العنف ، إنماء الإنجاز المادي . . . كل هذه التعريفات موجودة في المجتمع « القاييني » الموصوف في التكوين . يتشابه عالمنا أكثر فأكثر بمجتمع ما قبل الطوفان . . . . دون التكلم عن التغييرات الإقليمية ، الفيضانات ، العواصف ، دفء المناخ وخطره على منسوب الماء .

إذن ، ماذا يجب أن نفعله ؟ انتظار الطوفان ؟ تمنّي حكم الله ؟ هذا ليس ما يقوله الكتاب المقدس . تركيز النص ليس على العنف ، لكن على وجود شخص في هذا العالم ، التركيز على رجل وجد نعمة في عيني الله . نعمة لهذا الصالح الوحيد ، يقرّ الله بالعالم ، وينجيه من الدمار الشامل .



١٩

فلك نوح

دخلت في قدس الأقداس ورأيت الله جالساً في عرشه.
وقال لي: يا ابني فلتباركني فقلت عندها: لتكن إرادتك
سيدي! ليأتي خيرك متجاوزا سخطك لتتعامل مع
أولادك حسب رحمتك، للذين لا يستحقون بعدل ولكن
برحمة أيضاً! وأشار الرب برأسه، بعلامة قبول
(حسب التلمود Talmud)(١)

(تكوين ٦)

٩- هذه مواليد نوح. كان نوح رجلاً باراً كاملاً في أجياله. وسار نوح مع الله. ١٠- وولد نوح ثلاثة بنين ساماً وحاماً ويافث. ١١- وفسدت الأرض أمام الله وامتلأت الأرض ظلماً. ١٢- ورأى الله الأرض فإذا هي قد فسدت. وإذ كان كل البشر قد أفسد طريقه على الأرض. ١٣- فقال الله لنوح نهاية كل بشر قد أتت أمامي. لأن الأرض امتلأت ظلماً منهم. فها أنا مهلكهم مع الأرض. ١٤- اصنع لنفسك فلكاً من خشب جُفرٍ. تجعل الفلك مساكن. وتطليه من داخل ومن خارج بالقار. ١٥- وهكذا تصنعه. ثلاث مئة ذراع يكون طول الفلك وخمسين ذراعاً عرضه وثلاثين ذراعاً ارتفاعه. ١٦- وتصنع كواً للفلك وتكمِّله إلى حد ذراع من فوق. وتضع باب الفلك في جانبه. مساكن سفلية ومتوسطة وعلوية تجعله. ١٧- فها أنا آتٍ

(١) Traité Berakoth 7a

بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسدٍ فيه روح حياة من تحت السماء. كل ما في الأرض يموت. ١٨- ولكن أقيم عهدي معك. فتدخل الفلك أنت وبنوك وامرأتك ونساء بنيك معك. ١٩- ومن كل حي من كل ذي جسد اثنين من كل تدخل إلى الفلك لاستبقائها معك. تكون ذكراً وأنثى. ٢٠- من الطيور كأجناسها ومن البهائم كأجناسها ومن كل دبابات الأرض كأجناسها. اثنين من كل تدخل إليك لاستبقائها. ٢١- وأنت فخُذ لنفسك من كل طعام يؤكل واجمعه عندك. فيكون لك ولها طعاماً. ٢٢- ففعل نوح حسب كل ما أمره به الله. هكذا فعل. (تك ٦: ٩- ٢٢).

(تكوين ٧)

١- وقال الرب لنوح ادخل أنت وجميع بيتك إلى الفلك. لأني إياك رأيت باراً لديَّ في هذا الجيل. ٢- من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة ذكراً وأنثى. ومن البهائم التي ليست بطاهرة اثنين ذكراً وأنثى. ومن طيور السماء أيضاً سبعة سبعة ذكراً وأنثى. لاستبقاء نسل على وجه كل الأرض. ٤- لأني بعد سبعة أيام أيضاً أُمطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة. وأمحو عن وجه الأرض كل قائم عملته. ٥- ففعل نوح حسب كل ما أمره به الرب. ٦- ولما كان نوح ابن ست مئة سنة صار طوفان الماء على الأرض. ٧- فدخل نوح وبنوه وامرأته ونساء بنيه معه إلى الفلك من وجه مياه الطوفان. ٨- ومن البهائم الطاهرة والبهائم التي ليست بطاهرة ومن الطيور وكل ما يدب على الأرض. ٩- دخل اثنان اثنان إلى نوح إلى الفلك ذكراً وأنثى. كما أمر الله نوحاً. ١٠- وحدث بعد السبعة أيام أن مياه الطوفان صارت على الأرض. ١١- في سنة ست مئة من حياة نوح في الشهر الثاني في اليوم السابع عشر من الشهر في ذلك اليوم انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء. ١٢- وكان المطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة. ١٣- وفي ذلك اليوم عينه دخل نوح وسام وحام ويافث بنو نوح وامرأة نوح وثلاث نساء بنيه معهم إلى الفلك. ١٤- هم وكل الوحوش كأجناسها وكل البهائم كأجناسها وكل الدبابات التي تدب على الأرض كأجناسها وكل الطيور كأجناسها كل عصفور كل ذي جناح. ١٥- ودخلت إلى نوح إلى الفلك اثنين اثنين من كل جسدٍ فيه روح حياة. ١٦- والداخلات دخلت ذكراً وأنثى من كل ذي جسد كما أمره الله. وأغلق الرب عليه. ١٧- وكان الطوفان أربعين يوماً على الأرض. وتكاثرت المياه

ورفعت الفلك. فارتفع عن الأرض. ١٨- وتعاظمت المياه وتكاثرت جداً على الأرض فكان الفلك يسير على وجه المياه. ١٩- وتعاظمت المياه كثيراً جداً على الأرض. فتغطت جميع الجبال الشامخة التي تحت كل السماء. ٢٠- خمسة عشر ذراعاً في الارتفاع تعاظمت المياه. فتغطت الجبال. ٢١- فمات كل ذي جسدٍ كان يدب على الأرض. من الطيور والبهائم والوحوش وكل الزحافات التي كانت تزحف على الأرض وجميع الناس. ٢٢- كل ما في أنفه نسمة روح حياة من كل ما في اليابسة مات. ٢٣- فمحا الله كل قائم كان على وجه الأرض. الناس والبهائم والدبابات وطيور السماء. فانمحت من الأرض. وتبقَّى نوح والذين معه في الفلك فقط. ٢٤- وتعاظمت المياه علي الأرض مئة وخمسين يوماً. (تك ٧: ١- ٢٤).

(تكوين ٨)

١- ثم ذكر الله نوحاً وكل الوحوش وكل البهائم التي معه في الفلك. وأجاز الله ريحاً على الأرض فهدأت المياه. ٢- وانسدت ينابيع الغمر وطاقات السماء. فامتنع المطر من السماء. ٣- ورجعت المياه عن الأرض رجوعاً متوالياً. وبعد مئة وخمسين يوماً نقصت المياه. ٤- واستقر الفلك في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر على جبال أراراط. ٥- وكانت المياه تنقص نقصاً متوالياً إلى الشهر العاشر. وفي العاشر من أول الشهر ظهرت رؤوس الجبال. ٦- وحدث من بعد أربعين يوماً أن نوحاً فتح طاقة الفلك التي كان قد عملها ٧- وأرسل الغراب. فخرج متردداً حتى نشفت المياه عن الأرض. ٨- ثم أرسل الحمامة من عنده ليرى هل قلَّت المياه عن وجه الأرض. ٩- فلم تجد الحمامة مقراً لرجلها. فرجعت إليه إلى الفلك لأن مياهاً كانت على وجه كل الأرض. فمدَّ يده وأخذها وأدخلها عنده إلى الفلك. ١٠- فلبث أيضاً سبعة أيام أخر وعاد فأرسل الحمامة من الفلك. ١١- فأتت إليه الحمامة عند المساء وإذا ورقة زيتون خضراء في فمها. فعلم نوح أن المياه قد قلَّت عن الأرض. ١٢- فلبث أيضاً سبعة أيام أخَر وأرسل الحمامة فلم تعد ترجع إليه أيضاً. (تك ٨: ١- ١٢).

يذكر المدراش أنه قبل اليوم الأول ، صنع الله العديد من الخطط ليرى إذا كان العالم الذي يتطلع إليه لخلْقه سيقوم على ذلك . وفي كل مرة ، يسقط الخلْق الذي عزم عليه . صنع الله ستة وعشرين محاولة ، وباءت كلها بالفشل . فخلَق الله عندها التوبة والتي تعني الرجوع إليه . ومنذ تلك اللحظة فقط ، قام العالم الذي أراده[٢] . إن الذي يجعل العالم قائماً ، هو الخشوع الذي يقود البشر لمعرفة أنهم قد أخطأوا ، وأنهم ليسوا أسياداً . في الحقيقة

أن الغفران ليس علامة ضعف ، وهناك الكثير لتَعلُّم ما هو مختلف . عندما انجذب العالم بالكفاية إلى الحسد (الشهوة) ، والعنف ، لم يعد يستطيع أبداً الوقوف وسقط في الخراب الأول .

الطوفان هو فشل خلْق الله . لقد أراد عالماً يرتكز على التمييز بين الخير والشر ، النهار والليل ، الرجل والمرأة ، الإنسان والحيوان ، لكن صنع البشر منه أرضاً للعنف والامتزاج . عندما لا يكون هناك أي أمل للـ (التوبة) ، لا يبقى لله إلا هزيمته مما يؤدي إلى الشطب على عمله . الطوفان هو حركة لا -خلْق . خلَق الله السماء والأرض بفصل المياه السفلي عن المياه العليا ، والطوفان هو عكس هذا الفصل هو سماح للمياه العليا للالتقاء مع المياه السفلي : « في ذلك اليوم انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء »[٣] . الطوفان هو أكثر كثيراً من مطر عنيف أو فيضان استثنائي ، إنه انسحاب الله ، والعودة لموقف ما قبل الخلْق .

صالح واحد

مع ذلك . . . ، لم يعزم الله على شطب الخلْق . لقد فقد كل أمل في سعي الإنسان للرجوع إليه ، ولهذا أراد البدء من الصفر مع الإنسانية . لكن لذلك ، يلزمه واحد صالح ، واحد فقط ! في نسل شيث ، وجد نوح ، وكان هذا كافٍ لعدم تدمير الأرض . هذا الصالح الوحيد أعطاه الأمل الكافي حتى لا يغرق العالم في خراب ، ويبدأ من جديد في حركة لعبة الخلْق مع العالم ، ولعبة الحرية مع الإنسان .

يقول التلمود : « إن العالم يرتكز على ستة وثلاثين صالحاً وبدونهم لكان العالم قد لحقه الدمار » . كان يمكن أن ينجح إبراهيم في إنقاذ سدوم لو كان قد وجد عشرة صالحين[٤] . قام تاريخ الإنسانية على صالح واحد ! في عالم مهدد دائماً بالخراب ، العنف والامتزاج .

فالصالح هو الذي يُصلِح ، الذي يبطِل الشر والذي يَبقى وفياً في كل الظروف . يصف النص نوحاً قائلاً : « ولا باراً كاملاً في أجياله » . في وقت مبكر قال راشي (Rachi) إنه بالنظر إلى المطلق ، لم يكن نوح صالحاً ذلك الصلاح المطلق ، فهو لا يستحق المدح إلا بالمقارنة بفساد عصره . وبذلك ينطبق على نوح القول بأنه أفضل صالح من المخطئين . لم يكن راشي سعيداً تماماً بتحليله القاسي لنوح كواحد من الآباء ، ولذلك اقترح أيضاً التفسير المعاكس : إذا كان نوح صالحاً بينما يعيش في وسط جيل ضال ، فكم سيكون أكثر إذا كان قد عاش في وسط بشر يشجعونه على صلاحه ![٥] إذا نظرنا إلى معطيات الكتاب المقدس ، فإن نوحاً يتميز بالصبر الأكيد على طاعة كلمة الله ، والتي تأمره بإنشاء فلك في وسط أرض زراعية . لم يُذكر شيئاً عن حياة نوح الخصوصية قبل الطوفان ، لكننا نعتقد أنه يمتلك جرعة جيدة من الإيمان والثقة لتنفيذ مثل ذلك العمل . يذكر التقليد أن

---

(٢) D'après André Neher, ***Jérusalem, vécu juif et message***, éditions du Rocher 1984, p.96.

(٣) تك ٧: ١١ .

(٤) تك ١٨: ٣٢ .

(٥) Rachi, ***Commentaire du Pentateuque, la Genèse***, fondation Samuel et Odette Lévy, Paris 1993, p.37.

الإنشاء استغرق مئة وعشرين عاماً . مئة وعشرون سنة من العمل والعرَق قبل أن تأتي أقل عاصفة لتؤكد نبوة الإعلان الإلهي .

إنشاء الفلك

دعا الله نوح وأمره بإنشاء فلك يشبه صندوقاً . الكلمة ، من أصل مصري ، تعني صندوقاً مغطى بالقار عن كونه مركباً . في الكتاب المقدس ، لا يعني الفلك ملجأ لنوح ، فهو يعني أيضاً السلَّة التي وُضع فيها الطفل موسى ، والتي تركها أهله لتعوم في النيل لتصل إلى أقدام ابنة فرعون . إن التوازي بين النصين واضح حيث أن في كلاً من فلك نوح وسلَّة موسى ، أُنقذ رجل من المياه ، وكان أصلاً لتاريخ جديد(٦) .

كانت أبعاد الفلك مئة وخمسين متراً طولاً ، وخمسة وعشرين عرضاً ، وبارتفاع خمسة عشر ، كان الفلك بناءً جميلاً ، ونوح كان وحيداً عندما أنشأه . نستطيع التفكير بأنه إذا كان الإنشاء قد استغرق كل هذا الوقت الطويل (مئة وعشرون سنة) ، فهذا لأن في هذا العهد لم يكن هناك تكنولوجيا الموجودة اليوم . لكن يقول المفسرون إن الله جعل تنفيذ المشروع بهذا الطول بأمل أن يتوب البشر عن أفعالهم السيئة ، وأن يستغلوا الفرصة للرجوع عن قرارهم(٧) . كان الله يستطيع إنقاذ نوح بوسيلة أخرى ، أو كان يمكنه أن ينشيء الفلك بنفسه . إن هدف الله من إنشاء نوح للفلك يثير أسئلة عند معاصريه ومن كانوا حوله . لقد أراد دفع البشر ليسألوا نوحاً عن أسباب عمله ، حتى يقودهم للتوبة(٨) .

يقول مفسرون آخرون إن نوحاً صرف وقتاً طويلاً في البناء ، إذ كان يأمل أن الناس عندما يرونه يستعد للطوفان ، فإنهم يعدلون عن سلوكهم . عندما زرع نوح أشجار الأرز ليوفِّر الخشب لفلكه ، سأله الناس عندها فأجاب نوح : « يريد الله الإتيان بالطوفان . وأمرني بإنشاء فلك حتى أُنقَذ أنا وعائلتي . إذا رجعتم عن سلوككم ، لن يكون هناك طوفان » ! لكن الناس سخروا منه . وعندما روى نوح شجر الأرز الذي زرعه ، سأله الناس . فأعاد شرح ما يفعله ، لكن استمر الناس في السخرية . عندما قطع نوح الشجر وبدأ في الإنشاء ، ظل يدعو البشر للتوبة ، لكنهم لم يعطوا أي اهتمام لكلامه(٩) . نستطيع أن نفهم رد فعل جيران نوح . إنشاء مركب في شكل بيت ، في وسط أرض ، والتظاهر بصنعه ليستقبل كل حيوانات الدنيا عندما تبدأ في المطر القليل ، فهذا يبدو مثيراً للسخرية . في أيامنا هذه لم يكن نوح ليستطيع أن ينهي عمله ، حيث سيجد نفسه في مصحة أمراض عقلية ! لكن نوح صالح في جيله .

---

(٦) كلمة (فلك) تعني أيضاً (كلمة) ، ونفهم كل الغنى الذي وجده المفسرون في هذا التشبيه : « إنه بالكلمة أن أنقذ العالم » (*Tsimtsoum* ، *Spirtualites vivantes 105,1433* . Marc Alain Quaknin

(٧) Rabbi Yaacov Couli, ***Meam Loez, Genèse Tome 2***, Moznaim Publishing, Jérusalem 1993, p. 39

(٨) Rachi, ***Commentaire du Pentateuque, la Genèse***, fondation Samuel et Odette Lévy, Paris 1993,p.39

(٩) D'après Marie Vidal, ***Un Juif nommé Jésus***, Albin Michel 1996, p.56.

لم يخف من الانتقاد من جيرانه . لم يخش التعرض للسخرية والإذلال من ناس جيله ، بالعيش حسب كلمة الله عن العيش حسب عادات وتقاليد معاصريه . يقول المفسرون إنه حتى اللحظة الأخيرة ، توقّع اللهُ أن يتراجع البشر عن تصرفاتهم السيئة حتى يستطيع تحريك رحمته . حتى عندما بدأ في الإمطار ، في رغبة مطلقة يائسة ، أرسل الله أولاً أمطاراً هادئة وخفيفة . فإذا تاب البشر في تلك اللحظة ، لكان الطوفان المرسل قد استبدل بأمطار مفيدة . لكن لم يتب الناس . وإذن ، من اليأس أنزل الله أمطاراً عظيمة من المياه المغلية ، واحترق كل شيء ![10] .

حسب تقليد آخر ، بعد الندى الخفيف ، تكاثفت الأمطار وأصبحت عنيفة جداً حتى اللحظة التي وصل فيها منسوب المياه لرقبة البشر . فتوقفت الأمطار . كان هدف الانقطاع هو تنبيه البشر . عبر نوح من منزل لآخر ليحذر البشر من الهلاك المحقق : « جاء وقت الكارثة ! إذا لم تتغيروا ، فستختفون في سبعة أيام » ![11] . لكن لم يكن للناس حكمة أهل نينوى الذين سمعوا نبوءة يونان . فقد ظلوا منغلقين في أفعالهم السيئة ، وسخروا من نبي النكبة .

الحياة في الفلك

عندما أغلق نوح باب الفلك ، بدأت الأمطار وإذ وجد الحيوانات محبوسة ، شعر ببعض الاضطراب . تصف العديد من النصوص ، بطريقة تصورية ، حياة نوح أثناء وقت الطوفان الذي دام حسب التقليد ، عاماً كاملاً . يحكي التلمود أنه في أثناء وطوال كل ذلك الوقت ، لم ينم نوح ، إذ كان عليه الاعتناء بتقديم الطعام لكل حيوان في الساعة المحددة التي تناسبه . كان الـ (٣٦٠) غرفة وممراً مملوئين بكل صياح الحيوانات . ذات يوم عندما تأخر نوح في إحضار العشاء للأسد ، قام هذا بعضّه في كعبه وتركه يعرج باقي أيام حياته[12] . وعندما رآه العصفور (Phénix) فينيكس ، الذي تظهره الخرافة أنه خالد ، مريضاً ، قرر الامتناع عن الأكل حتى لا يثقل عليه بالمزيد من العمل . فأعطاه نوح مباركته : « لا يتركك الله تموت أبداً »[13] .

كان نوح ، البار ، منشغلاً تماماً بعمله اليومي حتى أنه لم يكن عنده وقت للصلاة . في أثناء ذلك الوقت ، كان الله يعمل ، ويعدّ المستقبل بوضع خطط العالم الجديد . ويقرر الاعتماد مرة أخرى على الإنسان في إعمار العالم ، لكن هذه المرة ، أعدَّ قانوناً أكثر تطوراً حتى تكون الحياة ممكنة في المجتمع . عندما أعدَّ العالم الجديد ، بدأت المياه في الهبوط . فبينما كانت تظل متقاذفة بأمواج الدمار والهلاك ، صنع نوح حركة أمل . ففتح نافذة الفلك ، مدَّ ذراعه ، وفتح يده ، وأطلق حمامة . كان إطلاق الطيور عادة سائرة عند البحّارة القدامى لمعرفة اتجاه الأرض . بحثت حمامة نوح عن أرض لتقف عليها ، فلم تجد شيئاً وعادت . وبعد سبعة أيام ، عاود نوح ، ومرة

(١٠) Jacob ben Isaac, Achkenazi de Janow, ***Le commentaire sur la Torah***, Verdier 1987. p. 81.

(١١) Rabbi Yaacov Couli, auvrage cité, p. 14.

(١٢) Elie Munk, ***La voix de la Thora, La Genèse***, fondation Samuel et Odette Lévy, Paris 1992, p.89

(١٣) Louis Ginzberg, ***Les légendes des Juifs***, Cerf collection Patrimoines Judaïsme 1997, p.119.

جديدة فتح نافذة الفلك وأطلق الحمامة . حتى اليوم الذي رجعت فيه بغصن زيتون في منقارها . هذا الغصن هو حامل الأمل ، إنه علامة على أن الحياة ظهرت مرة أخرى على سطح الأرض . ومنذ ذلك اليوم ، يرمز غصن الزيتون لقدرة الحياة بعد عبور الموت ، أمل السلام بعد دمار الطوفان . ارتعد نوح ثلاث مرات قبل أن يصله الغصن ، ويرى المفسرون بأنه في كل مرة يتهدد فيها السلام ، يجب عدم توفير الجهود والعودة للخدمة كلما يكون الإصلاح مطلوباً وضرورياً .

إذا كانت الحمامة قد عادت ، فهذا لأن نوحاً تركها تذهب . إن إطلاق الحمامة هو حركة أمل ومصالحة في عالم الظلمات والدمار .

تساءل المفسرون عن أصول هذا الغصن . فقال واحد منهم : إن أبواب جنة عدن كانت مغلقة حتى لا تصل مياه الموت إلى وسطها . عندما علت المياه ، فُتحت الأبواب ، ودخلت الحمامة لتأخذ ورقة من على شجرة . وكان من الممكن أن تأخذ ورقة أكثر حلاوة ، لكنها أتت بورقة الزيتون لتقول لنوح إنه من الأفضل أكل ورقة مُرَّة تأتي من يد الله ، عن أكل الحلو الآتي من يد البشر(١٤) ! .

وتساءلنا عن الأسباب التي من أجلها كان نوح باراً . تقدم لنا القراءة المتأنية لنص الطوفان ، إنساناً قادراً على الطاعة عندما أُمر بإنشاء فلك في وسط أرض زراعية ، قادراً على الصبر ليهتم بكل حيوانات الخلق لمدة عام كامل ، وقادراً على الوثوق عندما يفتح نافذة الفلك ليطلق الحمامة . وسيعيد حركته للأمل إلى أن تعود الحمامة حاملةً في منقارها غصن زيتون طازج . وفي ضوء هذا النص ، يقول التلمود إنه بالأبرار أُنقذ العالم . لم يظلم العالم في البربرية (الهمجية) والخراب ، لأن بعض الناس تظل قادرة على طاعة كلمة الله ، الصبر والأمل ، بالرغم من الخراب ، والعنف والامتزاج الذي يهدد كل شيء .

---

(١٤) Rachi, *Commentaire du Pentateuqe, la Genèse*, fondation Samuel et Odette Lévy, Paris 1993, p.49.

الكلمة، كنافذة؟

« وتصنع كوى للفلك » ، هذا ما تقوله إحدى الترجمات عن آية نصنا . لكن كلمة (فلكَ) قد تترجم أيضاً بـ (كلمة) . فنستطيع إذاً قراءة الآية هكذا : « أصنع من الكلمة نافذة » .

في بعض الأحيان تتشابه حياة البشر بفلك نوح ، عائمة على مياه الطوفان ، ليس لها شراع ولا دفة لتوجيهها ، وفي الداخل ظلام . إنه مملّ وكثير الضوضاء وليس مريحاً ، لكن هناك فتحة تنفتح . . . نحو السماء . هذه الفتحة هي الكلمة « إنه بتلك الفتحة أطلق نوح الحمامة » .

الكلمة مُحرِّرة . أعطي مثالاً مما حدث مع أحد السياسيين الأعضاء في لجنة « الحقيقة والمصالحة » التي كانت مكلفة بتصفية حسابات التفرقة العنصرية ، عندما تحولت جنوب أفريقيا إلى دولة ديمقراطية . هذه اللجنة كانت بقيادة ديزموند توتو ، رئيس أساقفة الطائفة الإنجليزية (الكنيسة الإنجليزية) . بحثت اللجنة عن حل وسط بين السكوت الذي كان عبارة عن ازدراء واحتقار للضحايا ، والتصديق على العقوبات الذي يخاطر بتدمير التوازن السياسي الهش ، فقد اختاروا « الكلمة » في مقابل العفو الشامل . إن من يمثلون المصالح بمختلف أنواعها يتراوحون بين ضحايا وجلادين تواجهوا في جلسة عامة . كان العفو الشامل مقروناً بأن يقدم من قاموا بالتعذيب اعترافات كاملة عما ارتكبوه . .

في واحدة من الجلسات العامة استطاع « لوكاس سكيوبر Lucas Sikwepere » الذي كان شاباً أعمى من جنوب أفريقيا فَقَد بصره بسبب تعذيب معاون شرطة ، أن يشهد قائلاً : « عندي شعور . . . بأن حضوري هنا لسرد حكايتي قد أعاد لي النظر . إذا كنت شعرت بمثل هذا الألم لمدة طويلة ، فهذا لأنه لم يكن هناك من يسمع لي . لكن اليوم ، بعد أن حكيت لكم حكايتي ، عندي شعور بعودة نظري مرة أخرى »(١٥) .

(١٥) العمل الملحوظ لهذه اللجنة روى في كتاب *Il n'y pas d'avenir sans Pardon* ، « Desmond Tutu » p. 163. لـ

الفلك مثل صورة الكنيسة

لم يفت على الكنيسة عمل مقارنة بين فلك نوح والكنيسة . وضع القديس أغسطينوس قراءة رمزية للفلك كمثَّل لجسد المسيح . ونذكرها فقط لأجل المتعة : « حصل نوح على أمر الله بصنع فلك ، ليلتجيء فيه هو وعائلته . . . أليس هذا الفلك الذي عليه أن ينقذه من كارثة الطوفان صورة بديهية (واضحة) . . . للكنيسة المخلَّصة بالخشب الذي تعلَّق عليه وسيط الله والبشر ، يسوع المسيح الإنسان ؟ فحتى مقاييس الطول ، الارتفاع والعرض تمثل الجسد الإنساني . . . . طول الجسد الإنساني ، من القمة حتى الأطراف هو ستة مرات عرضه من جانب لآخر ، وعشر مرات ارتفاعه أو سُمكه ، مأخوذ من سطح الظهر . . . ولهذا السبب قد صُنع الفلك على ثلاث مئة ذراع للطول ، وخمسين للعرض وثلاثين للارتفاع . وهذا الباب المفتوح عند الجانب (الكتف) هو الجانب الضحية المثقوب بالحربة (الرمح) ، هذه الضربة التي من خلالها يدخل الذين يأتون إليه »[١٦] .

إن القراءة الرمزية اليوم تلقى معارضة حيث أنها تحليل رجعي والذي هو استرجاع للنص . لكن إذا كان نص الطوفان هو نص كوني تماماً ، فهذا لأنه يقول الحقيقة الأساسية عن الطريقة التي حصل عليها الناس أنفسهم . تستطيع الكنيسة أن تقدم نفسها عبر هذا الفلك الذي تتقاذفه عواصف العالم . لقد كانت دائماً رمزاً لمركب حيث الصاري على شكل صليب .

(١٦) *La cité de Dieu*, 15.26, Bordars 1949, p. 124.



٣٠

العالم النوحي

صلوا من أجل الدولة!! فبدونها، لابتلع الناس بعضهم البعض أحياءً.

(الأب الأكبر حنينا Grand Prêtre Hanina)

(تكوين ٨)

١٣- وكان في السنة الواحدة والست مئة في الشهر الأول في أول الشهر أن المياه نشفت عن الأرض. فكشف نوح الغطاء عن الفلك ونظر فإذا وجه الأرض قد نشف. ١٤- وفي الشهر الثاني في اليوم السابع والعشرين من الشهر جفَّت الأرض. ١٥- وكلم الله نوحاً قائلاً: ١٦- اخرج من الفلك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك. ١٧- وكل الحيوانات التي معك من كل ذي جسدٍ الطيور والبهائم وكل الدبابات التي تدب على الأرض أخرجها معك. ولتتوالد في الأرض وتثمر وتكثر على الأرض. ١٨- فخرج نوح وبنوه وامرأته ونساء بنيه معه. ١٩- وكل الحيوانات كل الدبابات وكل الطيور كل ما يدب على الأرض كأنواعها خرجت من الفلك. ٢٠- وبنى نوح مذبحاً للرب. وأخذ من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور الطاهرة وأصعد محرقات على المذبح. ٢١- فتنسم الرب رائحة الرضا. وقال الرب في قلبه لا أعود ألعن الأرض أيضاً من أجل الإنسان لأن تصوُّر قلب الإنسان شرير منذ حداثته. ولا أعود أيضاً أميت كل حي كما فعلت. ٢٢- مدة كل أيام الأرض زرع وحصاد وبرد وحر وصيف وشتاء ونهار وليل لاتزال. (تك ٨: ١٣- ٢٢).

(تكوين ٩)

١- وبارك الله نوحاً وبنيه وقال لهم أثمروا واكثروا واملأوا الأرض. ٢- ولتكن خشيتكم ورهبتكم على كل حيوانات الأرض وكل طيور السماء. مع كل ما يدب على الأرض وكل أسماك

البحر قد دفعت إلى أيديكم. ٣- كل دابة حية تكون لكم طعاماً. كالعشب الأخضر دفعت إليكم الجميع. ٤- غير أن لحماً بحياته دمه لا تأكلوه. ٥- وأطلب أنا دمكم لأنفسكم فقط. من يد كل حيوان أطلبه. ومن يد الإنسان اطلب نفس الإنسان. من يد الإنسان أخيه. ٦- سافك دم الإنسان بالإنسان يسفك دمه. لأن الله على صورته عمل الإنسان. ٧- فأثمروا واكثروا وتوالدوا في الأرض وتكاثروا فيها. (تك ٩: ١- ٧).

في الـ ٢١ من يوليو ١٩٦٩ ، خطا رائد الفضاء الأمريكي « نيل أرمستروغ Neil Armstrong » الخطوة الأولى على القمر . إن وصول أول إنسان إلى كوكب آخر ليس فقط اكتشافاً علمياً ، ولكنه مغامرة إنسانية وروحية أيضاً . كان هناك تجربة مماثلة حدثت في وقت غير معروف ، عندما وضع نوح قدميه على الأرض الزراعية ، من بعد الطوفان .

من بعد تدمير الإنسانية ، مضت سنة كاملة ونوح في داخل الفلك ، وطلب الله من نوح الخروج مع أبنائه ، وامرأته ، ونساء أبنائه ، وكل الحيوانات التي كانت معه . عندما وضع قدميه على الأرض ، وطيء الأرض البكر ، وافتتح عصراً جديداً في تاريخ الإنسانية . ولتمييز هذه المرحلة ، أقام مذبحاً وأخذ من كل الحيوانات الطاهرة ما يؤخذ كذبيحة وقدمها ذبيحة لله .

ذبيحة نوح

لاحظ المفسرون أن قربان نوح كان محرقة . وحسب الناموس فإن هذا النوع من الذبائح يقدم لغفران الخطايا المرتكَبة ، ليس بالفعل بل بالفكر . فماذا كانت خطية نوح ؟ عندما رأى دمار العالم الذي أخربه الطوفان ، فكَّر قائلاً « كيف استطاع الرب ، المدعو رحيماً ومملوءاً النعمة ، أن يفعل كذلك دون أي رحمة لخليقته ؟ » .

وهكذا رد الله عليه : « الآن راودك هذا الفكر ؟ لماذا لم تسألني عندما أمرتك ببناء الفلك وأعلنت لك عن الطوفان ؟ لقد انتظرت صلاتك من أجل من حولك ، لكنك التزمت السكوت . عندما علمت أنك ستُنقذ ، لم تأت إليك فكرة الصلاة من أجل الآخرين . والآن ، وقد دُمِّر العالم قد أن أحزنك التخريب وأصبحت ثرثاراً ! »(١) .

أمام هذه التعبيرات ، أحنى نوح رأسه وقدم ذبيحة لكي يسامحه الله على أنانيته وأفكاره السيئة . نوح سار وسمح له بره بألا تخلع الإنسانية من الخلْق . لكن كان نوح باراً بدرجة أقل من إبراهيم ، لأنه لم يصلِّ للعالم بينما صلى إبراهيم لأجل سدوم . حتى وإن لم ترحم سدوم ، فإبراهيم كبير بسبب هذه الصلاة . قدم نوح ذبيحة بعد الطوفان ، لكن قبل أن يفعل كان من الممكن أن يبطل الحكم . يحكي أنه قبل الموت ، حصل موسى على

---

(١) D'après Elie Munk, ***La voix de la Thora, La Genèse***, fondation Samuel et Odette Lévy, Paris 1992, p.90.

ميزة مقابلة الأبرار لكل الأجيال التي سبقته ليناقشوا أفعالهم . فقال نوح : « أنا أكبر منك لأنني أُنقذت من الطوفان » . فأجاب موسى : « نعم لقد بقيت ، لكن وحدك . لماذا لم تنقذ معاصريك ؟ لماذا لم تقدم روحك ، مثلما فعلت لإسرائيل ؟ »[٢] ، عندما تشفعت في الشعب عندما عمل عجل الذهب[٣] .

هناك قراءة أخرى عن محرقة نوح ، باعتبارها ذبيحة شكر ، فطوال عام كامل ، لم ينم نوح لأنه تفرغ لعمل شاق لإطعام حيوانات الفلك . ومنذ أن وضع أنفه بالخارج . فأول شيء صنعه هو تقديمه ذبيحة الحيوانات الطاهرة التي اعتنى بها في بداية حياة جديدة ، لأرض جديدة وإنسانية جديدة ، سجل نوح التقدمة ، الشكر . إن اتجاهه للعرفان ، افتتح مرحلة جديدة لتاريخ الإنسانية ، سوف تهدّيء صانع الطوفان . اشتمَّ الله عطر الذبيحة ، وقال في نفسه : « لا أعود »[٤] . ليس الله خيالياً ولا يمارس الخيال الموجود في قلب الإنسان المعروف بشرّه منذ حداثته ، توجُّه نوح بالشكر ، فهو يعرف أن الطوفان والتدمير والإبادة ليست الإجابة الصحيحة للرد بها على شر الإنسان . إن الوعد بعدم إهلاك الحي يدل على أن الله سوف يمتنع عن الرجوع إلى هذا الحل المطلق . إنه يتخلَّى عن بعض مزايا ألوهيته حتى تستطيع الإنسانية النمو في عالم مستقر . سيذكر وعده في بقية المكتوب . في سفر إشعياء ، قال الله بفم النبي : « لُحيظة تركتك وبمراحم عظيمة سأجمعك . بفيضان الغضب حجبت وجهي عنك لحظة وبإحسان أبدي أرحمك قال وليك الرب . لأنه كمياه نوح هذه لي . كما حلفت أن لا تعبر بعد مياه نوح على الأرض هكذا حلفت أن لا أغضب عليك ولا أزجرك »[٥] .

الإجابة التي سجلها الله من الآن فصاعداً في وجه الثورة هي التذكير المستمر بالقانون والعدالة . بالنسبة للمسيحيين ، فالإجابة المطلقة لله في وجه الشر ليست أبداً تدمير الأرض ، بل موت ابنه . إنها ليست ذبيحة الإنسانية ، لكنها ذبيحة يسوع المسيح .

القانون

رد الله على غموض الإنسان المحمَّل بالشر . . . والذي هو أيضاً قادر على الشكر . بعد استقرار الخلْق (لا أعود ألعن الأرض) ، أعطى الله قانوناً للإنسانية :

- أثمروا واكثروا واملأوا الأرض .
- لتكن خشيتكم ورهبتكم على جميع المخلوقات الأخرى .

---

(٢) Rabbi Yaacov Couli, *Meam Loez Genèse Tome 2*, Moznaim Publishing, Jérusalem,1993, p.16.

(٣) التقابل بين موسى ونوح يتقاطع مع الاختلاف بين الأديان النبوية والأديان الشرقية . في الأديان ذات الأصل الهندي ، نفترض تطابقاً بين (براهما) و (الأتمن) أي الروح التي انبثقت منها جميع النفوس في الديانة الهندوسية . وبالعكس فالأديان الإبراهيمية ترتكز على المواجهة بين الله والإنسان . وقد تتناول هذه المواجهة دعوة كعدل الله ضد نفسه « لله تقطر عيني لكي يحاكم الإنسان عند الله كابن آدم لدى صاحبه » (أيوب ١٦ : ٢٠و٢١) .

(٤) تك ٨ : ٢١ .

(٥) إشعياء ٥٤ : ٧ - ٩ .

- تستطيعون أكل الحيوانات .
- لكي لا تأكلوا لحماً بحياته ، أي دمه .
- من يد الإنسان أطلب نفس الإنسان من يد الإنسان أخيه .

هذا القانون هو إعادة للمباركة التي أعطاها الله للزوج الإنساني الأول[٦] ، لكن مع بعض التعديلات . فهو يعلم أن العنف قد دخل العالم : لا يعيش الإنسان أبداً في انسجام مع عالم الحيوان ، وذلك لأن الحيوان رأى في الإنسان تغييراً وهذا واضح . في الأصحاح الأول من سفر التكوين حيث كان الإنسان يأكل العشب والثمار ، فكان الرجل والمرأة نباتيين . يقول المفسرون إن الحيوانات تعرف لغة البشر ، وأنهم احترموا الزوج الأول لأنهم رأوا صورة الله فيهما[٧] . وتغير كل هذا بالسقوط . بدءاً من نوح ، لا تعيش الإنسانية والعالم الحيواني أبداً في انسجام تام . يستطيع الإنسان قتل الحيوان ليتغذى ، لكن عليه في نفس الوقت احترامه . إذا كان يستطيع أكل لحم الحيوانات ، فيجب ألا يأكله بدمه ، لأن عليه أن يتذكر أن الدم يمثل الحياة ، والحياة لا تخصه ، بل تظل مقدسة .

يدعو الله الإنسان لاحترام قريبه . ويعلن له أنه لا يستطيع القتل دون عقاب ، لكن سيطلب دمه من أخيه الإنسان . مع هذه القوانين الخاصة بالقريب والحياة الحيوانية ، تبدأ الحياة الاجتماعية في الانتظام . شرح الربيون هذه الوصايا في ما نسميه بالقوانين النوحية[٨] .

القوانين النوحية

استلخص مفسر من القرن الثاني من العصر المسيحي سبع وصايا من قصة نوح ، وقال إنها تتكلم عن قانون كوني يخاطب كل البشر .

وهو يقول حتى الآن فمن يطبِّق هذه الوصايا السبع يعتبر رجلاً تقياً له نصيب في الحياة الأبدية .

- تأتي الوصية الأولى من الآية : « سافك دم الإنسان بالإنسان يسفك دمه » ، وهو يطلب إقامة العدل ، بوجود نظام شرعي ينظِّم العلاقات بين البشر . السلطة الأولى الضرورية للحياة في المجتمع هي الشرعية . عندما لا يكون هناك أي نظام شرعي لردع العنف ، فهذا هو الخراب ، واندلاع الشر . في كتاب (Traité de Pères) لـ (Pirké avoth) يقول الأب الأكبر (Hanina) : « صلوا من أجل الذين هم على رأس الحكم فبدون وجود الخشية من الحاكم فسيبتلع الناس بعضهم البعض أحياء »[٩] يشرح التلمود قول حبقوق : « لماذا جعلت الناس

---

(٦) تك ١ ، ٢٨ .

(٧) Louis Ginzberg, ***Les légends des Juifs***, Cerf collection Patrimoines Judaïsme, 1997, p.55.

(٨) Talmud de Babylone, Traité Sanhédrin 56a.

(٩) Pirké avoth 3. 2, ***in Les maximes des Pères,*** édition Colbo, Paris 1995, p.29.

مثل الأسماك في البحر؟ »[١٠] ومن بين التحليلات التي يتم بها تفسير هذا العدد واحد منها ينطبق على وظيفة الحكم : « مثلما في البحر ، تبتلع الأسماك الكبيرة الأصغر منها ، هكذا الرجال الأكثر قدرة ، لا يخشون السلطات ، ويبتعلون الآخرين »[١١] .

وضع الربيّون على فم قايين الكلمة الكبرى التي يستطيع الرجل إعلانها : « عدالة أكثر عقاب أكثر ! » وتبع حفيده لامك نفس الدرب بقوله : « إني قتلت رجلاً لجرحي وفتى لشدخي »[١٢] . عندما لا يكون هناك رد على الإهانة بالتأديب ، فإن الأخذ بالثأر سيظهر : « سأدوس على قدمك ، وستعطيني لكمة في أنفي ، فأقتلك ، فيقتل ابنك كل عائلتي وسيسحق ابن عمي قريتك » ! . يمنع النظام الشرعي الاشتباك وذلك بوضع مسافة وشخص ثالث بين الطرفين[١٣] . لا يتم العقاب بالثأر ولكن بالتهذيب والإصلاح .

• أما الوصية الثانية فهي تتأصل في الفعل البسيط بأن الله يطالب الناس بعدم الإقدام على أن يلعنوه . إنه لا يتكلم عن عبادة الله ، ولا حتى الإيمان به ، لكن بعدم لعنه (سبّه) ، أي قبول وجود إله . الانفتاح على اللانهائي ، والمتسامي ، هناك المطلق والأكثر قيمة من الإنسان ، يجب أن يحترم من الجميع . يبدأ الدستور الفيدرالي السويسري بالدعاء : « باسم الله القدير » . وعندما روجع ، منذ بضع سنوات ، تمنّى المحررون الحفاظ على هذه الدعوة ، ليس لإعلان أن سويسرا بلد مسيحي ، لكن لتعريف قدرة الله . لقد أرادوا التعبير بأن : « الرجل والدولة يعرفان أنه في هذا العالم يوجد ما هو أكبر منهم »[١٤] . عدم لعن الله ، هو ترك مساحة للتأمل الروحي .

• تحرم الوصية الثالثة الوثنية . ونجد التحريم خلف الآية التي تقول : « أعطيتكم كل شيء » . يتكون سلوك العبودية من إعطاء شبه إلهي لمن هو ليس كذلك . إذا كان الله يعطي كل شيء ، فهذا لأن كل شيء يخصه . فعلينا إذن عدم عبادة لا الحيوانات ، ولا المصادر ، ولا الجبال ، ولا الكواكب ولا التماثيل (الأصنام) ، ولا النقود ، ولا القدرة ، ولا التليفزيون ، ولا الرياضة ولا الحداثة ، ولا . . . إن تحريم الوثنية هو جوهر الوصية السابقة التي تطالب بعدم لعن الله . مثلما على الإنسان حفظ سؤال الله المفتوح ، فعليه في نفس الوقت أن يحفظ نفسه من اعتبار النسبي مطلق . كتب (Simone Weil) : « لسنا مطالبون بالإيمان بالله فقط ولكننا مطالبون بعدم الهيام بالآلهة الخطأ »[١٥] . وهو ما يعني أيضاً : « تستطيع أن تكون ملحداً ، لكن على الأقل لا

---

(١٠) حبقوق ١ :١٤ .

(١١) Talmud de Babylone, Traité Avoda Zara 4a.

(١٢) تك ٤ : ٢٣ .

(١٣) مدينة سدوم التي ترمز لرفض الله للخليقة ، مميزة بغياب النظام الشرعي . حسب التلمود هناك حكام يسمون بالكذابين المزيفين ، ضد العدل Cf. ***Contes talmudiques***, traduit de l'hébreu par Gérard Hadad, Hachette, Paris 1999, p.22.

(١٤) Jean-Marc Chappuis, ***Aujourd'hui dimanche***, Labor et Fides 1987, p.97.

(١٥) محبة الله بلا عبودية

تكن وثنياً » . يدفع التلمود بهذا القول حتى يصل إلى العبارة التالية : « كل رجل يرفض عبادة الأوثان يسمى يهودياً »[١٦] .

في رواية (الشيطان) كتب ديستوفسكي : « إن الإلحاد التام يحتل الدرجة قبل الأخيرة التي تسبق الإيمان التام . إن الإلحاد النقي هو اعتقاد يصارع كل أنواع العبودية وكل المعبودات . إن مشكلة العالم ليست الكفر ، إنما الوثنية » .

• تحرم الوصية الرابع الزنا . ونفهم ذلك من الآية الأولى للأصحاح ٩ : « وبارك الله نوحاً وبنيه وقال لهم أثمروا واكثروا » . هناك مبدآن يصاحبان مباركة الله ، الكلمة والإكثار . بالتكلم مع نوح وأبنائه وبمطالبتهم بأن يكونوا مثمرين ، صنع الكتاب المقدس الرباط بين الكلمة والجنس . الجنس هو علامة مباركة الله عندما يكون مصحوباً بكلمة تسجله في مشروع . إنه مثمر عندما يرتكز على كلمة تصنع الترابط وتعطي المعنى . يكلِّم الأب الابن الذي بدوره سيحكي لأطفاله . وبدون الكلمة ، فإن العلاقة الفاسقة تكون صامتة (ساكنة) ، غير مصحوبة بأي وعد ولا أي مشروع ولا أي مستقبل . علاقة جنسية بدون كلمة ليست إلا إشباع لاحتياج طبيعي .

• تطالب الوصية الخامس بعدم القتل . وهذا وارد صراحة في الآية القائلة : « ومن يد الإنسان اطلب نفس الإنسان من يد الإنسان أخيه » . في العبرية ، كلمة (إنسان) تُقال (adam) والتي هي أيضاً اسم الشخص المخلوق الأول . حسب التقليد الربيني ، كل إنسان ، كل آدم ، هو هذا الشخص الأول ، إنه الإنسانية له وحده . الذي يقتل إنساناً يعادي الخلْق ، ويفسد صورة الله . إن الذي ينادي بأنه يجب التخلص من الذين يسببون الضّجر هو إنسان ضد الطبيعة . يدعو قانون الله كل واحد لمعرفة قريبه كأخ ، أخت . كل إنسان ، أياً كان ، يمثل الإنسانية . عدم قتل القريب ، هو ترك مكان له ، السماح له بالعيش . إنه أخيراً تطبيق القاعدة الذهبية التي نجدها في الأناجيل ، التلمود ، وأغلب الأنظمة الدينية ، وعند العديد من الفلاسفة : « لا تفعل للآخرين ما لا تحب أن يفعلوا بك » .

• بعد وضع الاحترام للقريب في جيله ووجوده ، تطلب الوصية السادسة باحترامه في عمله وممتلكاته . فهو يقول : « لا تسرق » . وتأتي من الوصية التي تطالب نوح وأبناءه بملء الأرض .

إن الإنسان بعمله يطيع الوصية ، وهو لن يعمل إذا لم تُحترم مجهوداته وإذا لم يحظ بالتقدير العام نتيجة أفعاله الحسنة . أصرَّ كثير من الربيين ، على احترام ممتلكات الآخرين ، ووضعوا التفسيرات المطوَّلة على الطريقة التي يتناول بها الآباء البطاركة هذا الناموس عندما يرعون قطيعهم . تحريم السرقة يشجع على احترام القريب واحترامهم الوحيد لعمله .

• تتكلم الست وصايا الأولى عن العدالة ، الله والقريب ، تخص الوصية السابعة عالم الحيوان . إنه يحرِّم القسوة

(١٦) Talmud de Babylone, Traité Meguilla 13a.

بتحريم انتزاع أحد أعضاء الحيوان الحي[١٧] . وهي تظهر في التعليمات المعطاة لنوح بعدم أكل لحم بدمه . الحيوان ليس شيئاً ، أنه كائن مخلوق من الله . وعندما دخل العنف إلىَ العالم وأصبح للإنسان أن يأكل لحم الحيوان ، فعليه ألا يأكله بدمه . وضع الله حداً لـ (استخدام) عالم الحيوان حسب الآية الجميلة لسفر الخروج الذي يقول : « إذا رأيت حمار مبغضك واقعاً تحت حمله وعدلت عن حله فلابد أن تحلَّ معه »[١٨] . طبقاً للوصية الأخيرة فنحن لا نستطيع التظاهر بالارتباط مع الله والتصرف بوحشية مع الكائنات الحية .[١٩] ستقضي هذه الوصية بتحريم الصيد كرياضة ، ومصارعة الثيران كتجمهر (مباراة) ، ووضع القوانين الأقل عنفاً من أجل ذبح الحيوانات .

هناك آية في التثنية تقول : « من كل ما تشتهي تأكل لحماً » .[٢٠] لاحظ المفسرون أنه نادراً ما تأخذ التوراة في حسابها رغبة الرجل في وصاياها ، يجب إذاً شرح هذا التعبير ، هناك تحليل يخرج منه نموذج لاتِّباع النظام النباتي : السماح بأكل اللحم هو امتياز صُنع لإنسانيتنا ، لكن الأفضل سيكون الامتناع عن أكل اللحم[٢١] .

تلك القوانين السبعة ، تسمى القوانين النوحية وتوجه إلى كل البشر ، وذلك ليس بالضرورة يكون إلهاماً إلهياً . هذا يعني أن كل إنسان لديه بالغريزة في عمق قلبه اعتقاد بأن المجتمع في حاجة لجهاز شرعي ، وعليه ألاَّ يلعن الله ، ولا يعطي نفسه للوثنية ، ولا أن يكون فاسقاً ، ولا قاتلاً ، ولا سارقاً ، ولا قاسياً . وهذا يشير إلى أن كل إنسان ، يتساءل بكل صراحة عن مبادىء الحكمة ، فسيصل إلى تلك القوانين . تعترف القوانين النوحية بأن للإنسان إدراكاً وأنه حتى لو كان بعيداً تماماً عن أي وحي إلهي ، فهو لديه في أعماقه معنى للاستقامة و العدل . وهي مسجلة في ما أسماه الإغريق « قوانين غير مكتوبة » والتي لها قيمة كونية . والإنسان قادر على معرفتها بفضيلة روحه الخاصة[٢٢] . نحن نعرف كل الرجال والنساء الذين يتميزون بسلوك متميز وراقي دون إيمان ديني . بالقوانين النوحية ، يستطيع الإنسان قول كل الخير دون الحاجة للرجوع لسلطة ظاهرة .

إذا كان كل إنسان يستطيع الوصول بنفسه لاكتشاف القوانين النوحية ، فما هي الشراكة المحددة للكتاب المقدس ؟ إنه يقول عن أصل القانون الذي هو سابق للإدراك الإنساني . الحكمة ليست ضد الله ، إنها غير ممكنة إلا لأن الله أطال أناته ورفض تدمير العالم وحفظ الخلْق ليدبر خلاصه .

أما بالنسبة للذين يرتكزون على هذا الوعد ليبشروا بالطمأنينة في وجه الخطر الذرِّي ، فيجب تذكُّر أن الله قد وعد نوح بعدم تدمير العالم ، ولم يقل إنه سيمنع البشر من فعل ذلك .

---

(١٧) يضع فرضاً احتمالياً أن الحيوان يتم تقطيع أعضائه وشرب دمه الساخن .

(١٨) خروج ٢٣ : ٥ .

(١٩) Emile Fackenheim, ***Judaïsme au présent***, Albin Michel 1992, p.337.

(٢٠) تثنية ١٢ : ٢٠ .

(٢١) Chlomo Aviner, ***Le verger de Joël***, diffusion Sifriat, “Hava, Beit El Israël 5754, p.179.

(٢٢) وضَّح « Emile Fackenheim » في تلك الأثناء أن المقارنة بين الارتباط النوحي والقوانين الطبيعية لا تستطيع أن تظهر هكذا من نقطة محددة . بالفعل ، لا شيء عند الإغريق لا يقترح فكرة أن القانون محمول (مسنود) بعهد من الألوهية لصالح الإنسانية . لم تعد الآلهة الأولمبية أبداً بأي شيء وأن إله الفلاسفة الإغريق هو مماثل للإنسانية ولمصيره ، ص ٣٣٩ (idem) .

ملكي صادق

قد تعتبر شخصية غامضة مثل مقدّم القوانين النوحية ، إنه ملكي صادق الوارد ذكره في أصحاح ١٤ من التكوين ، ملك ساليم التي وصفها البعض بأنها أورشليم . اسمه يعني ملك السلام . يقول تقليد الربيين إنه يتكلم عن سام ابن نوح . رمزياً ، مثَّل (ملكي صادق) الإنسانية التي لا تعرف إله إسرائيل ، ولكنها تعيش بطريقة صالحة ، حسب قوانين نوح . إنه كاهن العلي ، لله الذي خلْق السماء والأرض . وعندما قابل إبراهيم ، فهذا هو الدين الكوني الذي يتقابل مع الدين الكتابي ويحترم كل منهما الآخر بتقديم هدايا متبادلة .

أحضر ملكي صادق الخبز والخمر (النبيذ) وأحضر إبراهيم العشور وأكَرَمه . في العهد الجديد ، تمثلت ذريّة ملكي صادق بالمجوس الذين أحضروا هدايا للمزود . إنهم يمثلون الإنسانية الوثنية التي في حكمتها الكبيرة ، تعرف الله الذي تجهله .

في الرسالة للعبرانيين ، كان يسوع هو الكاهن الأكبر حسب نظام ملكي صادق لقول إن الإنسانية كلها مختصة بحكمه .

في مقابلة إبراهيم مع ملكي صادق ، نجد الأساس الكتابي لهذا اللقاء والتعامل بين كل البشر بملء الإرادة ، في الكفاح من أجل العدل والسلام .

القوانين النوحية والكنيسة الأولى

النزاع الأكبر الذي ظهر في الكنيسة الأولى هو حفظ الوصايا اليهودية . وهذا يتأسس حول القطبين اللذين يمثلهما يعقوب ، أخو يسوع . وهو مسئول عن مجمع أورشليم ، وبولس الذي سُمي رسول الأمم .

بقي يعقوب في أورشليم وواظب على الحضور والصلاة في الهيكل . كان يعتقد أن المسيحية يجب أن تبقى في قلب اليهودية ، ومن هذا المنطلق فإن الذين يرجعون عن عبادة الأوثان عليهم احترام وصايا اليهودية .

وأما بولس ، فكان له رأي مخالف . فالناموس أكمله المسيح . فقد أُعطي **الناموس لوقت** ، لإعداد مجيء المخلِّص ، لكن بعد القيامة بدأ عصر جديد مميز بالحرية جنباً لجنب مع التعليمات الطقسية . ويرى بولس بأن الختان والقوانين الطقسية كانت مانعاً أمام انتشار الإيمان الأوحد اليهودي .

وقد بحثت المجموعتان الموضوع في مجمع أورشليم[٢٣] . وكانت النتيجة الاستمرار بالعمل بالناموس بالنسبة لليهود المسيحيين واستثناء الأمم الذين جاءوا إلى المسيحية من الوثنية من تنفيذ التعليمات الطقسية . وهذا القرار كان مصحوباً برسالة إلى الأمم المسيحيين والتي فيها نصَّت على ما هو مطلوب منهم ، وهذه أحد هذه المطالب « امتنعوا عن تقديم الذبائح للأوثان ، من دم ، وحيوانات مخنوقة وفجور » .

حاول العديد من المفسرين التقريب بين تعليمات هذه الرسالة والقوانين النوحية[٢٤] . ولا يجب البحث عن تواز محدد جداً مع وصايا نوح ، لكن التناسب واضح : تحريم تقديم الذبائح للأوثان والامتناع عن الفجور (الزنا) ، وتحريم خنق الحيوان ، وهي كلها موجودة في قائمة نوح . لم نذكر القوانين الأخرى لأنها نابعة من نفس الفضائل . احترام الله هو أساس الإيمان المسيحي ، والثلاث قوانين الأخرى (قيام نظام شرعي ، تحريم القتل والسرقة) كانت محرَّمة من قِبل الامبراطور الروماني .

---

(٢٣) أعمال الرسل ١٥ : ١ – ٢٩ و غلاطية ٢ : ١ – ٩ .

(٢٤) Voir notamment Schalom Ben-Chorin, ***Paul, un regard juif sur l'apôtre de gentils,*** DDB 1999, p. 102ss.



٢١

قوس قزح

إنه نفس الماء الطازج والغزير الذي يسقط على الحقل حتى يتفتح الخشخاش البري بلون أحمر والزهر الأزرق بلون أزرق.

(بازيل ذي سيزاري Basile de Césarée)

٨- وكلم الله نوحاً وبنيه معه قائلاً. ٩- ها أنا مقيم ميثاقي معكم ومع نسلكم من بعدكم. ومع كل ذوات الأنفس الحية التي معكم. الطيور والبهائم وكل وحوش الأرض التي معكم من جميع الخارجين من الفلك حتى كل حيوان الأرض. ١١- أقيم ميثاقي معكم فلا ينقرض كل ذي جسد أيضاً بمياه الطوفان. ولا يكون أيضاً طوفان ليخرب الأرض. ١٢- وقال الله هذه علامة الميثاق الذي أنا واضعه بيني وبينكم وبين كل ذوات الأنفس الحية التي معكم إلى أجيال الدهر. ١٣- وضعت قوسي في السحاب فتكون علامة بيني وبين الأرض. ١٤- فيكون متى أنشر سحاباً على الأرض وتظهر القوس في السحاب. ١٥- أني أذكر ميثاقي الذي بيني وبينكم وبين كل نفس حية في كل جسد. فلا تكون أيضاً المياه طوفاناً لتهلك كل ذي جسد. ١٦- فمتى كانت القوس في السحاب أُبصرها لأذكر ميثاقاً أبدياً بين الله وبين كل نفس حية في كل جسد على الأرض. ١٧- وقال الله لنوح هذه علامة الميثاق الذي أنا أقمته بيني وبين كل ذي جسدٍ على الأرض . (تك ٩: ٨- ١٧).

طبقاً لليهودية ، فإن الشخص الذي يمر بفترة حداد ، عليه أن يتلو صلاة قاديش (قدوس) التي تعظِّم اسم الله . إنها طريقة لعدم ترْك النفس للغرق في التجربة بإعلان عظمة وقداسة الله ، في اللحظة التي قد يستطيع فيها الواقع أن يشكك في قداسة الله . وتقول واحدة من عبارات هذه الصلاة : « أنت صانع السلام في السموات ،

اصنع لنا سلاماً على الأرض » ، وقد رأينا أنها تقدم فكرة السلام الكتابي ، الذي يرتكز على مصالحة المتضادات : الرجل والمرأة ، المزارع والرحَّال ، الليل والنهار ، الماء والنار . . . نحن لا نعرف ما إذا كان نوح كان يتلو (القاديش) عندما خرج من الفلك ، أمام بقعة الخراب التي رأتها عيناه ، لكنه قد أصعد لله ذبيحة . سمع الله صلاة نوح وصنع مصالحة في السموات . وقبَّلت الشمس والسموات بعضهما البعض ، ووُلد من معانقتهما قوس في السحاب . إن القوس أكثر من رمز سلام ، إنه يعلن وعد الله بعدم تدمير الأرض . هذا الوعد ليس فقط قولاً ، بل وتمَّ التعبير عنه أيضاً . وضع الله في الجَلَد (السماء) علامة تذكِّره بعهده في كل مرة يوشك فيها الإنسان على النسيان .

العلامة مثل مُذكِّرة

إن قوس قزح هو علامة للإنسان ، لكنها أيضاً لله . عندما تظهر بعض السحب ، يرى تقابل الألوان في السماء ، ويتذكر اتحاده . منذ أن خرج نوح وأبنائه من الفلك ، هي المرة الثالثة في بعض الآيات أن يتكلم الله عن الوعد بعدم تدمير الأرض ، إنه في كل حال تعهد من جهة الله[1] . منذ ذلك اليوم ، في كل مرة يتكاثر فيها الأشرار على الأرض ، ويعزم الله – بمقتضى حكمه العادل – على تدميرهم ، تمتليء السموات بالسحاب والغيوم وتصبح سوداء . لكن من بعد الصاعقة والأمطار يظهر قوس قزح في الجَلَد ، ويتذكَّر الله . رحمته أكثر من عدله في ذكرى اتحاده مع الأحياء وتعهده بعدم تدمير الأرض للأبد . إن قوس قزح هو التوقيع (الإمضاء) النهائي الذي يضعه الله في نص خليقته . لقد خلق العالم ، وأوكله للإنسان والذي منحه إدراكاً وقانوناً . والآن يعد بعدم التدخل بعنف في تاريخ الإنسانية ، حتى وإن كان يعرف أن قلب الإنسان محمَّل بالشر . في واحد من كتبه ، كتب فرويد (Freud) : إن عدداً من الأفكار التي يعود واحد منها للطفولة هي في الواقع ترجع إلى أحاديث دينية[2] . إن الخوف المبتذل هو رهبة أمام الكوارث الطبيعية . الهدف من نص الطوفان هو مقابلة هذا الخوف لوضعه في علاقة مع وعد الله الذي يتعهد بعدم إحداث كوارث عظيمة .

لتذكُّر هذا التعهد ، فإن قوس قزح هو ذكرى حقيقية . وضع الله في تاريخ إسرائيل بانتظام علامات للإنسان ليتذكر الأعمال المميزة لتاريخهم .

- الختان هو علامة الاتحاد بين الله وإبراهيم ونسله .
- يجب أن يؤخذ عشاء الفصح في ذكرى التحرير الذي أعطاه الله لشعبه عندما كان في العبودية .
- السبت له دلالة مزدوجة . إنه موضوع كوقت للتذكُّر لعدم نسيان خلْق الله ، لكنه أيضاً كوقت راحة لتذكُّر الأعوام التي عرفت فيها إسرائيل العبودية .

---

(١) القديس (يوحنا فم الذهب) أحد آباء الكنيسة ، قد وضع على فم الله التعهد التالي : « أتعهد ، لكل القرون التالية بعدم إطلاق غضبي أبداً ، وعدم قلب سياق المواسم وأنظمة عناصر الخليقة . . . سيبقى النظام الموضوع ثابتاً لا يتزعزع ، لن تكف الأرض عن تقديم احتياجات الإنسان ، بالتبادل مع إرهاقه وتعبه ، لن تنقلب المواسم ، البرد والحر ، الصيف والشتاء سيبقون في مكانهم في مسار السنة . . . سيتابع الليل والنهار دورتهما دون إخفاق ، وسيكملان مهمتهما دون انقطاع حتى نهاية القرون . . .

(٢) Sigmund Freud, *L'avenir d'une illusion*, PUF 1971.

• بعد عبور الأردن التي فتحت لهم دخول أرض الموعد ، يجب على العبرانيين الالتزام باثنى عشر حجراً ، واحدة لكل عشيرة ، لعدم نسيان هذا العبور .

كل واحد من تلك الذكريات له وظيفة لتثبيت الذكرى . بالنسبة لله ، فقوس قزح هو طريقة لتثبيت عهده بعدم تدمير الأرض . الوعد ليس إلا كلمة منطوقة ، إنها منقوشة في الخلْق بطريقة تدعو لعدم النسيان . في تفسيره ، حدَّد راشي (Rachi) أن هناك اثنين من الأجيال التي لم يكن لهما احتياج لقوس قزح ، إذ إنها كانت كاملة « بارَّة » والتي يمكن أن تستثنى من العلامة[٣] .

قوس قزح هو ظاهرة طبيعية تنتج من انكسار وانعكاس أشعة الشمس في قطرات الماء . وهذا تعريف فيزيائي . وهناك تعريف أكثر شاعرية عندما يعتبر قوس قزح لمحة الخالق ، وهو تعريف أكثر بلاغة من مجرد تعريفه بأنه نتيجة نعمة الله[٤] وتساءل المفسرون الربيون عن معرفة إذا كان القوس موجوداً قبل الطوفان . فأجابوا بنعم ، لكنهم أضافوا : « قبل الطوفان ، كان القوس بكل بساطة ظاهرة جوية طبيعية ، ومنذ الطوفان ، أصبح علامة مباركة الله » . منذ ذلك اليوم ، في كل مرة يرى فيها قوس قزح ، يعلن اليهودي المباركة على الله الذي يتذكر الاتحاد ، الذي هو وفِّي في اتحاده ، ويكمل كلمته .

يحكي أن رجلاً قضى عاماً كاملاً في عمل تمرينات روحية بحثاً عن الاستنارة ، وفجأة توصل إليها فصرخ قائلاً « يا للدهشة التي لا حدود لها ، أأشق أنا الخشب ؟ وأسحب أنا ماء البئر . »[٥] ليس مدهشاً أن يشترك البشر الزائلون فيما يحدث خلال مجريات الحياة اليومية ، لكن الذي حصل على الاستنارة يملك نظرة قادرة على سماع همسات الله في أقل قطرة أو أصغر قطعة خشب بسيطة . وبنفس الطريقة قد لا نرى في قوس قزح شيئاً آخر سوى ظاهرة جوية أكثر منها جمالية فلسفية . لكن الذي انفتح على وجود الله سيرى فيه أيضاً علامة لوفائه ورحمته . إن قلب الإيمان يكمن في قدرة التعجب (الاندهاش) .

العلامة مثل رمز

ثمرة امتزاج الماء والنور ، يتكلم قوس قزح عن الاتحاد بين الله والبشر ، نفخته وترابنا ، كلمته وأرضنا ، إذا كان الماء هو علامة الموت والإفناء عند الخروج من الطوفان العظيم ، فقوس قزح يتكلم عن نور الله بالرغم من الدمار والخراب .

يتكون قوس قزح من سبعة ألوان . تستطيع رمزياً تمثيل سبعة أحكام للنور الإلهي مثلما تقترح الصلاة اليومية لليهود : « باركنا يا أبانا ، كلنا معاً ، بنور وجهك ، ربنا وإلهنا ، قانون الحياة ، حب الفضيلة والعدالة ، المباركة ، الرحمة ، الحياة والسلام »[٦] .

---

(٣) بالنسبة لـ (Rachi) ، فلقوس قزح نفس الوظيفة التي للقداسة في علم اللاهوت البروتستنتي ، إنه علامة تذكِّر وتعبِّر عن نعمة الله .

(٤) Elie Munk, *La voix de la Thora, La Genèse,* fondation Samuel et Odette Lévy, Paris 1992, p. 100.

(٥) Anthony de Mello, *Comme un chant d'oiseau,* DDB, 1994, p.22.

(٦) Elie Munk, ouvrage cité, p.100.

في هذه الصلاة ، السبعة ألوان النور هي إشعاعات للحب الإلهي .

يتكلم قوس قزح عن الله ، لكنه أيضاً صورة لألوان الإنسانية وتنوُّع البشر . تحكي أسطورة أنه في يوم جميل ، تجادلت كل ألوان العالم . يزعم كل واحد منها أنه الأجمل ، والأكثر نفعاً ، والأكثر أهمية ، والأكثر نقاء . قال الأحمر إنه الحياة لأنه يلوِّن الدم ، فأجاب الأزرق إنه الروح لأنه يلوِّن السماء ، وزعم الأصفر أنه يستحق الملك لأنه مثل الشمس ، وأجاب الأخضر بأنه الأمل لأنه لون الطبيعة في الربيع . وكثر ضجيج جداً وصار أكثر عنفاً لأنه كان مثل الشمس في اللحظة التي ظهر فيها نور يعمي في السماء ، مصحوباً بزئير قوي ، ثقيل وعالٍ جداً ، وسقطت الأمطار بقوة ، مثل طوفان جديد . فخافت الألوان ، والتصقت ببعضها البعض . فعندها أخذ المطر الكلمة قال لهم : « لماذا تتجادلون ؟ إذا كان الله قد خلقكم مختلفين جميعاً ، فهذا ليس لتكونوا في منافسة ونزاع ، بل لأن كل واحد منكم فريد ، ويدعوكم لتعيشوا في تجانس الواحد مع الآخر ! اقتربوا بجانب بعضكم الآن . لأريكم ما يريد الله لكم ، سوف ينشركم عبر السحاب » .(٧) منذ ذلك اليوم ، في كل مرة يبعث الله فيها الأمطار لغسل السماء وري الأرض ، يضع قوسه في السحاب . ويذكِّر بأن كل إنسان مخلوق باختلافه ، محبوب في تفرُّده ، ومدعو للعيش بجانب قريبه ، في تكامل ألوانهم المتتالية .

العهد والنعمة

لا يتكلم قوس قزح عن الله واستحقاقاته ، بل يذكر الإنسانية أيضاً في رخائها واختلافها ، مع كل الألوان التي تكوِّنه . الله والإنسان ، السماء والأرض ، النور والماء ، كلهم متحدين بالقوس في ألوانه السبع . ونفهم لماذا أنه علامة مميزة بالعلاقة الجديدة التي يريد الله وضعها مع البشر . هناك مصطلح يلخص هذه العلاقة : الاتحاد .

كلمة « الاتحاد » توحي بعقد ، مشاركة ، رباط شرعي بين الأشخاص الذين ليسوا مرتبطين بروابط طبيعية . فكرة الاتحاد قد تكون الإسهام والإمداد ، الأكثر أصالة للفكر العبراني للتاريخ الديني للإنسانية . بالنسبة للإنسان ، إله الاتحاد ليس هو منافساً ولا حامياً يدافع تلقائياً عن شعبه ضد الآخرين ، ولا سيداً أو ملكاً يجب الخضوع إليه ، إنه شريك ، والذي معه يدخل في علاقة لمزاولة مثمرة . الاتحاد الكتابي هو عمل مشترك تبقى أصالته في كونه أن البشر لا يبحثون عن الله الذي يحميهم فقط ، بل إنه ارتباط بإله يتنازل عن بعض امتيازاته ليرتبط مع الإنسانية .

التحالف مع نوح ، والذي كان فيه قوس قزح يصف علاقة الله مع الإنسانية من بعد الطوفان ، يتميز بصفتين :

- أنه غير مشروط ، وأنه في المقابل للاتحادات المستقبلية التي سيعقدها الله مع الإنسانية ، لم يكن الاتحاد مع نوح اتفاقاً بين طرفين متراضيين بحرية . لم يعد نوح بشيء ، ولا شيء مطلوب منه . أخذ الله التعهُّد ، أمام المخلوقات الإنسانية والحيوانية ، بعدم تدميرها ، مهما كان سلوك الإنسانية المستقبلية . تعهُّد الله هو من جهته فقط . وهو غير مشروط ، ويتميز بطابع النعمة .

---

(٧) D'après Jean Vernette, ***Paraboles pour aujourd'hui***, Droguet et Ardant 1991, p. 102.

كانت النعمة موجودة حتى في قرار الله بإنقاذ الإنسانية مع نوح . بخصوص الآية : « وجد نوح نعمة في عيني الله » ، يحكي المدراش أنه لإنقاذ العالم ، لم يأخذ الله فيّ الاعتبار أي استحقاق لنوح ، ولا أي استحقاق لأهله أو أسلافه . ولا أي استحقاق لأبنائه ، وأحفاده ونسله ، ولا لأي استحقاق لإسرائيل ولا للمخلّص نفسه . أنقذ الله العالم لأن النعمة بلا مقابل . المرة الأولى التي صنع الله فيها الوعد بعدم تدمير الأرض أبداً قال : « لا أعود ألعن الأرض أيضاً من أجل الإنسان لأن تصوُّر قلب الإنسان شرير منذ حداثته . ولا أعود أيضاً أميت كل حي كما فعلت »(٨) . ويمكن ترجمة هذه العبارة هكذا « لن ألغي أبداً الأرض بسبب الإنسان لأن قلب الإنسان شرير منذ حداثته » . لنكن واثقين من أن الإنسان لا يفكر في أنه بسبب استحقاقاته أن الأرض قامت . يقول التكوين بطريقة تتميز بالمفارقة ، إن حفظ الخلْق متعلق بصلابة قلب الإنسان . يرتكز اتحاد الله على التعهد الأحادي لله ، بالرغم من الشر الموجود في قلب الإنسان .

سنتقابل مع عهود أخرى فيما بعد نوح وكان أكثرها أهمية هي تلك التي عُقدت مع إبراهيم ، ومع موسى على جبل سيناء . ستكون تلك العهود محتومة وأبدية ، لأن الله لن يعود في كلمته ، لكن سيكون على البشر الإكمال من جهتهم .

يجب على إبراهيم حفظ علامة العهد في غرلة الختان ، ويجب على موسى حفظ القانون الذي أعطاه الله له . كل واحد من تلك العهود خصوصي ، مع رجل وأسرته ، ثم مع شعب ، سيسجل بداخل اتحاد أكثر عمومية جداً والذي يربط الله مع جماعة الإنسانية والتي تعرف بالنعمة .

• ومن الجانب غير المشروط ، يميز عهد نوح أن الله حدَّ من حريته . قبل الطوفان ، استعمل الله أسلوباً جذرياً وعنيفاً في علاقته مع الإنسانية . أمام فشل الخلْق الأول ، قرر ، لأنه لديه الوسائل ، أن يمحو كل شيء ويبدأ من جديد . بالاتحاد الذي كان فيه قوس قزح هو العلامة ، قرر استعمال أسلوب غير عنيف لم يضع لنفسه أي تصوُّر في قلب الإنسان الذي كان شريراً منذ حداثته ، لكنه أخذ القرار بعدم التدخل أبداً بطريقة جذرية وعنيفة . لقد أعطى وصية للإنسانية كي تسمح له بالعيش في تناغم . من الآن فصاعداً ، سيتدخل ليُذكِّر ويدعو البشر لتتبعه ، لكنه لن يتدخل أبداً بطريقة تسلطية وعنيفة لإيقاف الشر . واحدة من أكبر صعوبات الإيمان هي التساؤل عن الشر . أمام العنف ، الحرب ، المجاعة ، الظلم ، . . . لا نستطيع التساؤل : « ماذا يصنع الله ؟ لماذا لا يتدخل ليمنع كل تلك الفظائع ؟ » قد تكون صورة القوس بألوانه المتعددة إجابة على هذا السؤال . عند الخروج من الطوفان ، أخذ الله التعهد بعدم التدخل بالعنف ، حتى وإن كان ذلك قد يعارض رغبتنا لإله يحل كل المشاكل من فوق في سمائه .

هناك مقطع في التلمود يعمّق هذه الفكرة .(٩) إنه يتساءل عن الأسباب التي من أجلها كان رجال السنهدريم ، في عصر الكاتب (اسدراس Esdras) ، قد دعيوا هكذا . ويجيب أن هذا بسبب أنهم أعادوا لله

(٨) تك ٨ ، ٢١ .

(٩) Talmud Babylone, traité Yoma 69b.

مجده الأصلي . وبالفعل ، فقد دَعي موسى الله ، « العظيم ، الجبار ، المهيب »[١٠] ، فيما بعد تساءل إرميا عند لحظة تدمير الهيكل الأول برؤية رقص الوثنيين في قدس الأقداس : « أين هو الجبار الذي يأمله – الله » وقد أزال كلمة (المهيب) من خصوصيات الله[١١] . ثم أتى دانيال وقال : « أخذ الوثنيون أولاد الله في العبودية » وأزال كلمة « الجبار »[١٢] . وأخيراً أتى رجال السنهدريم وقالوا مرة أخرى عن الله : « العظيم الجبار المخوف »[١٣] . أرادوا قول : « كل هذا بالعكس يثبت قدرته ورهبته التي يأملها . هذا عبَّر عن فعل قدرته التي سيطر بها على غضبه وأظهر صبراً نحو الخطاة » . السكوت والصبر لله ليست علامات غيابه أو عدم قدرته ، لكن لعظمته . في منطق قوس قزح ، صنع الله الاختبار بترك الحكم الذاتي للخلْق ، وتحمُّل مسئولية الإنسانية .

نفهم أن قوس قزح هو أكثر بكثير من ديكور موضوع من الله لتزيين الجَّلَد أيام المطر . إنه حقاً إعلان لعلاقة جديدة والتي يريد الله إقامتها مع الإنسانية ، علامة لنعمته وتمييزاً لتعهده .

منذ ذلك اليوم ، في كل مرة يتنزَّه الإنسان فيها في الشارع أو في الريف ، ويشاهد قوس في السماء ، يستطيع تذكُّر تاريخ نوح . يستطيع التذكُّر أن الله اختار صنع النعمة لعالمنا ، وأنه يدعو كل الإنسانية للعيش في نفس التناغم الذي تعيشه السبعة ألوان لقوس قزح .

---

(١٠) تثنية ١٠ : ١٧ .

(١١) إرميا ٣٢ : ١٨ .

(١٢) دانيال ٩ : ٤ .

(١٣) نحميا ٩ : ٣٢ .

العهد

بالعبرية ، كلمة (عهد) لها نفس أصل فعل (خلْق) ، وهو فعل يعني أيضاً (يقطع ، يشرح) . عندما صنع الله العهد مع إبراهيم ، قال الكتاب المقدس إنه قطَع عهداً مع إبراهيم[١٤] . باختلاف العبرية ، كلمة عهد بالفرنسية هي من نفس عائلة الفعل (يصل) . عمل عهداً (اتحاد) يقدم فكرة الربط ، والجمع .

في الكتاب المقدس لا يبحث العهد عن محو الاختلافات ، إنه معاهدة والتي فيها كل واحد له مكانه المحدد (المعروف) ، وسنجد مبدأ أساسياً للخلْق . والذي يرتكز على الفصل ، التمييز ليس للعزل ، لكن لإعطاء كل واحد مكانه المخصص .

إذا كان القوس ، يربط السماء بالأرض ، فهذا ليس لتقديم مزيج بين واقعين ، لكن لقول إن لكل واحدٍ دور يلعبه في العقد (العهد) . الله في السماء ، ينشغل بحفظ الخلْق . الإنسان على الأرض ، عليه أن يتعلم العيش عليها في تناغم مع إخوته حسب القوانين المعطاة لنوح .

(١٤) تك ١٥ : ١٨ .

ذاكرة الله

في بداية الأصحاح الثامن ، يتذكر الله نوح ، وفي الفصل التالي ، يقول إنه عندما يرى القوس في السحاب ، سيتذكر عهده مع الأحياء . وقد أتينا بالذكرى التي طلبها الله من الإنسان في وصاياه القائلة : « تذكَّر » . إذا كان الإنسان مدعو للذكرى ، فهذا لأن الله نفسه ليس ناسياً .

بانتظام ، في الكتاب المقدس يصرخ الإنسان المضطهد لله : « لماذا نسيتني ؟ » في وجه الخطر ، يأمل الإنسان على الأقل أن يكون في ذاكرة الله ولو جزئياً بإجابة هذا السؤال المحزن . يُذَكر إشعياء النبي : « وقالت صهيون قد تركني الرب وسيدي نسيني . هل تنسى المرأة رضيعها فلا ترحم ابن بطنها . حتى هؤلاء ينسين وأنا لا أنساك . هوذا على كفي نقشتك »[١٥] .

بقوس قزح ، لا تكون الذاكرة شاردة أبداً ، فهي مميزة بالعلامة . عندما يقول الله إنه سيتذكَّر ، لا يصنع قوله فقط بل ويُعلِّمه (يُميِّزه) . ونجد نفس الفكرة في المعمودية . بالكلمة ، يقول الله للمعمَّد : « لقد دعوتك باسمك منذ بدء تاريخك . لقد كوَّنتك من أعماق الأرض ونسجتك في بطن أمك . ونقشت اسمك في راحة يدي . وأحفظ لك حناناً لانهائياً وأهتم بك . لقد وضعت فيك كل فرحي .

الشخصية التي يعطيها الله ليس فقط ملفوظة ببساطة ، إنها مُحتفَلة في علامة الماء . إن ألوان القوس ، مثل ماء المعمودية ، تصبح رموزاً ذات معنى قوي للمصطلح : إنها تقول شيئاً آخر غير الكلمات ، حقيقة ضرورية عن ذاكرة الله .

---

(١٥) إشعياء ٤٩ : ١٤ – ١٦ .

٢٢

أبناء نوح

منذ السقوط، يجب وجود أسرار وحياء.

(ديتريش بنهوفر Dietrich Bonhoeffer)

١٨- وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك ساماً وحاماً ويافث. وحام هو أبو كنعان. ١٩- هؤلاء الثلاثة هم بنو نوح. ومن هؤلاء تشعبت كل الأرض. ٢٠- وابتدأ نوح يكون فلاحاً وغرس كرماً. ٢١- وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خِبائه. ٢٢- فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجاً. ٢٣- فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء. فلم يبصرا عورة أبيهما. ٢٤- فلما استيقظ نوح من خمره وعلم ما فعل به ابنه الصغير. ٢٥- فقال ملعون كنعان. عبد العبيد يكون لإخوته. ٢٦- وقال مبارك الرب إله سام وليكن كنعان عبداً لهم. ٢٧- ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام. وليكن كنعان عبداً لهم. ٢٨- وعاش نوح بعد الطوفان ثلاث مئة وخمسين سنة. ٢٩- فكانت كل أيام نوح تسع مئة وخمسين سنة ومات. (تك ٩: ١٨ - ٢٩).

عندما خرج من الفلك ، قدم نوح ذبيحة لله الذي أجابه بمباركة وقوس قزح . هنا يمكن إعادة كتابة تاريخ الإنسانية مع إضافة بعض التجديدات : ليست الأرض ملعونة أبداً ، للإنسان الحق في أكل الحيوانات ، ولن يكون هناك طوفان أبداً .

عودةً مرة أخرى للأرض الخضراء ، احتفلت عائلة نوح بنهاية الطوفان ، لكن بعد الحفلة ، يجب البدء في

العمل . وأول شيء صنعه نوح هو زراعة الكرْم . ويظهر بذلك أنه إنسان ذوّاق ، الآن ولأنه يستطيع أكل اللحم ، فإنه يقول لنفسه إنه ليس من شيء أفضل من زجاجة خمر لمصاحبة شريحة لحم جيدة .

الكَرْم والسُكْر

بالنسبة لمؤمن ، فإن امتلاك كَرْم ، وتذوُّق فاكهته والاسترخاء في سلام تحت ظلّه ، هو لذة ، شيء يشبه حلماً مسيانياً ، والخمر هو علامة لمباركة الله . يوم السبت ، يبارك اليهود الكأس ، والأحد صباحاً يمرره المسيحيون في ذكرى العشاء الأخير ليسوع المسيح .

لكن هل كان نوح يعلم أنه من بعد كمية محددة من خمر الكرْم يتحول لخائن ؟ . يحكي المدراش أنه عندما زرع نوح كرْمه ، ذهب الشيطان ليراه وعرض عليه أن يشترك معه . فقبل نوح ، وأخذ الشيطان نعجة (شاة) وذبحها على الكرْم . ثم أخذ أسداً وذبحه على الكرْم . وأخيراً أخذ قرداً وخنزيراً وذبحهما على الكرْم . منذ ذلك اليوم حيث سُقي حقل الكرْم بدم تلك الحيوانات ، في كل مرة يشرب فيها الإنسان كأس خمر واحد ، يكون عذباً وهادئاً مثل الشاة (النعجة) ، وعندما يشرب منه اثنين ، يعتقد نفسه قوياً مثل الأسد ويعلن قدراته المادية ، وعند الكأس الثالث ، يبدأ في التصرف مثل قرد مع التلفُّظ بعبارات غليظة ، وإذا استمر في الشرب ، يشبه خنزيراً يلوّث ملابسه ويمرمغ نفسه في الوحل[١] وهنا تظهر المقولة : « كأس واحد حسن ، ثلاث كؤوس تبدأ الخسائر » وهي حالة نوح .

كان من الممكن أن يكون ذلك المفسِّر طريفاً إن لم يكن دراميا . الخمر مرض ، سجن ، وباء . إذا كان الخمر يستطيع أن يكون علامة مباركة الله ، فنحن نعلم جميعاً أن حياة كثير من البشر بينهم أطفال ، وأزواج قد كُسرت بسبب الكحول . . . وبدون إحصاء الضحايا الأبرياء الذين سقطوا من عواقب إدمان الكحول . يقول الطب إن الرجال ليسوا متساويين أمام المشروب ، فبعضهم يقع في الأسْر الكحولي بسرعة أكبر عن آخرين . يقول مفسرون إن نوحاً لم يقاوم الخمر جيداً بسبب الحالة الصحية ، لقد كان متهالكاً تماماً نتيجة الأعمال القاسية المبذولة في الفلك[٢] . ويقترح آخرون أنه عانى من إحباط لأنه عاش وحيداً مع عائلته ، وأنه لم يستطع الحصول على أصدقاء . وأخيراً يقول آخرون إنه سكر لينسى فاجعة الطوفان التي كان هو الوحيد الحي منها . مهما كان سبب سُكره ، فقد سَكر نوح بكمية صغيرة من الخمر ، لكن سُكره كان تراجيديا كبيرة .

هل كان يدرك أنه في كل كأس يشربها كان يقترب خطوة ليشبه خنزيراً؟ كان دائماً كذلك حتى أنه اختبأ .

العورة المكشوفة

وهكذا رأى حام عورة أبيه . وبتهويله للأمر ذهب ليحكي كل شيء لإخوته . ولذلك سيعاقب بكل صرامة .

(١) D'après Louis Ginzberg, ***Les légendes des Juifs***, Cerf collection Patrimoines Judaïsme 1997, p.123.

(٢) Rabbi Yaacov Couli, ***Meam Loez, Genèse Tome 2,*** Moznaim Publishing, Jérusalem 1993, p.45.

عورة نوح تذكر بعورة آدم وحواء في الجنة . لقد رأينا ، في قراءة ثالث أصحاح من التكوين ، أن العورة تلعب دوراً هاماً ، قبل أكل الثمرة ، كان الرجل والمرأة كلاهما عاريين ، دون الخجل من ذلك . وبعد أكلهما ، كان أول شيء أدركاه هو عورتهما ، واختبأ الواحد من أمام الآخر .

العورة هي رمز للجنة حيث أنها علامة الحقيقة والشفافية ، كان الرجل والمرأة الواحد أمام الآخر كما كانا على حالتهما ، لم يخبئا ضعفهما . إن عورة نوح ليست في الشفافية ، إنها عورة مكشوفة . بين عورة آدم وحواء ، وعورة نوح ، هناك نفس العلاقة بين الثقة والتلصص ، الحب والخلاعة ، الهبة والسرقة . تقديم النفس للآخر في ضعفه ، وعورة جسده . هي علامة ثقة وحب ، لكن كشف (هتك) عورة قريبه ، مع إلغاء حياته ، هي إهانة ومذّلة .

لم يحترم حام خصوصية أبيه ، وكان تلصصه حركة تمرد . عندما يفيق نوح من سُكره ويفهم ما حدث ، يصرخ : « ملعون كنعان . عبد العبيد يكون لإخوته » . إن اللعنة مفاجئة وغريبة ، لأنه ليس حام هو الذي لُعن ، إنما ابنه كنعان . يثور الابن على حكم أبيه ، والحفيد هو الذي يأخذ العقاب .

اقترح المفسرون شرحاً مبدئياً للآية الأولى من الأصحاح الذي يقول إن الله بارك نوح وأبناءه . لا يستطيع نوح رد مباركة الله ، فلا يستطيع إذن أن يلعن الذي بُورك[٣] . في الوصايا العشر ، تقول الوصية الأخيرة من المادة الأولى : « أكرم أباك وأمك » ، وهي الوحيدة المصحوبة بوعد : « لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك » . تدعو هذه الكلمة البشر لإقامة أمة والتي فيها تعتني الأجيال بعضها ببعض بالتبادل التي فيها في نفس الوقت يكرم الأجداد . وبعدم احترام الأب ، دمَّر حام الاتصال بين الأجيال ، وسيصاب ابنه بذلك[٤] .

يقول بعض المفسرين الربيين إن حام لم ينظر فقط لعورة نوح ، إنما أيضاً أعقم نوح بطريقة شرسة ليمنعه من الحصول على أولاد آخرين[٥] . ويضيف آخرون أنه عندما ذهب ليرى إخوته ، حكى لهم الموقف بطريقة كوميدية ، وباستهزاء وبسخرية من أبيه . في تلك القراءات ، يتضح موقف حام الذي يتعدى موضوع كشف عورة أبيه . إنه موقف رفض ، الأمر الذي يتضح في سلوك الابن . إذا كان حام قد ألغى وجود أبيه ، فكيف سيستطيع أن يصبح أباً لأولاده ؟ لم يخطيء المدراش بالتركيز على أن خطأ حام كبير بسبب أنه في تلك اللحظة كان لديه هو ابن . برفض أبوّة أبيه ، لا يستطيع أن يكون أباً لأولاده .

هناك مثل يقول : « إذا لم ترد أن تعاقب أبنائك ، فلتحسن معاملة أهلك » . كشف حام عورة أبيه ، وابنه هو الذي لحقته اللعنة . يرتكز التماسك على الروابط التي تجمع اختلافات الأجيال . وبدون سماع واحترام

---

(٣) Midrash Rabba, ***Tome 1 Genèse Rabba 36.7,*** Verdier 1987, p.375.

(٤) في كتابه ***un place pour le père*** قال الطبيب Aldo Naouri كل أم تقدم ابنها إلى العالم ، والطفل الذي أرهقته الأيام قليلاً أو كثيراً سينقل تلك المؤثرات كما هي للجيل التالي .

(٥) Jacob ben Isaac, Achkenazi de Janow, ***Le commentaire sur la Torah***, Verdier 1987, p.90.

الأسلاف ، نبني مستقبلاً على الأوهام . إذا رجعت كل الأجيال للصفر ، لا تستطيع أبداً التقدم إلى الأمام . في المقابل ، إذا أكملت من النقطة التي وصل إليها السابقون فإنها تستطيع تزويد عملها الخاص ، ونبوغها الخاص ووجدانها الخاص . ولهذا يصرّ التوراة تماماً على أهمية الذكرى ، وعلى منقولات الأباء للأبناء .

الإخوة الثلاثة

بعد نطق اللعنة على كنعان ، حدّد نوح نوعاً من التقسيم بين أبنائه الثلاثة : « مبارك الرب إله سام وليكن كنعان عبداً لهم . ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام وليكن كنعان عبداً لهم » . ظهر دور لكل واحد من أبناء نوح ، وظهرت سلطة كهنوتية فيما بينهم .

إن قراءة مبدئية لهذه الآية توجهنا نحو تحليل عنصري . فبداية من هذا المقطع يعتقد البيض الذين مارسوا التفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا أنهم نسل سام الذين لهم حق غزو الأرض الموعودة . أما السود ، فهم نسل حام ، المدعوون لخدمتهم ، إذا أمسكنا فقط بتلك الآية ، فهذه القراءة ممكنة . . . ما عدا أنها تدخل في تضاد مع باقي الإعلانات الكتابية . تعلن النصوص الخاصة بالبدء أن كل الإنسانية ممثلة في آدم ، لئلاً يستطيع أي شعب أن يعتبر نفسه أعلى من الآخرين .

وإذا أمكن استبعاد التفسير العنصري فإن المعنى سيأتي من ناحية أخرى وهو مغزى أسماء أبناء نوح الثلاثة :

- سام هو اسم عبري والذي يعني (اسم) . واحدة من طرق تسمية الله هي « ha-chem » ، (الاسم) . يحمل سام في اسمه التعبير الرمزي ، وهو يمثل الروح .
- تأتي كلمة (حام) من جذر وهو يعني (يكون حاراً) . إذا كان سام يشير إلى الروح ، فحام هو على العكس يأتي في سجل حب اللذات الجسدية والحيوانية .
- و (يافث) يعني أيضاً (جمَال) . بين سام وحام ، يمثل يافث ما هو متماسك بين الروح والحيوانات ، إنه مكان المشاعر والأحساسيس .

وبهذا التحليل الرمزي لأسماء الأبناء ، نستطيع ربط الآية التي تقول إن كل الأرض عمِّرت عن طريق الإخوة الثلاثة . إن قائمة نسل سام ، حام ، ويافث ، ليست لمجرد تتبع النسل ، لكن لمعرفة الصفات والسلوك . لنأخذ مثلاً : الملك الأول الذي هاجم إسرائيل في لحظة الخروج ، بعد عبور البحر الأحمر ، يدعى ملك عماليق . منذ ذلك اليوم ، وفي كل مرة يظهر فيها عدو للشعوب ، فإنه يعتبر مثل عماليق جديد : (هامان) الذي أراد موت كل شعب الله في وقت الملكة أستير ، (هادريان) الامبراطور المعادي للسامية . (هتلر) ليس له أي صلة سلالية بين هؤلاء الرجال الثلاثة ، لكنهم يحملون نفس الاسم وهو (عماليق) . لأنهم يشتركون جميعاً في توزيع الكراهية . بنفس الطريقة نسل سام ، وحام ، ويافث ، ليسوا لمجرد تسجيل قائمة بأسمائهم السلالية ، لكن بحسب أثر الطابع

و السلوك للرجال والشعوب التي تأسست منهم[٦] .

• نسل حام ، في الفصل التالي ، يحتوي على العديد من الأسماء الشهيرة في الكتاب المقدس : كنعان ، ومصرايم الذي هو اسم مصر ، ونمرود الذي بنى بابل ، وكذلك نينوى ، العاصمة المستقبلية لسوريا . إن كل من مصر وسوريا والعراق امبراطوريات ثلاث سوف تظلم العبرانيين . وفي هذا النسل وجدت أيضاً كل الشعوب التي ستشتبك إسرائيل معها في حرب . حام هو نموذج البشر والشعوب التي تغزو ، وتخرب ، وتدمر ، وتستفيد من الآخرين . من أصل حام ، جاء الطغاة والمستبدون . عماليق ، الذي ضرب إسرائيل في الصحراء ، يعتبر طبقاً لسفر التكوين الابن الأصغر لعيسو ، إنه سليل نسل سام لكن واقعياً يظهر في ذرية حام .

• مع يافث ، تظهر الحضارات والشعوب التي تكرّس أحاسيسها لثقافة الجمال . إنها الحضارات التي تعطي مكاناً مهماً للفلسفة ، الموسيقى ، الشعر ، والفنون الجميلة .

• مع سام ، نسير مسيرة حتمية في نظام الإنسانية . يوضح سام في الإنسانية النموذج الأكثر تعبيراً عن تأمل الجمال ، ليقودها لمعرفة الصواب والخير . من بين أنسال سام يوجد (عابر) جد العبرانيين . إذا كان يافث قد شرَّف ورفع شأن العالم بالجمال والفن ، فسام أنارها بالفكر والروح .

صفات الطبائع بين أبناء نوح الثلاثة تسأل الإنسان عن الطريقة التي تحدد أبعاد شخصيته ، وخصوصاً حب اللذات الجسدية ، والأحاسيس (علم الجمال والفن) والروح (الأدب) . إنه في ذلك السجل نستطيع تحليل الآية القائلة : « ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام وليكن كنعان عبداً لهم » .

الله يمهد الطريق للبحث عن الجمال . قد تترجم بداية هذه الجملة : « يعطي الله مساحة ليافث » . عندما نتذكّر أن (يافث) يعني أيضاً الجمال ، فإن هذا يعني وجود الجمال عبر التاريخ . لكن يجب أن يظل بحث الجمال في خيام سام ، أي في ميدان الأخلاق[٧] . يفتح الجمال روح الإنسان ، لكنه لا يعني الخير . يمكن قراءة هذا المعنى بمعنى آخر بالقول : إن خيمة سام يجب أن تستقبل يافث ، فكلمة الحس لا يمكن أن تستغني عن الأخلاق .

وأخيراً ، فالشهوانية (حب اللذات الجسدية) تأخذ مكانها بالتمام في الشخص الإنساني ، لكن كنعان هو خادم إخوته ، يجب أن ينمو مصطلح الشهوانية في نطاق الأدب والجمال . في اللحظة التي يذكر فيها المكتوب بإعمار الأرض ومشاركة الإنسانية في مختلف الشعوب ، يذكر أبناء نوح أن الإنسان هو كائن غني بمختلف المقاييس . العلاقة بين سام وحام ويافث توضح العلاقة الصحيحة بين الشهوانية ، والجمال ، والأدب .

---

(٦) Rav. C. R. Hirsch, *Commentaire sur le Pentateuque, Tome 1 Genèse,* Editions Kountrass, Jérusalem 1995, p.368s.

(٧) إنه السبب الذي من أجله تجاوب اليهود سلبياً في العصور الوسطى أمام الكاتدرائيات الرومانية والقوطية ، لعدم استطاعة التمتع بجمالها ، إذا أخذنا قدس الأقداس في الاعتبار ، فيجب عدم الاقتصار على رؤيته من مجرد الزاوية الجمالية .

الحصرم وصرير الأسنان

هتك حام عورة أبيه ، ولكن ابنه هو الذي لُعن . تنعكس عواقب سُكْر نوح على ثلاثة أجيال ! وهناك بعض الأمراض تتناقل بالوراثة في العائلات مثل بعض الأمراض الكحولية ، لكن أيضاً في مجال السلوك مثل العنف أو سوء المعاملة الجنسية . ويظهر ذلك أيضاً في القدرة التدميرية لما نسميه بالأسرار العائلية . الأحداث العائلية التي تعتبر مخجلة ، تبقى مخبأة ، غير موضوعة في كلمات .

في المقابل ، يتكلم الكتاب المقدس أيضاً عن الحرية . ليس الإنسان ملزماً بحمل عبء أسلافه وتحمل تبعات أفعالهم . ويذكر النبي حزقيال بوضوح : « ما لكم أن تضربوا هذا المثل على أرض إسرائيل قائلين الآباء أكلوا الحصرم وأسنان الأبناء ضرست ؟ . . . لا يكون لكم من بعد أن تضربوا هذا المثل في إسرائيل »[٨] .

بهذا المعنى فسَّر المفسرون الآية التي تقول : « لا تطبخ جدياً بلبن أمه »[٩] تذهب الوصية لأبعد من وصية غذائية معينة والتي بموجبها لا يجب خلط اللبن باللحم في نفس العشاء . فهذا القول يعني أنه لا يجب دمج الأولاد في فئات الأهل . الولد له تاريخ يخصه وحده ، وعليه أن يعيشه .

(٨) حزقيال ١٨ : ٢ - ٣ .

(٩) تثنية ١٤ : ٢١ .

ماذا نصنع بالجَمال؟

التعبير : « ليفتح الله ليافث » قد تترجم أيضاً : « ليعطي الله مساحة ليافث » أو « ليفتح الله أبواب الجمال » . فهذا لأن أبواب الجَمال مفتوحة أمام كل الأفكار والتصورات التي يجب على يافث أن يبقيها داخل خيمة سام .

يافث يعتبر جد اليونان . في بعض مدارس هذا البلد ، فإن أسلوب الحديث يجب أن يكون جميلاً قبل أن يكون صحيحاً . تاريخ القرن العشرين علّمنا أن تعظيم الجَمال المجرَّد ، غير المصحوب بتوجه أدبي أو أخلاقي محدد ، يمكن أن يقود للفاشية (بل وإلى الهمجية) . يصف كاتب معاصر الروابط التي تربط بين عائلة الموسيقار (ڤاجنر Richard Wagner) و (هتلر Hitler)[(١٠)] ، بأن هناك رسامون وشعراء انجذبوا للجَمال النازي وتعظيم الفاشية وغيرها من الأفكار المجردة مثل النظام ، الحداثة ، والجَمال .

وهذا هو السبب الذي من أجله ذكر الكتاب المقدس أن الجَمال (يافث) لا يستطيع أن يكون مستقلاً عن الكلمة (سام) ، والذي يعلن البعد الروحي والرمزي للإنسان .

(١٠) Gottfried Wagner, ***L'héritage Wagners***, Nil, 1998.



٢٣

بابل البرج

يجب أن يستيقظ إدراكنا على وقع أنه كلما أصبحنا بشر فائقي القدرة، كلما أصبحنا غير بشر.

(ألبرت شفيتزر Albert Schweitzer)

(تكوين ١٠)

١- وهذه مواليد بني نوح. سام وحام ويافث. وولد لهم بنون بعد الطوفان. ٢- بنو يافث جومر وماجوج وماداي وياوان وتوبال وماشك وتيراس. ٣- وبنو جومر أشكناز وريفاث وتوجرمة. ٤- وبنو ياوان أليشة وترشيش وكتِّيم ودودانيم. ٥- من هؤلاء تفرقت جزائر الأمم بأراضيهم كل إنسان كلسانه حسب قبائلهم بأممهم. ٦- وبنو حام كوش ومصرايم وفوط وكنعان. ٧- وبنو كوش سبا وحويلة وسبتة ورعمة وسبتكا. وبنو رعمة شبا وددان. ٨- وكوش ولد نمرود الذي ابتدأ يكون جباراً في الأرض. ٩- الذي كان جبار صيدٍ أمام الرب. لذلك يقال كنمرود جبار صيدٍ أمام الرب. ١٠- وكان ابتداء مملكته بابل وأرك وأكَّد وكلنة في أرض شنعار. ١١- من تلك الأرض خرج أشور وبنى نينوى ورحوبوت عير وكالح. ١٢- ورسن بين نينوى وكالح. هي المدينة الكبيرة. ١٣- ومصرايم ولد لوديم وعناميم ولهابيم ونفتوحيم. ١٤- وفتروسيم وكسلوحيم. الذين خرج منهم فلشتيم وكفتوريم. ١٥- وكنعان ولد صيدون بكره وحثاً. ١٦- واليبوسي والأموري والجرجاشي. ١٧- والحوِّي والعرقيَّ والسينيَ. ١٨- والأرواديَ والعماديَ والحماتيَ. وبعد ذلك تفرَّقت قبائل الكنعاني. ١٩- وكانت تخوم الكنعاني من صيدون حينما تجيء نحو جرار إلى غزة وحينما تجيء

نحـو سدوم وعـمـورة وأدمـة وصـبـوييم إلى لاشـع. ٢٠- هؤلاء بنـو حـام حـسـب قبـائلهم كـألسنتـهم بأراضيـهم وأممهم. ٢١- وسـام أبو كل بني عـابر أخـو يافث الكبيـر ولد له أيضـاً بنون. ٢٢- بنـو سـام عـيـلام وأشـور وأرفكشـاد ولود وأرام. ٢٣- وبنو أرام عـوص وحـول وحـاثر وماش. ٢٤- وأرفكشـاد ولد شـالح وشـالح ولد عـابر. ٢٥- ولعـابـر ولد ابنان. اسم الواحد فالـج لأن في أيامه قسـمت الأرض. واسم أخيه يقطان. ٢٦ ويقطان ولد ألموداد وشالف وحضرموت ويارح. ٢٧- وهدورام وأوزال ودقلة. ٢٨- وعوبال وأبيمايل وشبا. ٢٩- وأوفير وحويلة ويوباب. جميع هؤلاء بنو يقطان. ٣٠- وكـان مسكنهم من ميـشـا حينمـا تجيء نحو سفـار جبل المشرق. ٣١- هؤلاء بنـو سام حسب قبائلهم كألسنتـهم بأراضيـهم حسب أممهم. ٣٢- هؤلاء قبائل بني نوح حسب مواليدهم بأممهم. ومن هؤلاء تفرقت الأمم في الأرض بعد الطوفان. (تك ١٠: ١- ٣٢).

(تكوين ١١)

١- وكانت الأرض كلها لساناً واحداً ولغة واحـدة. ٢- وحدث في ارتحـالهم شرقاً أنهم وجدوا بقعـة في أرض شنعـار وسكنـوا هناك. ٣- وقـال بعضـهم لبـعض هلمَّ نصنـع لِبْناً ونشـويه شيـاً. فكان لـهم اللِبن مكان الحجـر وكان لـهم الحُمَرُ مكان الطين. ٤- وقالوا هلم نبـني لأنفسنا مدينة وبرجاً رأسه بالسماء. ونصنع لأنفسنا اسماً لئلا نتبدد على وجه كل الأرض. ٥- فنزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كـانوا بنو آدم يبنونهما. ٦- وقـال الرب هوذا شعب واحـد ولسـان واحد لجميعهم وهذا ابتداؤهم بالعمل. والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه. ٧- هلمَّ ننزل ونبلبل هناك لسـانهم حـتى لا يسمـع بعضـهم لسـان بعض. ٨- فـبددهم الرب هناك من على وجـه كل الأرض. فكفوا عن بنيـان المدينة ٩- لذلك دعي اسـمهـا بابل. لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض. ومن هناك بددهم الرب على وجه كل الأرض.. (تك ١١: ١- ٩).

أمام الأهرامات، يتأثر الأطفال ويتشوق المؤرخون ويرتبك العلماء، كل واحد عنده شعور بأنه أمام شاهد لحضارة مندثرة. نشاهد التقدم الهندسي، لكن هل نتساءل عن الرسالة التي أراد أن يبعث بها مشيدوها؟ وفي المقابل عندما نتأمل في قصة برج بابل ربما نتساءل ما هو الفكر الكتابي بالنسبة لمشروع بناء برج بابل؟ ومن الممكن أن يكون قارىء الكتاب المقدس عندها أقل إعجاباً بالمشروع القومي.

في بابل، يتجمع الناس لمقاومة التشتت. يستعملون مصادر معرفتهم وتقنيتهم من أجل مشروع مشترك:

إنشاء بناء سينقذهم . سيكون الأثر الذي يريدون إنشاءه علامة عبورهم في التاريخ . إنه برج بابل وليس هو هرم خوفو ، لكن هناك شيء مشترك بينهما . بالرغم من الإعجاب الذي يثيره معرفة وصنع الحضارة التي أنشأت مثل ذلك البرج ، فإن التكوين يتكلم عن إله يعارض المنشأ الكبير ، لدرجة النزول من سمائه ليقاومه . وهذا التدخل الإلهي ملفت للنظر ، فقبل كل شيء ، أليس من الطبيعي ، والجميل أن تتحد الإنسانية وتنتظم ؟ ما هو وجه السوء في أن يصنع البشر مشروعاً بهذا الاتساع ، وأن يحتموا في الاحتماء من مصير مجهول وأخطار التشتت ؟ إذا كان هناك شيء سيىء ألا سيكون الفوضى التي نشأت من التدخل الإلهي .

شعوب الأرض

للإجابة عن تلك الأسئلة ، يجب أخذ خطوة للوراء مرة أخرى ، وقراءة نص بابل في بقية الأصحاح السابق الذي يقدم سلالة أنسال نوح .

لقد رأينا أهمية الأنسال في الكتاب المقدس . إنها إجابة لوصية الإكثار وملء الأرض . كذلك مثل أنسال آدم وحواء الذين تكاثروا بعد الخروج من الجنة ، فالعالم يبدأ مرة أخرى تعميره بعد الفيضان .

قدمت لنا الأصحاحات السابقة كيف أن الإثمار الأول للأرض ، مع نسل حنوك وآنوش ، قد هلك في كارثة فكرية وإنسانية التي حدثت بالطوفان . الآن وبعد أن بدأت الإنسانية من الصفر ، جاء إعمار جديد عبر أبناء نوح : سام ، حام ويافث . تحدد الآية الأخيرة من أصحاح (١٠) : « ومن هؤلاء (أبناء نوح) تفرقت الأمم في الأرض بعد الطوفان » . بالاختلاف عن سلالة الأصحاح ، فهنا يوجد بعد جغرافي . عمّرت ذرية نوح الأرض لتتكون كل الأمم تدريجياً . إذا استثنينا نمرود المذكور هنا لتقديم بابل ، فعندنا سبعون اسماً . في الكتاب المقدس ، يرمز الرقم (سبعون) لمجموع الأمم . توحي قراءة هذا الواحد وسبعين اسماً بغزارة وتنوُّع كل الشعوب ، كل البلاد ، كل الجزر وكل لغات الأرض . وسجلت هذه السلالة في مشروع الله . الذي يبارك الإنسان ويطلب منه التكاثر وإعمار الدنيا .

تبعاً لوصية الله ، ملأت الإنسانية الأرض في وفرة اختلاف العائلات ، اللغات ، والشعوب . . . حتى اليوم الذي وصل فيه البشر إلى وادي شنعار . هنا ، أوقفوا مشروعهم الإعماري . وهكذا أن كان لكل قبيلة اللغة الخاصة بها[١] ، وعندها بدأ البشر يتكلمون نفس اللغة ! كانوا في حالة حركة على الأرض ، وعندما توقفوا لإنشاء مدينة وبرج ، بدأ كل واحد يتبع طريقه الخاص ، وعندها اجتمعوا لمشروع واحد . يمثل التوقف عند شنعار كسراً ، وانقلاباً .

عندما أصبح قايين شارداً وتائهاً على الأرض ، أنشأ مدينة والتي أعطى لها اسم ابنه حنوك . بابل هي المدينة الثانية للكتاب المقدس . أدت الحضارة التي وُلدت من حنوك إلى الطوفان . إن القراءة المتأنية لنص بابل ، وتفسيراته الربانية ، تثبت أن إنشاء البرج يمارس نفس مسيرة الإنسانية التي تريد أن تنشأ بعيداً عن الله .

(١) تك ١٠ : ٥ و ٢٠ و ٣١ .

أجاب التكوين على حضارة حنوك بسلالة آنوش ، ابن شيث . حسب توازٍ معكوس ، فإن إنشاء بابل يعارض سلالة نوح[٢] .

إن وصية الإكثار وإعمار الأرض هي الأولى التي أعطاها الله للإنسانية . وهي لا تعطي الانطباع بأنها أكثر صعوبة للعمل بها . مع ذلك ، فإن حنوك مثل بابل كانت شاهدة لمنطق آخر يرتكز على انتظام وعظمة التكنيك . ضد وصية الله ، كانت بابل عمل جماعي لمقاومة الإنسان لمشروع الخلْق ، وذلك كان إعادة لمشهد الجنة .

اصطناع اسم

في الفصل الثالث من التكوين أكل الرجل والمرأة الثمرة ليصيرا مثل الله . لقد أرادا أن يكونا أسياد حياتهما وألا يستندا على الله لتعريف معنى وجودهما .

في بابل ، ماذا نرى ؟ يبني البشر مدينة وينشئون برجاً والذي تلمس فيه قمتُه السماء . . . يصنع اسماً . في الكتاب المقدس ، الاسم هو أكثر كثيراً من وسيلة مستخدمة للإشارة أو مناداة أحد ، إنه يُعرِّف الشخصية الأكثر عمقاً للشخص[٣] . من الطبيعي أن يُكتب الاسم كمفعول به ، فأنا لا أعطي لنفسي اسماً ، لكن سُميت باسمي[٤] .

في بابل ، يريد الإنسان أن يعطي لنفسه بنفسه اسمه الخاص ، يريد أن يصنع لنفسه اسماً بدلاً من استقباله من آخر . في سلالة أنسال نوح ، كل إنسان وكل شعب الأرض لهم اسم . إنه اسم آخر الذي يريد أهل بابل الوصول إليه ، اسم يعملونه بأنفسهم ، نتيجة لمهارتهم . إن بابل هي إعادة ما حدث في الجنة . بإنشاء برج يصل للسماء ،

---

(٢) نحن أمام ما نسميه ضمنية سامية :

مدينة حنوك وعنف لامك	A:
سلالة أنسال شيث	Ê B:
جيل الطوفان	Ê C:
الطوفان	Ê Ê D:
ذبيحة نوح ،	Ê Ê Ê:
قوس قزح	Ê Ê D:
سُكر نوح ولعنة كنعان	Ê C:
سلالة أنسال نوح	Ê B:
برج بابل	A:

يوضح هذا الرسم (النهج / الخطة) أن قلب التاريخ يبقى في تعهد الله بعدم تدمير الأرض . من عند هذا المركز ، لم تعش الإنسانية أبداً تحت تهديد الطوفان ، بل تحت علامة قوس قزح .

(٣) إنه السبب الذي من أجله عندما يعيش بعض رجال الكتاب المقدس تجربة تحوُّل شخصيتهم ، يغيِّرون اسمهم ليميزوا شخصيتهم الجديدة . أبرام أصبح إبراهيم ، ساراي أصبحت سارة ، يعقوب أصبح إسرائيل .

(٤) يجيب الاسم عن السؤال (من) ولكنه لا يجيب أبداً عن السؤال (ماذا) . إنه يعلن ، مثلما يذكر اللاهوتي الأرثوذكسي (V. Lossky) أن : « الشخص يعني إنساناً ذا طبيعة غير ناقصة » .

يبحث الناس عن إخراج الله من تاريخهم . إنهم يريدون أن يكونوا إلههم الخاص بهم . بعد الجنة ، كان قايين وهابيل في نزاع الواحد مع الآخر . لم يقبل قايين اختلاف أخيه ، وأصبح قاتلاً : في بابل ، تشير نفس السلبية إلى : لغة واحدة ، مكان واحد ، برج واحد ، اسم واحد ، الكل مجتمع لمشروع واحد . يقول المدراش إن الشخص الإنساني يختفي وراء المشروع التكنولوجي : « إذا كان من بين الأشخاص الذين يعدون الطوب لتشييد البرج ، امرأة على وشك الولادة ، فهي لا تعفى من عملها . في لحظة ولادة الطفل ، تصنع طوباً ، وبعد الولادة تكمل صنع الحجارة مع وضع الطفل في عباءتها . بالنسبة للرجال الذين يرفعون الطوب لقمّة البرج ، يجب عليهم أن يكونوا في غاية الحذر واليقظة . إذا وقعت طوبة من فوق البرج وتكسرت ، فهناك يكون بكاء وأنين ، في المقابل عندما يسقط رجل من فوق البرج ويموت ، لا يلحظه أحدٌ » .[٥] كيف لا نفكر في قايين الذي أهلك حياة أخيه ؟ ، والذي أنشأ مدينة والتي كانت أصل التقنية والصناعة ؟ والذي أعطى حياة لحضارة مبنية على العنف ؟ .

يبحث المدراش في الطوفان ليعرف الأسباب التي قادت البشر لإقامة مثل ذلك المبنى بالنسبة للتلمود ، أراد أنسال نوح إقامة برج ، سواء كان لحمل السحاب حتى لا ينقطع ويغرق الأرض من جديد ، أو سواء كان العكس لكي ينشق وينسكب الماء ببطء . حسب رأي مفسرين آخرين ، كان على البرج أن يكون عالياً نوعاً ما ليعبر مستوى المياه في حالة حدوث طوفان جديد ، ليسمح للبشر بالهروب من غضب الله[٦] .

كل تلك الشروحات تؤدي لنفس الرسالة : لا يؤمن الناس في وعد الله ، والذي بناءً عليه لن يكون هناك طوفان أبداً . لقد فضلوا البرج عن قوس قزح[٧] ، لقد وثقوا أكثر في أعمالهم عن وفاء الله .صارت بابل شعار الوثنية . قال مفسرون : إنه من فوق البرج ، يرسل البشر أسهم نحو السماء لإزاحة الله . ويقول آخرون إنهم أرادوا وضع معبود في السماء تحت شكل تمثال حامل سيف في يديه ، مستعد لإعلان الحرب .

في بابل ، تعثر تاريخ الإنسانية . بإعطاء القانون لأبناء نوح ، دعاهم الله للدخول في التاريخ ، وهكذا وقعت الإنسانية في الإعادة . إنها دائماً نفس قصة البشر الذين يعبّرون عن كبريائهم أكثر من أن يكون لهم سلوك الخضوع الذي يسمح لهم بأن يبقوا مستمعين للكلمة الآتية من الله .

نمرود

رجل واحد يمثل كبرياء بابل . إنه ملك تلك المدينة ، نمرود ، وهو يظهر في نسل حام . « نمرود الذي ابتدأ يكون جباراً في الأرض . الذي كان جبار صيد أمام الرب » . « وكان ابتداء مملكته بابل وأرك وأكد وكلنة في أرض شنعار . ومن تلك الأرض خرج أشور وبني نينوى ورحبوت وعيرو وكالح »[٨] .

(٥) D'après Louis Ginzberg, ***Les légendes des Juifs,*** Cerf collection Patrimoines: Judaïsme 1997, p. 131s.

(٦) Rabbi Yaacov Couli, ***Meam Loez, Genèse Tome 2,*** Moznaim Publishing, Jérusalem 1993, p.63.

(٧) البرج هو عكس قوس قزح ، وبنفس الطريقة مدينة قايين كانت عكس علامة الله التي أعطاها له إياها . في كل مرة ، يتكرر التتابع : العلامة التي تشير إلى وعد الله ، في المقابل الإنشاء الذي يرمز لإرادة الإنسان لإثبات وجوده بأعماله الخاصة .

ظهر مصطلح جبار في الجيل الذي سبق الطوفان[٩] . ورأينا أنه يشير إلى ثمرة تقابل أنسال ذرية شيث – أنوش مع ذرية قايين – حنوك . وقد وصف هؤلاء الجبابرة مثل عمالقة مشغولين فقط بمظهرهم الجسماني ، وبالإضافة لكونهم عمالقة فهم متمردون أمام الله . ينطبق هذا الوصف تماماً على نمرود ، كما رسمه المفسرون الربيون والذين لم ينسوا ذكر أن اسمه يأتي من الفعل مَرَد (marad) والذي يعني (يتمرد ، يثور) ، نمرود معروف مثل « جبار صيدٍ أمام الرب » . ويتساءل المدراش : إذا كان نمرود صياداً كبيراً ، فلماذا وجب تحديد أنه كذلك أمام الله ؟ إن الآية تشير إلى أن نمرود صاد الرجال من أمام الرب ، ليقودهم لعبادة الأوثان[١٠] . الصياد الوحيد الآخر الذي نجده في الكتاب المقدس هو عيسو الذي تعارض مع يعقوب ، والذي هو جد عماليق الذي يرمز للطغاة الذين يريدون تدمير إسرائيل . ويضيف مفسر آخر أن نمرود كان صياداً كبيراً ، لكن « الفريسة » التي يتتبعها كانت رجال آخرين . إن نمرود هو مستبد يمارس قدراته بحيلة ليكسب بشراً لأغراضه . يتظاهر بأنه الله ويبحث عن إقناع الشعوب بأنه خالق السماء والأرض . يستخدم قدرته ليغري ويسيطر على البشر . ويستخدم تفوقه الطبيعي ، حتى تفوقه الروحي ، ليأخذ الضعفاء ويسبيهم .

يؤكد وصف نمرود مشروع بابل الذي يرمز لذوبان الشخص في المجموعة . إن خاصية المجموعة الكثيرة العدد هي الاعتقاد بأنهم غير مقهورين . إذا انتهى الفرد دائماً إلى تذكُّر أن قواه محدودة ، فإن المجموعة تفكر أنها غير قابلة للمقاومة ، وعندما تصبح جماعة قوية ، فهي تكون على حافة منحدر ذلق تؤدي بها إلى اعتبار نفسها أنها هي الغاية النهائية . تصبح خدمة المجموعة هي المعنى المطلق لحياة الأشخاص الذين يكوِّنوها[١١] . حسب التقليد ، كان العدو الأكبر لنمرود هو إبراهيم ، لكن لم يصل الصياد الكبير أبداً لهزيمة الأب إبراهيم . نتيجة قراءتنا لنصوص البدء تدل على أن إبراهيم هو الإجابة المطلقة لله في مشروع بابل .

(٨) تك ١٠ ، ٨ – ١١ .

(٩) تك ٦ ، ٤ . عن تفسير لهؤلاء الجبابرة ، انظر فصل ١٨ : عالم ما قبل الطوفان .

(١٠) Rabbi Yaccov Couli, ouvrage cité, p.55.

(١١) D'après Rav C.R. Hirsch, *Commentaire sur le Pentateuque, Tome 1 Genèse*, Editions Kountrass, Jérusalem 1995, p.296.

نفس التاريخ

عندما يقول البشر فيما بينهم : « لنصنع لأنفسنا اسماً لئلا نتبدد على وجه كل الأرض » فإن كلمة « وجه » قد تترجم أيضاً بـ – (أوجه) . إنه تنوع الأمم ، الصفات ، والرغبات التي ترعب أهل بابل : إنهم لا يحتملون تنوع الأوجه . ومع ذلك ، أليس في وجه القريب مكتوب الصفة الوحيدة والتي لا تقلل إنسانية الشخص ؟ كتب « إيطالوا مانشيني » في واحد من كتبه الأخيرة : « لكي نستطيع العيش في عالمنا علينا أن نحب ونظهر أنفسنا ، وأن لا نأخذ بنظرية واحدة ونطبقها على الفرد ، فالإنسان ليس محكوماً بأحداث التاريخ أو ظواهر الطبيعية ، لكنه محكوم بفعل وجود تلك المراكز المتغيرة وهي الوجوه المختلفة : وجوه للنظر ، للاحترام ، للملاطفة » [١٢] .

خلف مشروع إقامة مدينة وبرج ، يختبيء حلم الواحدية : الكل له نفس الصفة ، يعيشون نفس التاريخ ، الكل في خدمة نفس المشروع . إن الدرس المستفاد من بابل يدعو كل البشر إلى تنمية تنوعهم والعمل ببرامج تشجع على تنظيم التنوع والاختلاف ، وهذا ما يجب على من يتمسكون بالوجه الكتابي الواحد أن يفعلوه إذا هم لم يرغبوا في أن يكونوا تكراراً لبابل . إذا لم تكن الكنيسة تريد أن تكون تكراراً لبابل فهي لا تستطيع العيش إلا في احترام الاختلافات .

(١٢) Cité par Carlo Maria Martini in Umberto Eco. C.M. Martini, *Croire en quoi?,* Rivages poche 238, p.45.

عمل المتكبرين

« فبددهم الرب هناك من على وجه كل الأرض . فكفّوا عن بنيان المدينة » ، هذه هي خاتمة نصنا .

يقول المدراش إنه عندما دمَّر الله البرج ، انغرس ثُلث منه في التربة ، واحترق ثُلث ، والثُلث الأخير ظل سليماً مثل شاهد للأجيال المستقبلية(١٣) . عندما ترك الرجال المدينة ، أي شاهدٍ تركوه خلفهم ؟ مدينة أشباح حول برج غير مكتمل ، في واد مترب . ملأت الأعشاب الضارة والحيوانات المتوحشة المنشآت . خلّفت حجارة كبيرة محروقة في الفرن على الأرض وبعض الأدوات الصدئة مطروحة على الأرض . إنها صورة مُخزية .

« هكذا ، يقول الله ، هي نتيجة عمل المتكبرين الذين هم ليسوا مقتادين إلا بغير البحث عن القدرة والكبرياء » ! .

كل الحضارات المتشامخة انتهت كلها مثل برج بابل . الشيء الوحيد الذي بقى عبر القرون ، هو التاريخ . في سفر التثنية ، يفرِّق موسى بين الشعوب الغبية وبين حكمة الشعوب التي تستوعب التاريخ : « اذكر أيام القدم وتأملوا سِني دورٍ فدورٍ . اسأل أباك فيخبرك وشيوخك فيقولوا لك »(١٤) .

(١٣) *Midrash Rabba, Tome I Genès Rabba* 38.8, verdier 1987, p.389.

(١٤) تثنية ٣٢ : ٧ .

٢٤

بابل اللغة

الإنسان هو لغته، إذ إن الثقافة ليست بشيء آخر سوى نظام مكون من الرموز والإشارات.

(امبرتو إكو Umberto Eco)

١- وكانت الأرض كلها لساناً واحداً ولغة واحدة. ٢- وحدث في ارتحالهم شرقاً إنهم وجدوا بقعة في أرض شنعار وسكنوا هناك. ٣- وقال بعضهم لبعض هلمَّ نصنع لِبناً ونشويه شياً. فكان لهم اللِبن مكان الحجر وكان لهم الحُمَر مكان الطين. ٤- وقالوا هلم نبن لأنفسنا مدينة وبرجاً رأسه بالسماء. ونصنع لأنفسنا اسماً لئلا نتبدد على وجه كل الأرض. ٥- فنزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كانوا بنو آدم يبنونهما. ٦- وقال الرب هوذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم وهذا ابتداؤهم بالعمل. والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه. ٧- هلمَّ ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض. ٨- فبددهم الرب مع هناك على وجه كل الأرض. فكفوا عن بنيان المدينة. ٩- لذلك دُعي اسمها بابل. لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض. ومن هناك بددهم الرب على وجه كل الأرض. (تك ١١: ١- ٩).

دعا رجل أصدقاءه للعشاء وأرسل بخادمه للسوق مع أمر بشراء وتحضير أفضل الأشياء التي سيجدها . طهى الخادم طبق لسان مصحوب بمختلف أنواع الصلصات . وفي نهاية السهرة ، عنَّف السيد خادمه وسأله عما أصابه في رأسه . فأجاب هذا الأخير بأنه لم يصنع سوى طاعة أومره ، فاللسان هو أفضل الأشياء إذ عن طريقه نستطيع تسبيح الله ، مباركة القريب وقول الخير لمن هم حولنا . في اليوم التالي طلب السيد من خادمه شراء ما يجده في

السوق أكثر مناسبة لتغذية كلبه . فرجع بنفس طبق اللسان وأجاب سيده بأنه لا يوجد ما هو أسوأ من لسان شرير ، يلعن ، ويحكي أكاذيب ويروج الإشاعات(١) .

هذه القصة يمكن أن تحمل صدى لرسالة يعقوب(٢) . وهي تتكلم عن العضو الذي نتكلم به . لكن نستطيع أن نطبقه أيضاً على اللغة التي نتكلمها والتي قد تكون أفضل أو أسوأ الأشياء .

تحكي سلالة الأصحاح العاشر من التكوين عن تعمير الأرض الذي يحدث في مختلف العشائر ، اللغات والأمم . تعود الآية الأولى للأصحاح القادم على هذا الاختلاف بالقول : إن الأرض كلها تتعامل بنفس اللغة ونفس الكلمات . تتكلم بعض التقاليد عن لغة متشابهة (واحدة) . مشروع بابل ، الذي تغلّفه روح الشمولية ، مصحوب بلغة قياسية . عندما يتدخل الله لمعارضة هذا المشروع ، فهو يعيد تقديم اختلاف الألسنة (اللغات) ليعطي ثقلاً للكلمات وقيمة للحديث .

اللغة تسمح للشخص ببناء شخصيته . إنه عبر اللغة يدرك الإنسان الطابع الفريد لوجوده ، وأن يحلل الكون الذي يحيطه ، وأن يواجه حركته في قلب هذا المحيط .

وقد بدأ الباحثون بالاهتمام بلغات الحيوانات . واكتشفوا أن الإنسان ليس هو الحيوان الوحيد المتكلم . وأثبتوا أن القرود الكبيرة تستطيع تعلُّم العديد من الكلمات المحددة ، حتى تسعمائة كلمة لبعض أنواع الشامبانزي . سمحت تلك الأبحاث بفهم أفضل للطابع الفريد للغة الإنسان . إذا كان النحل أو النمل يتحدث (يتواصل) فهذا فقط لنقل معلومات غريزية بدائية : « هناك حقل أزهار على مسافة كذا ، في الاتجاه كذا » . يستطيع كلب أن يعوي لقول : « أنا أتألم » ، لكنه لن يستطيع التعبير عن طبيعة أو سبب ألمه . الغرض من اللغة الإنسانية هو ترتيب الكلمات حسب قواعد النحو ، لتكوين جمل تصل لمعنى أعلى من ما يعطيه الجمع البسيط بين الكلمات نفسها . بعكس لغة الحيوانات ، تدعو اللغة الإنسانية لتذكُّر التاريخ ، للتجربة و المعنى ، للمشاعر والأحاسيس . يتعدى الحديث الاتصال البسيط الغريزي البدائي . ويأخذ معنى عندما يوقظ ويثير مجموعة من الصور ، المشاعر ، الذكريات ، إيحاءات وأحكام . . . عند المخاطب . فالحديث ليس فقط تبادل إفادات ، إنه مشاركة تربط بين شخصيتين ، والذي ينسج روابط بين القصص . الرجل المحروم من الكلمة هو إنسان معزول . عندما يريد المجتمع معاقبة واحد من أعضائه ، تحصر علاقاته وتُحدّه وتضعه في السجن . يعزله عن كل اتصال .

لتصوير هذا الانعكاس ، نستطيع التذكير بالتجربة الشهيرة والقذرة لـ « فردريك الأكبر » ملك بروسيا . لقد أخذ عشرة أطفال رُضّع وأمر بأن يحصل خمسة منهم على كل العناية الصحية اللازمة لكن دون لفظ أي كلمة . وكان الخمسة الآخرين قد تربوا على يد ممرضات مكلفات بالكلام والضحك والغناء معهم . وكبر الخمسة

(١) D'après W. B. Silverman, ***The sages speak: rabbinic wisdom and jewih values,*** Aronson 1989 p.85.

(٢) رسالة يعقوب ٣ : ١ - ٢١ .

الأخيرون طبيعياً ، أما الأولون فعانوا من مشاكل ، حتى أن بعضهم لم يعش لأنهم لم يتعلموا الكلام . اليوم ، أكد علم النفس على حتمية الكلمة لكي « يعيش » الإنسان « ويحيا » . إن أي تجربة صاحبتها صدمة ولم تترجم إلى كلمات ، فإنها تواصل عملها المدمر ، أما إفساح المجال للكلمة فله قدرة تحريرية .

إن العلاقة مع الكلمة المنطوقة يمكن تشبيهها بعلاقة القارىء بالنص المكتوب . يستطيع نص برج بابل أن يكون مقروءاً مثل أسطورة عبرية تساعدنا على فهم دين هذا الشعب .

عند هذا المستوى ، يكون النص إخبارياً فقط : فهو يعطي معلومات عن دين قديم ، لكن يمكن فهمه أيضاً كنص يخبر عن الحقيقة العميقة عن الإنسان ، وعن الإله الكائن . إنه يضع كلمة واستفهاماً عن العلاقة بالعمل واللغة ، عن الآخر والآخر الأعظم (الله) . الاقتراب إلى هذا النص يتخلّى عن مستوى الخبر ليصل إلى ما أسماه (Ricoeur) بالحديث الشعري ، الذي يخلق معنى أكثر بُعداً من التعبير الأولي لكل كلمة .

وبالقياس على ذلك هناك مجال لاستخدام النص الإخباري في الكتابة في الاستخدام التطبيقي لنقل معلومة . يمكن القول أيضاً إنه يولد شعاعاً من المشاعر والشخصية ، الحياة والأمل .

بابل - وضد بابل

إن الفكر في حاجة للغة حتى يكون مُدرَكاً ، وبالتبادل . يؤثر إنشاء اللغة على عالم الفكر . أثبتت الدراسات أن الصينيين والأفريقيين والفرنسيين لم يكن لديهم نفس طريقة البرهنة والتحقيق نتيجة لنظامهم الذي يحدد لغاتهم الخاصة . كما أن كل شعب منهم قد قاوم اختلاف للغات واللهجات لصالح لغتهم الخاصة الرسمية ضماناً لوحدة الأمة . كما بحث الشموليون في كيف يفرضون -إن لم يكن لغة خاصة- فعلى الأقل يفرضون مفردات محددة وشعارات وتعبيرات تنقل القيم التي يدافعون عنها .

إن عبور اللغات المتعددة لكل قبائل أنسال نوح إلى لغة بابل الوحيدة ، يصنع عبوراً من اللغة الشخصية إلى لغة عملية . عندما تقول الآية الأولى في أصحاحنا : « كانت الأرض كلها لساناً واحداً ولغة واحدة » ، فإن المفسر الربيني يحلل ذلك بالقول « في هذا العصر ، كانت كلمات العالِم متطابقة . يستخدم العالم نفس الكلمات دون معرفة معناها الحقيقي » انحصرت اللغة الموجودة (المشتركة) في استخدامها العملي ، الطوبة هي الطوبة ، والمونة كانت مونة بالنسبة للعالِم . لغة بابل هي لغة خالية من الإحساس ، دون استعارات ، دون شعر . . . . لغة بسيطة مستخدمة .

الهدف من لغة عملية هو أن تكون فعالة (لشيّ) طوبة ، وإصعادها إلى أعلى برج ، وجمعها مع أخريات حتى ينتهي العمل بالوصول للسماء . (لتحقيق) لغة بابل نستطيع أن نأتي باللغة الإخبارية الإعلامية التي تنحصر في تتابع أرقام موجبة وسالبة . إنها فاقدة للأحاسيس : أرأينا من قبل حاسباً يظهر مشاعر ؟

بعكس اللغة العملية والإخبارية لبابل ، نجد اللغة المعتبرة من المفسرين الربيين مثل تلك الخاصة بالملائكة ، في اللغة العبرية نجد لكل كلمة معانٍ كثيرة ، والتي تكون متضادة في بعض الأحيان . في دراستهم للكتاب المقدس ،

ينظر المعلمون لما يحدث عندما نغير حرفاً من مكانه ، أو عندما نستبدله بآخر قريب منه . إنهم دائماً يبحثون عن اللعب بالكلمات . للكنايات رنين وللاستعارات معانٍ جديدة تضاف إلى النص . ومثالاً على ذلك فإن كلمة « خبز » « وملح » في اللغة العبرية تكتبان بنفس الحروف . وبزيادة حرف واحد آخر نجد الكلمتين تعنيان « رفض » و « حلم » .

لتصوير تعدد التزاوج للعبرية ، نستطيع الرجوع إلى خلْق المرأة ، المنتزعة من ضلع الإنسان . لقد رأينا أن كلمة (ضلْع) تعني عظمة من القفص الصدري ، لكنها أيضاً تعني الجانب ، الحد . والكلمة تعني أيضاً (سقوط ، نكبة ، عذاب) ، وهي تأتي من فعل يعني (عرِج ، إصابة ، خلل ، تردد) . وهكذا نرى ما نستطيع استخراجه من هذه القراءة ، بالرغم من أن التلمود رفض التحليل الذي يقدم المرأة مثالاً لسقوط الإنسان . بتغيير حرف تصبح كلمة (ضلع) (ظل ، وجه أو عصعص) . باتِّباع هذه الطريقة نستطيع مضاعفة التحليلات حسب الرغبة . تظهر دراسة أي نص سلسلة من المعاني المتتابعة حتى اللانهاية .

حسب تقليد قديم ، لكل آية في الكتاب المقدس سبعون معنى مختلف . يُحكي أنه ذات يوم قرر طالب تكريس كل دراساته في آية واحدة ، حتى يصل إلى السبعين تحليلاً . وعمل لمدة سنين ليصل إلى هدفه . وعندما نجح أخيراً ، جمع نتائج أبحاثه في كتاب وذهب ليقدمه لمعلمه . فقال له هذا الأخير : « إنه عمل جيد جداً ، لكن عليك الآن أن تبدأ في اكتشاف المعنى الواحد والسبعين لهذه الآية » .

لإعطاء مثل عما يؤدي إليه هذا العمل من سلاسل المعاني ، قام (André Neher) بدراسة في الآيتين الأوليين لنصنا : « وكانت الأرض كلها لساناً واحداً ولغة واحدة . وحدث في ارتحالهم شرقاً أنهم وجدوا بقعة في أرض شنعار وسكنوا هناك » . بعد العمل على معنى وتزاوج كل كلمة ، أقترح الترجمة التالية : « المأساة تكمن في أن الإنسانية في مجملها كانت تعيش في ناحية واحدة ، ولها تاريخ واحد ، ومن هنا نشأت المأساة الثانية وهي أن البشر ضلوا الاتجاه ، وأنهم عند اكتشافهم هوة عميقة في الوادي حيث كان أموات الفيضان مكدسين ، قرروا السكن بها »(٣) .

في محاولة أخرى ، اتَّبع الفيلسوف (Jankélévitch) الطريقة الربانية ليطبقها في مجال الفلسفة . كان الهدف الذي يبتغيه في بحثه هو أخذ الكلمات التي تعمل كدعامة للفكر ، واستخدامها في كل المواضع الممكنة : « يجب تدويرها ، وتدويرها على كل أوجهها ، بأمل أن يتدفق منها بريق ، لمسها وجسّها ، وسماع رنينها ، لاختراق سر معناها »(٤) .

قارن (الزوهار) الذي كان يتناول المعالجة الرمزية ، الكلمات الخاصة بخلْق الإنسان في جنة عدن . خُلق آدم في وقتين ، فكوَّن الله أولاً جسمه من تراب الأرض ، ثم أعطاه نفخته للحياة لكي يصبح كائناً حياً . هكذا هو بالنسبة للكلمات . خلق الله أولاً الحروف الصامتة التي هي مثل هيكل الكلمة ، ثم ظهرت حروف العلّة التي

(٣) André Neher, De L'hébreau au français Klincksieck, 1969, p.79.

(٤) Cité par Marc- Alain Ouaknin, ***Lire aux éclats***, Quai Voltaire 1992, introduction p.IV.

نُفخت بنفخة الحياة . في اللغة العبرية ، لا تُكتب حروف العلّة ، ومع ذلك فلفظها هو الذي يحيي الكلمات ، ويعطيها رنينها ولونها . الكلمة ليست إشارة بسيطة تشير إلى شيء ، إن لها حياة ، روح ، وهي تتكلم .

عالم..... بابلي

في بابل ، قصر الإنسان اللغة ليحصرها في تبادل بسيط للمعلومات ، في هدف واحد وهو بناء برج يلمس السماء . لكن النص البابلي هو أيضاً إعلان بخبر عظيم وجميل : يقاوم الله المتكبرين . عندما تمس الإنسانية في كمالها ، يتدخل الله . في بابل ، نزل من سمائه ليمزج الألسنة ويعيد إدخال الاختلافات في التشابه .

يسأل هذا النص عالمنا ، والذي في قلبه نراه ينمي ميولاً بابلية . الأبراج التي تتظاهر بأنها تلمس السماء تُشيَّد في كل القارات وفي كل بلاد كوكب الأرض . تصبح اللغة عالمية أكثر فأكثر ، في بُعدها العالمي ، تفقد رخاءها وشاعريتها لتنحصر في طبعها الاستخدامي ، تكسب التكنولوجيا كل المجالات ، وتصبح كونية . وتدمر العولمة التجارية الصناعات المحلية التي لا تبقى إلا كاستخدامات للمتاحف والسياح . يتواصل الناس عبر شاشات موضوعة أمامهم . قريباً سيتمكنون من العمل ، الاتصال ، التسوق ، وحتى السفر دون التحرك من أمام حاسباتهم . فلوحة المفاتيح تحل محل الفم ، وتختفي اللغات المحلية لصالح لغة واحدة فائقة كونية ، واجه الله كبرياء بابل . إذا أردنا سماع كلمته ، فهو يدعونا لمقاومة بابلية عالمنا . لفتح طرق هذه المقاومة ، ها هي بعض المساحات .

• إعادة إعطاء معنى للكلمة بفتح مجال للحديث (حرفياً كلمة حديث تعني عبور كلمة الآخر) . أين هم الشعراء ؟ يجب دائماً اختراع كلمات جديدة ، خلْق مساحات (أجناس) للكلمة ، القصة ، الصلاة ، تعلُّم لغات جديدة . عندما يعلِّم الرسل لهجات لا يستخدمها سوى بضعة عشر آلاف من الأشخاص ، ويكتبون قاموساً و« قواعد نحو » لترجمة الكتاب المقدس ، فهم بذلك يقاومون بابل .

• نحن مدعوون لتنمية الميل للتواضع ، والوقوف ضد المشاريع الشاسعة والمتكبرة ، المعلومة شبه الرسمية والرسمية ، الجلبة والإشاعة . ولكن الذي يجعلنا نفيض بالحياة هي أفعال الكرم مجهولة الفاعل ، والمقابلات الشخصية . عندما يعمل علماء الطبيعة لحماية « نوع » من الفراشات المهددة بالانقراض ، يصنعون المزيد لإنقاذ عالمنا أكثر مما يفعل (المهندسون) الذين يتفننون في إنشاء منشآت أكثر أهمية .

• وأخيراً الصراع ضد التشابه . هذا التشابه الذي يظهر حتى في الكنائس في صيغة الاعتراف . يجب عمل دعوة للتخيل ، للإبداع لكل واحد . في الأحاديث ، كان الاختلاف معلناً ، لكن في الأفعال ، كان القياس الواحد هو الذي يكسب .

إن الفكرة الجوهرية الكبيرة لبابل ، هي أنه عندما يوجد الإنسان أماكن جديدة وفرص كلام جديدة ، عندما يتصارع من أجل مشاريع متواضعة ، وعندما يقاوم ويكافح ضد التشابه ، فالله معه . . . وقد بلبل جيداً ألسنة بابل !

اللغة الجديدة

(١٩٨٤) هي رواية لـ (چورج أورويل George Orwell) والتي تصف مجتمعاً متكاملاً . للوصول إلى مرحلة الطغيان ، فاخترع المستبد لغة جديدة : « اللغة الجديدة . هي اللغة المصنوعة من كلمات مختصرة وقصيرة ، ذات معنى محدد ، والتي تلفظ بسرعة وتعطي أقل صدى في روح السامع » . المشروع هو القدرة على الاتصال بين البشر ، مع منع كل فكر شخصي ، « كان إفقار المفردات يعتبر مثلاً لنهاية الذات . . . . كانت معاني الكلمات محصورة بصرامة أكثر بكثير . وتم التخلص من تنوعها وغموضها »(٥) .

وقد وضع نمرود ، حاكم بابل ، شكلاً قديماً للغة جديدة (novlangue) ، وهذا هو السبب الذي من أجله تدخل الله .

لتعيين التضاد بين اللغة الجديدة (novlangue) ولغة الله ، نأخذ مثلاً من كلمة الخبز في الـ (novlangue) ، تعني هذه الكلمة مزيجاً من الدقيق ، والماء ، والملح والخمير بكميات محددة ، موضوع في الفرن لوقت محدد . يدعو تحليل آخر للغة إلى سماع الطريقة التي تدوي بها هذه الكلمة في وجدان شخص ما ، وأسمعه وهو يقول : « عندما أفكر في كلمة خبز ، أفكر في الحرارة الخفيفة والرائحة الطيبة التي تخرج من المخبز والذي كنت أعبر من أمامه عندما كنت طفلاً ، ذاهباً للمدرسة . أفكر في بائعة الخبز الصغيرة في ركن الشارع والتي تقاوم الطبقات العليا الكبيرة ، والتي لها دور مهم جداً بالنسبة للأشخاص الذين يعانون الوحدة . أفكر أيضاً في تلك الجماعات من الرجال والنساء ، الملقين على طرق المنفى ، للبحث عن قليل من الطعام . أفكر في الخبز اليومي الذي كان لي الامتياز أن أجده كل الأيام على مائدتي . أفكر في أيام الصبا التي علمتني طعم وثمرة الخبز . أفكر في خبز الشركة يوم الأحد صباحاً ، والذي يصبح علامة لوجود وحياة المسيح في وسطنا .

تحدث كلمة « خبز » أكثر بكثير من وصفة مطبخ ، إنها تتكلم في حنين الذكريات ، التمسك بحي ، فوضى العالم ، النعمة اليومية ، وحياة المسيح . . . .

---

(٥) Goerge Orwell, *Les principes du novlangue,* in 1984, Gallimard Folio N°822, p.421.

بابل والروح القدس في يوم الخمسين

تقليدياً ، يضع التحليل المسيحي ، الروح القدس مقابل بابل ، ففي بابل عبّر الناس من لغة واحدة إلى لغات مختلفة . بينما في يوم الخمسين كان البشر مختلفين ، لكنهم فهموا كلهم كلمة الرسل . تضمّن الحشد الذي كان في أورشليم بشراً من كل البلاد وكل لغات الامبراطورية الرومانية . مع ذلك ، سمع كل واحد ما قاله بطرس بلغته الخاصة ، في لغته الأم(٦) . نستطيع فهم اللغة الأم مثل اللغة الأصلية ، لكن أيضاً مثل لغة الطفولة ، لغة القلب ، لغة الباطن .

ذات يوم ، تقابل طلاب مع أستاذهم في جلسة قضوها معه في المساء . وعند انصرافهم قال واحد منهم لأصدقائه : « أنا آسف من أجلكم إذ لم يتكلم الأستاذ إلا معي ، لأني حقاً كنت في حاجة لسماع ما قاله لي . فأجاب الثاني : اعذرني ، ليس معك وحدك تكلم ، بل معي أنا أيضاً » حصل كل واحد منهم على كلمة الأستاذ كما لو كانت موجهة له شخصياً(٧) .

علامة الروح ، هي عندما يسمع الإنسان كلمة موجهة لجمع من البشر ، وأن يستقبلها كما لو لم تكن موجهة إلا له . لغة يوم الخمسين هي لغة تتكلم ، إنها عكس ما نسميه بلغة الخشب التي هي لغة صامتة جامدة .

(٦) أعمال الرسل ٢ .

(٧) Martin Buber, *Les récits hassidiques*, Monaco 1978, p.106.

٢٥

الاتحاد والتشابه

إن هدف الفكر الكلي هو نهاية الصراعات.

(هانا أراند Hannah Arendt)

١– وكانت الأرض كلها لساناً واحداً ولغة واحدة. ٢– وحدث في ارتحالهم شرقاً أنهم وجدوا بقعة في أرض شنعار وسكنوا هناك. ٣– وقال بعضهم لبعض هلمَّ نصنع لِبناً ونشويه شياً. فكان لهم اللِبن مكان الحجر وكان لهم الحُمر مكان الطين. ٤– وقالوا هلمَّ نبن لأنفسنا مدينة وبرجاً رأسه بالسماء. ونصنع لأنفسنا اسماً لئلا نتبدد على وجه كل الأرض. ٥– فنزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما. ٦– وقال الرب هوذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم وهذا ابتداؤهم بالعمل. والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه. ٧– هلمَّ ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض. ٨– فبددهم الرب من هناك على وجه كل الأرض. فكفُّوا عن بنيان المدينة. ٩– لذلك دعي اسمها بابل. لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض. ومن هناك بددهم الرب على وجه كل الأرض. (تك ١١: ١– ٩).

كل الأباء يقولون : « عندما يكبر الأولاد يفرّون من حكم العائلة ، ويحدث أنهم لا يتبعون الطريق الأفضل لهم » . وكان أول من اختبر هذا الأمر هو الله الذي رأى الإنسان يتمرد على كل سلطة ليتبع طريقه الخاص . إذا كان الأصحاح الأول للتكوين يمكن أن يترك انطباعاً يجعلنا نشعر « بمخلوق كامل » يحكم نفسه عبر الكلمة الإلهية الوحيدة ، فالأصحاحات التالية تثبت أنه ، منذ أن ظهر الإنسان ، هرب المخلوق من إرادة الخالق .

إعادة قراءة

عندما ننتهي من قراءتنا للأصحاحات الأولى من التكوين ، نستطيع نشر صورة مفصلة لمقاومة الإنسان لمشروع الله .

يتكلم الأصحاحان الأول والثاني كل واحد بطريقته ، عن خلْق الإنسان . ويضعان رسالتان أساسيتان .

• الإنسان هو آدم . خُلق فرد واحد (فريد) ، في اختلاف عن الحيوانات التي خُلقت حسب أجناسها .

• الإنسان مدعو بكلمة . حصل على دعوة للتزاوج والإكثار ليسكن الأرض . ولكنه مثل طفل متمرد ، منذ أن يعطيه الله حق الاختيار ، يأخذ الطريق دون الله .

• كان لآدم وحواء آلاف من الثمار في متناولهما ، لكنهما أكلا الثمرة الوحيدة المحرمة . إنهما يرفضان الحدود الموضوعة لهما في الخليقة ليصبحا هما أنفسهما الله . إنه رفض كل حكم خارجي ، رفض الآخر .

• كان لقايين وهابيل العالم بكامله ليتشاركا فيه ، مع ذلك لم يتحمل الأكبر الاختلاف مع أخيه . لقد تكدَّر بالغيرة وأصبح قاتلاً لأخيه ، إنه رفْض الآخر .

• ترك الله لقايين علامة لتحميه ، لكنه فضَّل إدارة حمايته الخاصة ، وأقام مدينة . وأقام أصل كل حضارة مبنية على التكنولوچيا ، العنف ، واسترقاق المرأة .

• رجع جيل الطوفان إلى مبدأ المتباينات والمتغيرات الذي كان في أصل الخلْق . كانت كل التباينات بين الرجل والمرأة ، الإنسانية والحيوانية ، الإنسان والإله ، قد مُحيت . عاد العالم للخراب الأول .

• في بابل ، يرفض الشعب إعمار الأرض كلها كجماعة واحدة . يتجمع البشر ليتكلموا لغة متشابهة واحدة ، وإنشاء برج لطرد الله من حياتهم . يرفض آدم التباين مع الله . يرفض قايين التباين مع هابيل . يرفض جيل الطوفان التباين بين أولاد الله وأبناء الناس . وفي بابل ، يرفض البشر التباين في اللغات .

لبناء البرج ، توحَّد البشر ، لكنه توحُّد مبنى على رفض التنوع ، يتشابه فيه الرجال مثل قشاط الطاولة بلا تغيير . الخليقة نموذج تنُّوع ، وأكبر تحدٍ في الحياة الإنسانية هو مدى ما تحققه من تغيير . في هذا التنوع الكبير لأعمال الله ، كل شخص وكل شعب مدعو لإيجاد مكانه ، اتِّباع طريقه الخاص ، لكن البشر فضلوا اتحاد الربوت (الإنسان الآلي) . المجتمع الذي تقدمه بابل هو عالم حيث الإنسان لا يُميز إلا برقم تأمينه الاجتماعي ، حساب في البنك ، وسجل سيارته . مجتمع حيث يُدخل الإنسان. كل مساء مثل كل الناس الداخلين في عمارة ، فهو متماثل كالآخرين ، يشاهد نفس برامج التليفزيون كجيرانه ، ويتسابق في السوبر ماركت للحصول على أكبر قدر من المشتريات ، ومع انتظار السفر في إجازة في نفس الأماكن الفردوسية . إنه مجتمع العقلية الفائقة الذي يحصر الإنسان في رقم ، آلة ، أداة ، مستهلك .

في نموذج بابل ، يجب على الرجل أن ينصبّ في القوالب المعدة له عن طريق المجتمع . عندما ننشيء برجاً ، فالذي يتم حسابه هو البناء وليس الطوب ، هناك حق للبرج على الطوب وليس للأحجار على المبنى . إنه منطق

يغري بحقوق المجتمع على الأفراد وليس بحقوق الأفراد على المجتمع . وهكذا ، يخطو الإنسان إلى بابل تدريجياً . إنه لا يفعل بل « يفعل به » إنه « يدار » ، تنفتح بابل على ضياع الذات .

الاتحاد الخيالي لبابل كان دائماً يغوي البشر . يوجد مثَل ساخر يمثل محاولة عبثية تعود لعام (١٩٧١) التي أراد واضعوها إعادة رسم الأقاليم الفرنسية بتقطيع الأرصفة كمربعات متساوية !

بابل وقوس قزح

في سياق التكوين ، يتعارض نموذج بابل مع رسالة قوس قزح . علامة العهد الأول بين الله والإنسانية هي رمز اتحاد لا يرتكز على التشابه ، بل على تكامل الأشخاص .

مواجهة لبابل ، تتكلم أسطورة الألوان التي حكينا عنها عن عالم علاقات الأفراد : « إذا كان الله قد خلقكم مختلفين ، فهذا لتظهروا من خلال صبغتكم الخاصة ، وأن تعيشوا في صحبة جيدة بجانب بعضكم البعض » .

في قوس قزح ، كل لون له تأثيره الخاص . علامة عهد الله ليست بلون باهت والذي سيكون نتيجة لمزج كل الألوان . الألوان ليست باهتة ، إنها براقة ، منتشرة بجانب بعضها البعض في نظام يعطي انسجاماً محدداً . وهكذا بعكس قوس قزح ، يرتكز نموذج بابل على التشابه . إنه يقدم عالماً من الأسود والأبيض .

الخليقة بكاملها ، تتنفس ، تتحرك في سجل قوس قزح . يكفي فتح الأعين للإعجاب بعالم حيث الغنى اللانهائي للأشكال ، ويتكلم امتزاج العطور عن التنوع الكبير لأعمال الله . عند إجراء القليل من البحث في علوم الطبيعة والحياة ، لا نستطيع إلا أن نكون مبهورين بتعقد الخلْق . . . وإبداع الخالق .

يستطيع التضاد بين بابل وقوس قزح الانتشار حسب ثلاث تتابعات :

* تشابه أو تفرُّد

التشابه هو إغراء يميل له الناس في كل زمن . إن الأطفال يرفضون الزي المدرسي ، لكن هذا أفضل لإخضاعهم لقوانين تؤدي إلى أن يشعروا بالتمييز بين عدة أشكال أخرى . وهذا ينطبق على كل الملابس . يوجد في كل مجالات الثقافة طرق تعبر عن طرق الأكل ، التسلية . . ألا نتكلم عن فكر فريد ؟ كان في متناول رجال بابل أحجار الخلْق ليبنوا مبناهم ، واختاروا صبّ طوب متماثل تماماً . في التنوع الكبير لأعمال الله ، فضّلوا التشابه الموحد للمواد سابقة التصنيع .

يظهر التشابه البابلي في سلوك البشر . وسنجده في إغراء الدخول في الطابور ، عدم التجاوز ، الامتثال للأغلبية ، تعليل السلوك بتقليد العدد الأكبر . هذا السلوك الذي يتكون من القضاء على المسئولية الفردية والارتكاز على الإجماع من أجل التضامن أو السياسة . ولكن في مواجهة التشابه ، يدعو قوس قزح كل إنسان لاكتشاف لونه الخاص . متميزاً في الأفعال ، الكلام والسلوك . لكل واحد ثمار قيَمه وحريته ، وليس التقليد

الشاحب لسلوك جيرانه ![1] .

* عمل أو كينونة

يُظهر التضاد بين البرج وقوس قزح اختلافاً بخصوص معنى وقيمة الحياة . تُعرِّف بابل قيمة الإنسان من حيث إنشآته ، إنجازاته ، وأعماله .

أُفتتح إنجيل يوحنا بهذا التصريح : « في البدء كان الكلمة » . تساءل العالم « فاوست » عن معنى : « في البدء كان . . . » وقد حذف عدداً من الإجابات الممكنة ، ليستنتج باقتناع : « في البدء كانت الحركة » . هذه الحركة المضادة للكلمة ، نابعة من الكبرياء ، التي تعكس منطق بابل . الرجال ليسوا مخلوقين على صورة الله ، إنهم ماكينات تنحصر في قدرتهم على الإنتاج . وبهذا المنطق نستطيع أن نقول عن رجل إنه « يساوي » عشرة مليون دولار . نحن في عالم مميز بالحركة ، ونكتشف أننا لا نعرف أبداً ما هي الذات . فقد قال « ألبرت شفيتزر » في حديثه عند حصوله على جائزة نوبل للسلام في ١٩٥٢ : « أصبح الرجل رجلاً متفوقاً . لكن الرجل المتفوقة مع قدرة الإنسانية المتفوقة ، لم يصلا لمستوى الحكمة الإنسانية المتفوقة . . . يجب أن نستيقظ وندرك أنه كلما أصبحنا رجال متفوقين كلما أصبحنا غير إنسانيين » .

على عكس بابل ، تتكلم علامة العهد للإنسان لتقول له : إن له مكانة في وسط الأحياء ، ليس عليه أن يثبت أنه شيء ، ويمكنه وهو يكتب مسيرته أن يمشي في ظل قوس قزح .

برميثوس أو نوح

في الأساطير الإغريقية ، كان « بروميثوس » طاغية ، والذي سرق النار من السماء ونقلها للإنسان . ليعلمه كل المعارف التي ميزت بدايات الحضارة .

كان لنوح شخصية ، والتي تشبه بطل إغريقي في الأدب الربيني . لقد أدخل في الفلك محراثاً ، ومناجل ، وفأساً وكل الأدوات الأخرى لينقل « معرفة صنع » الحضارة والتي سيتم تدميرها . حسب كتاب « اليوبيل » ، كان يمكنه أن ينقل لنسله دواء طبياً[2] مضاداً للجحيم . الاختلاف بين (بروميثوس) ونوح هو أن الأول سرق الحضارة من آلهة لا يختلفون عن نوعية البشر . يرمز البطل (الخارق) الإغريقي إلى سلوك الرجل الذي يكتمل في أعماله . ولكي يصل الإنسان إلى كينونته يحتاج أن يعلن نفسه بحركته ضد الله . يختلف نوح عن برميثوس في أن نوح افتتح عصراً جديداً مميزاً بعلامة قوس قزح الذي يصنع الرابط بين السماء والأرض . بالعبرية كما بالفرنسية ، تعني قوس قزح « سلاحاً حربياً » ، لكن قوس العهد غير موجَّه نحو الأرض بل نحو السماء . يشير

(١) أُطلق اسم البروتستانت (المعارضون) على أمراء الألمان عام ١٥٢٩ ، لأنه ، عند اللحظة التي طُلب منهم الخضوع لروما اعترضوا بتلك الكلمات : « بالنسبة للأشياء التي تخص مجد الله ، السعادة وسلام الروح ، سيظهر كل واحد أمام الله ويؤكد له شخصيته الخاصة ، دون التعلل بالاعتذار عن قرارات مأخوذة من الجماعة » .

(٢) Jubilé X.1- 14, *in La Bible, écrits intertestamentaires,* Gallimard bibliothèque de la Pléiade, 1987, p. 680s.

انحناؤه إلى أن الله قد علّق قوسه . تتحول الظاهرة الجوية إلى رمز سلام يربط الأرض بالسماء . إنه علامة أن الله لا يغار من الإنسانية بل يقدم لها عهداً ليعيش في الخلْق وإعمار الأرض .

أي اتحاد؟

نسمع دائماً التكلم عن الاتحاد كقيمة إنسانية ، وأيضاً إنجيلية . ودافع الأنبياء عن اتحاد الشعب ، ودعا كاتبو العهد الجديد المسيحيين الأوائل ليكونوا متحدين . مع ذلك نجد في بابل اتحاداً غير جيد . يجب إذاً التفريق .

الاتحاد الخاطيء هو ذاك الذي لنمرود في بابل : « هلمَّ نصنع لِبْناً ونشويه شياً . . . نبني لأنفسنا مدينة وبرجاً رأسه للسماء » . ترتكز المصائر الشمولية على تمجيد الاتحاد الوهمي ، وتعظيم مشروع كبير يمثل الشعب . ويصبح الاتحاد في غاية الأهمية حتى أننا نحذف من لا يشاركون فيه . ونعتبر الذين يطالبون بالتفرُّد أو الاستقلال مرضى يجب احتواءهم ومعالجتهم ، أو خائنين يجب إبعادهم . الاتحاد الكلي هو شعار النازية : « الرايخ ، الشعب ، الفوهرر » . يدرج الشموليون في تصور عالم لا يوجد به غريب ، ولا مجهول ، ولا آخر ، ولا توقُّع ، ولا مخاطرة . إذا كان النازيون قد حذفوا اليهود ، والغجر ، والمرضى العقليين والشواذ جنسياً ، فهذا لأن جميعهم اشتركوا في صفة الاختلاف ، لعدم التماثل مع النموذج العام .

في مقابل بابل ، نستطيع سماع أب الكنيسة ديوناسيوس الأريوباغي ، **الذي توصل إلى قراءة أصلية** لمقطع من الإنجيل والذي فيه صلَّى يسوع من أجل اتحاد تلاميذه : « ليكونوا واحداً . . . . حتى **يؤمن العالم** » . **لقد قال إنه** لا يجب فهم هذه الصلاة على أنها دعوة ليكون تلاميذه واحداً ، جميعهم معاً ، **ليتكلموا** بصوت **واحد** . **الاتحاد** الذي صلَّى يسوع من أجله هو اتحاد د اخلي لكل واحدٍ . لا تنطبق هذه الآية على التباين السائد بين التلاميذ ، بل وأيضاً على التقسيم الذي يوجد في كل شخص . يحتاج التلاميذ للاتحاد إذ إنهم أشخاص ممزقون ومنقسمون . إيمانهم وحقيقة حياتهم ، رغباتهم وأفكارهم ، أفكارهم وكلامهم ، وأفعالهم . مواجهةً لكل هذا التمزق ، وضع (الأريوباغي) صورة الرهبان[٣] الذي عرَّفهم كالآتي : « حياتهم ، تبعد عن الانقسام . فهي تبقى واحدة تماماً ، لأنهم يتوحَّدون هم أنفسهم عن طريق قداسة تستبعد كل لهوٍ وعن طريق الامتداد إلى الاتحاد في سلوك يماثل الله ويتجه نحو كمال الحب الإلهي[٤] .

ويكمل الأريوباغي قائلاً : تحرِّضنا قراءة التكوين على التفكير بأن في النموذج المحدد حيث يكون الإنسان فيه غير متحد داخلياً ينقص الإنسان الاتحاد الداخلي ، فإنه يبحث ليختبيء في التشابه الخاص بالمجموعة . إنها تلك التقسيمات الداخلية التي تقوده لإثبات نفسه في أعماله ومنجزاته . وبالعكس ، إذا كان الإنسان متحداً داخلياً ، فلن يخاف من الاختلافات ، وسيستقبل اختلاف قريبه بالعرفان والتقدير .

في فيلم حياة براين (Dans La vie de Brian) وهو الفيلم الذي يعرض فيه مونتي بيتون (Monty Python)

---

(٣) لغوياً تأتي كلمة راهب من كلمة (monos) التي تعني « من هو وحيد » ، « واحد » ، « متوحد » .

(٤) Cité par Daniel Bourguet, *Le monachisme intériorisé*, Les cahiers des Veilleurs N°1, p.23.

موضوعات من الإنجيل ، يحاول يسوع إقناع الجموع ، الذي يسمعه مثل قطيع ، بأن كل إنسان عليه اكتشاف شخصيته الحقيقية . ويقول لهم : « إنكم كلكم أفراد متفردون ! » . ويعيد الرجال في الحشد ، بصوت واحد : « كلنا أفراد متفردون ! »(٥) .

تقود الصراعات الداخلية الشخص للاختباء في التشابه الخارجي ، بينما السلام والهدوء الداخلي يسمح باستقبال تنوُّع خليقة الله كبركة ، إذا تعلم الإنسان أن يسجل حياته تحت علامة قوس قزح مع وضع نعمة ومباركة الله في بدء تاريخه ، فسيستطيع قول « أنا » ، واكتشاف الاتحاد الحقيقي مع الآخر .

---

(٥) Raconté par Marie Balmary, Le sacrifice interdit, Grasset 1986, p.82.

من بابل لسدوم

بعد حنوك وبابل ، ستكون كلاً من أور وحاران هي المدن التي ستظهر في الكتاب المقدس واللتان تتمثلان في رموز العبودية التي كان على إبراهيم أن يتركها ، ثم سدوم المبنية من نسل حام . في التفسيرات الربينية ، سدوم هي بابل جديدة بطريقة ما . المدينة المنقادة عن طريق عالم قانون المستثمرين . خطية سدوم هي التشابه : على كل العالم أن يفكر في نفس الشيء ، والتفاعل بالمثل .

يحكي مفسر أنه عندما يصل غريب إلى المدينة ، يطلب منه الحكام الرسميون بالتمدُّد على سرير والذي كان موضوعاً في الميدان الرئيسي . إذا كان الإنسان صغيراً جداً بالنسبة للسرير ، يتم شد أعضائه حتى يصل للطول الموحد . وبالعكس ، إذا كان أكبر من السرير ، تقطع فخذاه حتى لا يتعدى الطول القانوني[٦] .

سجلت مدينة سدوم في قانونها إجبار الأخوية ، لكنها أخوية البشر المتطابقين القابلين للخضوع لهذا القالب سابق التجهيز . وويل لمن لا ينطبق على القالب ! .

(٦) Claude Vigée et Victor Malka, ***Treize inconnus de la Bible***, Albin Michel 1996, p. 23.

أي اتحاد للكنائس؟

لكي تتحد الكنيسة ، يتكلم بولس الرسول عن التنوع باستخدام صورة الجسد .[٧] مثلما يتكوَّن الجسم من أعضاء عديدة مختلفة عن بعضها البعض (ألوان قوس قزح) ، فالكنيسة مكوَّنة من أشخاص متفردين ، والذين معاً ، يكوِّنون جسد المسيح . وحتى يكون الجسد متجانساً يجب أن يجد كل واحدٍ مكانه المتميز .

وقد يحدث في بعض الأحيان لكنائسنا أن تتشابه مع لوحة (Miró) التي تقدم أجساداً متقطعة الأوصال حيث العين في منتصف البطن ، الأقدام عند طرفي الأيدي ، والفم مكان الشعر . ويحدث لكنائس أخرى ألا تكون مكونة إلا من أشخاص متطابقين ، الذين لهم نفس الأفكار ونفس السلوك . إنها غير مكوِّنة إلا من أيادٍ وبدون قلب ، أو من عقل بدون أقدام . بين التعدد والتشابه ، تتكلم صورة الجسد في قوس قزح المكوَّن من ألوان مختلفة ، والذي فيه كل لون لا يخشى الاحتكاك مع الآخرين حتى تستخدمه يد الله .

رفْض الاختلاف في قلب الكنيسة يقود إلى التوحُّد التام حيث يكون لكل العالم نفس اللاهوت عبْر نفس التجربة ، نفس الإحساس ، نفس القراءة للمكتوب ، نفس السلوك ونفس الإيمان . . . هو حلم بابلي .

٧ـ كورنثوس الأولى ١٢ : ١٢ - ٢٧ . وأفسس ٤ : ١٦ .

[٦]

إجابة إبراهيم

افرض حظك، قدم سعدك، اتجه نحو مخاطرتك.

وسيعتاد الناس على توجهك في الحياه
(رينيه شار René Char)

١- وقال الرب لأبرام اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك. ٢- فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظِّم اسمك. وتكون بركة. ٣- وأبارك مباركيك ولاعنك ألعنه. وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض. ٤- فذهب أبرام كما قال له الرب وذهب معه لوط. وكان أبرام ابن خمس وسبعين سنة لما خرج من حاران. ٥- فأخذ أبرام ساراي امرأته ولوطاً ابن أخيه وكل مقتنياتهما التي اقتنيا والنفوس التي امتلكا في حاران. وخرجوا ليذهبوا إلى أرض كنعان. فأتوا إلى أرض كنعان. ٦- واجتاز أبرام في الأرض إلى مكان شكيم إلى بلوطة مورة. وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض. ٧- وظهر الرب لأبرام وقال لنسلك أعطي هذه الأرض. فبنى هناك مذبحاً للرب الذي ظهر له. ٨- ثم نقل من هناك إلى جبل شرقي بيت إيل ونصب خيمتهُ. وله بيت إيل من المغرب وعاي من المشرق. فبنى هناك مذبحاً للرب ودعا باسم الرب. ٩- ثم ارتحل أبرام ارتحالاً متوالياً نحو الجنوب. ١٠- وحدث جوع في الأرض. فانحدر أبرام إلى مصر ليتغرب هناك. لأن الجوع في الأرض كان شديداً. (تك ١٢: ١-١٠).

هناك سؤال كلاسيكي للباليونتولوجي (علم الحيوانات والأشجار القديمة) عن الفرق بين الإنسان والقرد . يقول البعض إن الكلام هو ما يميز الإنسان ، وقال آخرون إنه استخدام الأداة ، أو الضحك ، أو الفن قال « شيرتون » : « ذات يوم جلس الرجل ورسم قرداً ، وأبداً لم يجلس القرد ليرسم رجلاً »[١] . وآخرون ، ادَّعوا أن وجود القبور ، وممارسة الطقوس الجنائزية ، هو ما يميز بداية الإنسانية . إن وجود القبر هو إثبات لسؤال رئيسي ميتافيزيقي وهو : ما هو الموت ؟ وهو ما يقول أيضاً : ما هي الحياة ؟ ميزة الإنسانية هي وضع الأسئلة . إنه حيوان يتساءل عن معنى الوجود .

بعد فشل برج بابل ، لم يعزم الله على ترْك الإنسانية في مواجهة كبريائها وبحثها عن التشابه . فقد حفظ مشروع مباركة لكل شعوب الأرض . ووضع بداية جديدة بدعوة الإنسان ، وحده .

نعزز تأملاتنا لنصوص البدء بدعوة إبراهيم ، الرجل الذي سمع صوت الله لأنه كان أساساً ، باحثاً عن المعنى .

إبراهيم، الباحث عن المعنى

الإنسان هو حيوان يبحث ، يسأل ، يدعو . أحياناً لا يجد ، ويخاطر بأن يصبح كسولاً في أبحاثه ، وينسى دعوته للبحث ويعيش اليوم بيومه ، مع محاولة الاستفادة من الحياة . وأحياناً يجد ويكتشف ويدرك ، وعند هذا اليوم ، يعرف أنه قد وصل . لقد وجد . . . إنه تواجد . لقد اكتشف إجابة لسؤال ظلَّ كثيراً مقبولاً ، ولكن بدون إجابة[٢].

يحكي التلمود حكايتين عن الطريقة التي تساءل إبراهيم فيهما عن سؤال المعنى . عندما كان طفلاً ، اختبأ في كهف ليهرب من غضب نمرود ، ملك أور ، الذي أراد قتله .

تنبأ السيد بأن نسل إبراهيم سيملأ الأرض . وعندما كبر ، خرج إبراهيم من مغارته ، وتساءل « من خلَق السماء ، والأرض ، بل وأنا نفسي من خلقني ؟ » . . عندما يرى الشمس تشرق ، يقول لنفسه : « إن سيد العالم وحده يستطيع إعطاء مثل كل هذا النور » ، وجلس كل الصباح يصلي للشمس . لكن في المساء تغرب الشمس في الغرب ، ويشرق القمر من الشرق محاطاً بالنجوم . وقال عندها : « إنه القمر الذي صنع السماء والأرض وصنعني أنا نفسي ، إنه يحكم الشمس وتلك النجوم خدامه » . وقضى الليل كله في صلاة أمام القمر . لكن عند الصباح ، يختفي القمر في الغرب ، وتشرق الشمس من الشرق . وقال إبراهيم عندها : « ليس للشمس والقمر أي قدرة ، يوجد إله أعلى منهما . إنه هو الذي أبحث عنه ، وسأصلي له ، وسأنحني أمامه »[٣] .

ونتيجة لاكتشافه الذي أعطاه قوة ، ثار إبراهيم على العبودية ، واقتيد أمام نمرود . وطلب الملك منه أن يعبد

(١) Jacques Ellul, ***La Genèse aujourd'hui***, Editions de l'AREFPPI, p.69.

(٢) Eugen Drewermann, **La parole et l'angoisse**, DDB 1995, p.53.

(٣) Rabbi Yaacov Couli, Meam Loez, Genèse Tome 2, Moznaim Publishing, Jérusalem 1993, p.74.

النار ، بما أنه لا يريد عبادة الصور . فأجاب إبراهيم : « عليَّ إذاً عبادة الماء بما أنه يطفيء النار » ، فطلب منه نمرود أن يعبد الماء ، لكن إبراهيم تابع أسبابه : « في هذه الحالة ، عليَّ أن أعبد السحب حيث الماء يأتي منها » . فوافق نمرود ، لكن إبراهيم قال : « أليس من الأفضل عبادة الريح التي تشتِّت السحب ؟ » فأمره نمرود بعبادة الهواء . وأنهى إبراهيم بقوله : « لا أستطيع عبادة إلا الكائن الحي الذي يأتي بالهواء »[٤] .

يعتبر إبراهيم أباً للمؤمنين لأنه لم يقبل أبداً الحقيقة كمُعطى ثابت (لا يمكن الهروب منه) ، لكنه ظل يتساءل دائماً أسئلة . (Rubem Alves) وهو لاهوتي برازيلي جعل من التساؤل أساساً للمنهج الديني ، فقال : « ليس قصد الدين شرح العالم . ولكن الدين ينشأ فقط عن الاعتراض على هذا العالم ، والذي يمكن وصفه وشرحه بالعلم . الدين هو صوت الضمير الذي لا يمكن أن يجد الراحة في العالم كما هو ، فهدف الدين أن العالم يتسامى . »[٥] . التجربة الدينية شاملة ، تختص بمركز حياتنا ، فهي تقابل رغباتنا ، وانتظاراتنا ، بحثنا . تأتي في قمة الحياة السرية للإنسان . وهذا هو السبب أن التجربة الدينية تظهر تحت آثار التعجب والاستفسار .

يقول المفسرون الربنيون إن الكروبيم الذين نُقشوا على تابوت العهد كان لهم وجوه أطفال . لماذا ؟ لأن ميزة الأطفال أنهم يضعون أسئلة ، يبحثون عن معرفة ، عن فهم . عندما لا نضع أي أسئلة ، فذلك دليل على أننا شخنا ، أو أننا أموات . الاستفسار ، هو الوقوف في مسافة متساوية بين الادِّعاء الذي يعتقد أننا نملك كل الإجابات ، والارتياب الذي يعتقد أن ليس هناك إجابة . لا الادِّعاء ، ولا الارتياب يضعان أسئلة . الادِّعاء هو كبرياء عقلي والارتياب هو إحباط : يتواجدان في قطبين على نفس الخط . ويشتركان في عدم وضع أسئلة ، سواء بإتيان أجوبة كلها مصطنعة ، أو بإعلان عدم وجود أجوبة ممكنة . اليهودية هي ديانة التساؤل . في أحداث عشاء الفصح اليهودي ، هناك لحظة ضرورية ترتكز على أربعة أسئلة صادرة من أكثر الأطفال حداثة عن أسباب الحفل . يجيب والد الأسرة مع سرد حكاية الخروج الذي يُعطي معناه في العشاء . ويتساءل الكتاب الطقسي إذن : ماذا يحدث إذا لم يكن هناك أطفال ؟ الإجابة إن شخصاً بالغاً يثير أسئلة وآخر يجيب . وإذا كان شخصاً واحداً وحيداً ؟ هو يثير السؤال ويجيب عنه في نفس الوقت . إن إثارة الأسئلة له قيمته أكثر مما يتراءى لنا . تظهر أداة التعريف في العبرية ، كحرف قبل الكلمة . نفس هذا الحرف هو أيضاً صيغة الاستفهام . وضع سؤال هو يعني إعلاناً ، وإعلان شيء ، هو سؤال . ولأن إبراهيم لم يكفّ عن البحث عن الله لذلك سمع صوتاً يطلب منه الرحيل . فقام عندها وبدأ المسير .

الوثن والحرية

بحث إبراهيم عن الله الحي الذي شك فيه في إثباتاته . هذا البحث جعله يفهم أن الأوثان التي كانت تُعبد

---

(٤) A Cohen, *Le Talmud*, Petite Bibliothèque Payot 65, p.43.

(٥) Cité par Léonardo Boff, *La terre en devenir*, Albin Michel, 1994, p.92.

في أور ، لم يكن لها أي قدرة . يحكي المدراش عن أن والد إبراهيم (تارح) ، كان صانع تماثيل ويبيعها كأوثان . ذات يوم كان إبراهيم يجلس مكان أبيه لإدارة تجارة الوثنية . أخذ إبراهيم عصا وكسر كل التماثيل ، ما عدا الأكبر ووضع العصا بين يديها . وعندما دخل أبوه ورأى كل التماثيل المتكسرة ، قال : « من فعل هذا ؟ » فأجاب إبراهيم : « إنه هو » مع الإشارة إلى أكبر الأوثان ، « لقد كان غيوراً ، وسحق كل الآخرين » . فسأل تارح إذ كان يسخر منه : « إنهم ليسوا إلا تماثيل ، لا تستطيع فعل شيء » . فأجاب إبراهيم : « ليت أذنك تسمع ما يقوله فمك ! »[٦] .

واستطرد إبراهيم بسؤال والده ، لماذا يعمل بحجارة تخاطب العبودية ويغلق على البشر بأكذوبة . كانت إجابة تارح تدعو للشك : « يجب كسب قوت الحياة ! » . على مدى التاريخ كله فإن المساومات الصغيرة للنذالة – كما الكبيرة – يجدان تبريراً لهما تحت عنوان كسب العيش . بموجبه كان تارح ذا طموح كبير : كان يمتهن صناعة صغيرة وتجارة مزدهرة وابن له قدرات كبيرة ، فلو أن إبراهيم قد قام بإجراء دراسات تجارية ، لكان قد وسّع الأعمال العائلية حقاً . لكن إبراهيم أجاب « ماذا سأكسب ؟ النقود ؟ سيارة كبيرة ؟ منزلاً جميلاً ؟ مركزاً مرموقاً ؟ » ، لقد كان إبراهيم يبحث عن شيء آخر . عندما قال له الله : « اذهب » ! ذهب وترك لنا أسساً أدبية (أخلاقية) ترتكز على مبادىء أخرى . على جبل سيناء ، سيحصل واحد من نسله على مبادىء قانون يؤسس مقاومة ضد العبودية واحترام القريب قبل الاهتمامات الشخصية والأمور الاقتصادية .

عاش إبراهيم في حضارة تميز الجماعة عن الفرد . كان الإنسان منزوعاً من قيمته الشخصية وهو ليس إلا طوبة موضوعة للبناء المجيد للجماعة . فقط في مسامع الرب ، ترك إبراهيم التجمع الشمولي ليسير ، وحيداً في طريقه . مثلما كتب الربي (هيراش Hirsh) بخصوص اليهود : « كيف كان من الممكن أن نوجد ، كيف نستطيع أن نكمّل مسيرتنا في الوجود ، إذا لم نكن قد حصلنا دفعة واحدة على الشجاعة من إبراهيم بكوننا أقلية ؟ »[٧] .

حاران ، المدينة التي دُعي إبراهيم ليتركها ، هي مدينة تنذر بعبادة الكواكب ، وهو ما كان منتشراً لحد ما في هذا العصر . كانت عبادة الشمس والقمر مشهودة أيضاً في مصر مثلما كان في جوار إسرائيل : الفينيقيون ، الكنعانيون ، والسوري – بابليون . وقد رأينا ، في الفصل الذي تناول خلْق الكواكب حيث حركتها متوقعة ومنتظمة تماماً . بترك حاران ، رفض إبراهيم القدَر ليدخل في تاريخ ومشروع . ذهب كإجابة لكلمة تقول : « أجعلك أمة عظيمة وأباركك » . بالخروج ، أصبح أباً لأمة اسمها إسرائيل والتي تعني : « الذي يصارع الله ، الذي هو أقوى من المصير المكتوب في النجوم »[٨] وبذلك أكمل إبراهيم أخيراً مشروع الله الموضوع في الخلْق ،

(٦) Rabbi Yaacov Couli, *ouvrage cité*, p.77.

(٧) Rav C.R. Hirsch, Commentaire *sur Le pentateuque, Tome 1 Genèse,* Editions Kountrass, Jérusalem, 1995, p.322.

(٨) انظر فصل ٤ : مكان الكواكب .

الذي يخص رجلاً واقفاً ، يتحرر من مصيره ليتجه نحو دعوته[٩] .

البدء في المسير

في بداية نص بابل كان البشر يسكنون في بقعة شنعار . لاحظ مفسر ربيني أنه في كل مرة نجد فيها كلمة « يسكنون » في الكتاب المقدس ، لا يكون إبليس بعيداً . وبالعكس كلمة يهذب « halakh » ، لها نفس أصل الكلمة التي تعني تطبيق القانون « halakhah » . البدء في المسير ، هو طريقة لطاعة الله بسماع الإيمان ، دُعي إبراهيم للترك ، المغادرة ، والبدء في السير . في نهاية الأصحاح الثاني للخلْق ، بعدما استقبل آدم حواء بقوله : « هذه الآن عظم من عظامي ولحمٍ من لحمي » . يضيف النص : « لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسداً واحداً » . الكلمة الموجهة هي دعوة لترك أهله حتى لا يظل في تاريخ أبائه ، ليكتشف دعوته الخاصة ، وإنشاء مستقبله ، ليصبح ممثل تاريخه . وقد رأينا ، في تأملنا لهذا المقطع ، أن في البلاد التي يترك فيها الأولاد أباءهم ، يكون البشر أكثر التصاقاً بحريتهم الفردية والجمعية . الشخصيات الكتابية واجهها تحدي قاسي وهو البدء في المشوار ، عندما فضلوا البقاء .

• لم يضع قايين نفسه في المسيرة . لم يبحث عن طريقه الخاص ، بل قارن نفسه بأخيه . لم يكن قادراً على تخطي غيرته ، وأصبح قاتلاً وهرب . لا يشترك تيهان قايين في شيء مع مسيرة إبراهيم ، إنه هروب ينتهي بإنشاء مدينة .

• لم يضع جيل الطوفان نفسه في المسيرة . لقد كان البشر أكثر انشغالاً لإشباع رغباتهم واستغلال من حولهم .

• إبراهيم ، نفسه ، رجل ترك أمه (مكان ولادته) ، وأباه[١٠] (منزل طفولته) وهكذا وجد نفسه . في مقابلة آدم وحواء ، كان فعل ترْك الأب والأم مشتركاً مع وعد : الترك والوعد ليسا سوى جسر واحد في هذا النص . البدء في سير إبراهيم مصحوباً بوعد للإثمار « أجعلك أمة عظيمة » ، موجهة لزوج عقيم . عندما بدأ إبراهيم طريقه أصبح مثمراً .

---

(٩) يذكر (Henri de Lubac) في (Drame de l'humanisme athée) بالانقلاب الذي قدمته الحقائق البدائية عن الإنسان في العالم القديم : « صنع الله الرجال على صورته ، وشكَّلهم واحداً واحداً . . لا تحكم الكواكب مصائرنا في مداراتها الثابتة ، الإنسان ، كل إنسان مهما فعل له صلة مباشرة مع سيد الكواكب نفسها ، وهكذا تسقط القوى المتعددة الآلهة . . الجبابرة –المردة . . إلى التراب والذين كانوا يحصرون حياة الإنسان في شبكة إرادتهم الطاغية .

(١٠) وضع المفسرون ملاحظة أنه ، حسب حسابات الأعوام في نهاية الأصحاح ١١ ، كان تارح أبو إبراهيم ما يزال حياً عندما غادر إبراهيم ، حتى لا يقول الناس : « لم يتمِّم إبراهيم واجبه بإكرام أبيه » (Cf. Rachi, ***Commentaire du Pentateuque, la Genèse,***) يتحدث أيضاً أن في الكتاب المقدس يدخل الوفاء العائلي في تحدٍ مع الحرية الفردية .

اذهب لنفسك!

بالعبرية ، الكلمة التي وجهها الله لإبراهيم ، تقول بالتحديد : « اذهب لنفسك خارج بلدك » ، اذهب لنفسك ، أو اذهب نحو نفسك ! بهذه الكلمة ، قال الله لإبراهيم إنه في الطريق سيجد نفسه ، وسيكتشف شخصيته الحقيقية ، ومعنى الحياة . في منفاه ، فهم إبراهيم أن شخصيته لا توجد خلفه في ولادته وجنسيته أو أرضه ، بل إنها أمام خطواته ، عند أول مسيرته في الصحراء . الكلمة التي أعطاها الله لإبراهيم لا تقول : « اذهب للبلد التي أريك إياها » لكن « اذهب للبلد التي سأريك إياها » . حتى الهدف نفسه من المسير سيكتب في المستقبل ، سيكتشف هذه بعد عدة سنوات من المسيرة . أصرَّت بعض الكتب على التعبير : « اذهب لنفسك » أو « اذهب نحو نفسك »[١١] . إن خروج إبراهيم ليست تضحية الرجل الذي يتنازل عن راحته وهدوئه ليرضي إله يجب أن يُطاع . يحكي المدراش أن إبراهيم يماثل قارورة عطر ورد موضوعة في ركن ، ومغلقة بسدادة (غطاء) . لا يُشتم منها شيء . لكن عند اللحظة التي بدأ فيها السير ، كأنه قد فتح وبدأت الرائحة في الانتشار[١٢] .

كتب (Baal Shem Tov) مؤسس الحسيدية : « ليعرف ويأخذ كل واحدٍ في اعتبار أنه بحسب طبيعته ، فريد في العالم ولا يوجد شخص مطابق له قد وُجد أبداً ، إذ إنه لو وُجد الشخص المطابق قبله ، فلن يكون هناك حاجة لكينونته هو شخصياً » . إنه ليس من تفرده ، ولا في البحث عن طريق غريب له ، يكمل الإنسان طريقه : « فالذي يريد السير في طريق صاحبه ويترك طريقه الخاص به ، لا يكتمل لا في هذه الطريق ولا في الأخرى . كثيرون تصرفوا مثل الربي (شمعون بار يوهاي) ولم يصلوا لشيء لأنهم لم يكونوا على نفس طبيعته لكنهم فقط نظروا إلى طبيعته التي كان عليها[١٤] . قال واحد من تلاميذه ، قبل موته بوقت قليل : « عندما سأتقدم أمام المحكمة السماوية ، لن يسألوني لماذا لم أكن إبراهيم ، يعقوب أو موسى . بل سيقولون لي : « لماذا لم تكن نفسك »[١٥] حقيقة الشخص لا توجد لا في التقليد « أي التراث » ولا في التقليد « أي في تقليد شخص آخر » بل في البحث عن دعوته الخاصة .

كان إبراهيم في الخامسة والسبعين عندما غادر . عند الخامسة والستين لم يكن هو نفسه . . . أنشأ مذبحاً ودعى الرب . . باسمه . إنها المرة الأولى التي يُدعى فيها الله باسمه .

وضع (Martin Buber) فكرة مشهورة عن العلاقة بين (أنا) و (أنت) . لقد أثبت أنه بكينونة (أنا) يستطيع

---

(١١) نفكر خصيصاً في كتاب Marie Balmary, *Le sacrifice interdit*, Grasset 1986 الذي أظهر غنى هذا الموضوع الذي كان مهملاً تقريباً في الشرح المسيحي .

(١٢) ***Midrash Rabba, Tome 1, Genèse Rabba, 39,2*** Verdier 1987, p.398.

(١٣) in Martin Buber, ***La légende du Baal- Shem,*** Editions du Rocher, Monaco, 1993, p.37.

(١٤) idem p. 38.

(١٥) in Elie Wiesel, ***Célébration hassidique,*** Seuil Points Sagesses N°3, Paris 1972, p.128.

الشخص تقدير الآخر بلفظ (أنت) وليس بنفظ « **ذلك** »[١٦] . وقد وُضِحت نفس الفكرة قبل قرنٍ عن طريق « Menahem Mendel de Kotz » **الذي قال : « إذا** كنت أنا لأن أنا هو أنا ، إذن أنا هو أنا وأنت هو أنت . لكن إذا كنت أنا هو أنا لأن أنت هو أنت **وأن أنت** هو **أنت** لأن أنا هو أنا ، إذن أنا لست أنا ، وأنت لست أنت »[١٧] . بالتحول لنفسه ، استطاع إبراهيم دعوة **الله** باسمه ، واعتباره مثله جنباً لجنب يتشارك مع الإنسانية في علاقة مبنية على العهد والكلمة . إنها تلك العلاقة التي بحث الله عنها منذ البدء ، والتي رفضها الإنسان دائماً . في الجنة ، اختبأ آدم وحواء لأنهما كانا عريانين . هرب قايين ليختبيء خلف أسوار مدينته . وهرب نوح في سُكره . أراد جيل الطوفان أن يكتمل في بناء برجٍ . سمع إبراهيم كلمة ، وذهب ، وحيداً ، ليدعو الله باسمه . لأنه كان (أنا) ، أصبح إبراهيم مصدر مباركة لكثيرين . لا يتنازل الله عن مشروعه بالدخول في علاقة مع كل شعوب الأرض ، ويختار العبور بواحد فقط لمباركة كل الإنسانية . اليوم ، يعتبر إبراهيم أب المؤمنين اليهود والمسيحيين والمسلمين . وأكثر من المؤمنين ، يذهب إبراهيم أيضاً لمقابلة ملكي صادق راعي الإنسانية الذي لا يعرف الإله الكتابي بل الذي عاش حسب العدالة[١٨] . يستطيع كل البشر إيجاد خليقة الله ، الكمال لمشروع الله في مسيرة هذا الرجل وحده في الصحراء .

---

(١٦) Martin Buber, ***Je et tu,*** Aubier 1992.

(١٧) Joseph Telushkin, ***Le grand livre de la sagesse juive***, Calmann-lévy 1999, p. 297.

(١٨) تك ١٤ : ١٧ – ٢٤ .

إبراهيم يسير.... نحو المجاعة

في أرض كنعان ، وجد إبراهيم . . . المجاعة ، لم يستطع السكن ، وواصل مسيرته حتى مصر . إذا كانت مسيرة إبراهيم هي بحث من أجل اكتشاف نفسه ، فإن بقية التكوين يدل على أن الطريق أطول مما توقعه . عليه أن ينتظر خمسة وعشرين عاماً حتى يكتمل الوعد بالذرية . نسله هو الذي سيكون المالك بالقانون لمدن كنعان .

إذا كان يبدو أن الطريق طويل وصعب أحياناً ، فإن الإنسان يستطيع دائماً أن يقول لنفسه إن إبراهيم سبقه على هذا الطريق .

إنه طويل وصعب الطريق الذي يقود للحرية . . . . لكنه ممتليء بالوعود .

حقيقة عدم الإيجاد

قال السيد الحاسيدي الكبير (يعقوب) : « عندما كنت في الثالثة عشر ، كنت أستطيع التعليق والشرح دون تأخير المقاطع الصعبة من الكتابة ، وفي الثامنة عشر ذهبت إلى أستاذ كبير في القانون . هكذا فقط ! تراءى لي أنه بالدراسة فقط لن نصل للكمال ، وفهمت ما يرد في المدراش بخصوص إبراهيم . لقد تفحّص الشمس ، والقمر ، والنجوم دون أن يجد الله ، لكنه عندما لم يجده ، ظهر له وجود الله . لقد تأملت ذلك الفكر لمدة ثلاثة شهور . ثم بحثت أنا نفسي وتفحصت طويلاً ، إلى أن وصلت ، أنا نفسي ، لحقيقة عدم الإيجاد(١٩) . وبالنظر إلى عبارة نصّنا ، فهناك احتمال ألا نكون قد وجدنا حقيقة ما نبحث عنه . لكن من يعلم فربما الحقيقة قد اقتربت منا ؟

(١٩) Martin Buber, les *récits hassidiques*, Editions du Rocher, Monaco 1978, p. 618.

خاتمة

عندما يعلمون أنه من أجل الكلام عن الله، كان من الضروري الكف عن الكلام عن الله، وأنه يجب الكلام عن الإنسان، عن وجه.. عن حياة... وبذلك يصبحون حقاً مسيحيين.

(روبام ألفيس Rubem Alves)

إلى أين سيكمِّل إبراهيم طريقه ؟ هل سيظل في مصر أم سيُقاد ليأخذ طريقه مرة أخرى ؟ كيف سيحصل نسله على أرض كنعان ؟ . تاريخ جديد يعلن عن نفسه ، وسيكون له أبطال مثل إسحق ، يعقوب ، يوسف ، ويهوذا ، موسى ، داود ، إيليا وآخرون . عبر حياة هؤلاء الرجال ، نجد وعوداً وقلقاً ، توبة ونسياناً وطاعة ، يتابع الله عمل الخلْق .

في الفصل الأول من هذا الكتاب ، تساءلنا عن فكرة الخلق نفسها التي تستدعي قطع ، فصل بين الخالق وعمله . ولتصوير هذه الفكرة ، أتينا بنظرية الـ (Tsimtsoum) التي افترضت أن الله ينسحب ، وينكمش في نفسه ، حتى يترك وقتاً ومساحةً ، والتي يستطيع فيها الخلْق أن يتعامل .

وفي الفصول التي توالت ، استخرجنا مقطعين كانت حركة الانكماش فيهما واضحة .

• في نهاية النص الأول للخلْق ، يدخل الله في ثبات والذي لم ينته بعد . نحن دائماً في اليوم السابع للخلْق ، وقت راحة الله . . . في انتظار اليوم الثامن للعصر المسياني .

• في نهاية الطوفان ، يرسم الله قوساً في السماء والذي يصبح علامة لعهد : لن يدمر أبداً الخلْق . يماثل هذا العهد أحادي الجانب ، خطوة أخرى للحكم الذاتي للخلْق بالنسبة للخالق .

عندما خلق الله الإنسان ، وضعه في عالم في حالة حركة ، عاش الزوج الأول في الوقت والفضاء الكوني يستطيع مشاهدة السماء والسير على الأرض . ترأس الشمس والقمر كلاً من النهار والليل وأحصيا الشهور والسنين . كانت الحيوانات مشاركة في النظام الحي ، ومعاً كان لهم النبات كغذاء . أخيراً ، حصل الإنسان على وصية : عليه أن يعمِّر الأرض ويثمر خلْق الله . إذا كان الزوج الإنساني –آدم وحواء– قد استطاعا الاحتفاظ بدعوتهما ، لكان الله قد استطاع أن يظل في سبته (ثباته) . لكن الإنسان قد خلق حراً . لم يبرمج ليطيع حرفياً ،

والإجابة التي أتى بها للوصية الإلهية تنبع من مسئوليته . بالفعل ، وضع مقاومة شرسة لكلمة الله ، مما أجبر الله للخروج من ثباته ليصلح ، يشرح ، يحدد معنى الدعوة التي أعطاها للإنسان . عندها صنع عهداً .

تدل القراءة التي استخلصها الربيّون من التاريخ الكتابي ، أنه عند عقد العهود المختلفة ، فإن مستوى مسئولية الرجال يرتفع أكثر فأكثر . في العهد مع نوح ، لم يكن للإنسان أي دور ، أما في سيناء فقد كان الشعب شريكاً حقيقياً ، وفقاً للتقليد استمر التطور حتى اللحظة التي اعتبر فيها الله أنه قال كل ما عليه ، وأن الإنسانية أصبحت بالغة (راشدة) . تواصلت هذه المرحلة حتى اللحظة التي توقفت فيها النبوة الكتابية في حوالي القرن الرابع والخامس قبل يسوع المسيح .

ولإدراك هذا التطور ، نستطيع عمل المقارنة بين الخروج والتحرير في وقت الملكة أستير . أثناء الخروج ، تدخَّل الله صراحة « ليشق البحر أمام شعبه » ، « ولإطعامه بالمن » . في تاريخ أستير ، كان الشعب اليهودي ، في منفى بعد تدمير الهيكل الأول ، مهدد بالإبادة . وتم إنقاذ الأمة بفعل زواج أستير وأحشويرش ، دون أن يتدخل اسم الله في القصة . قال الربيون إن كتاب أستير يماثل نهاية « للتدخل الفوق –طبيعي » لله الذي لا يصنع المزيد من المعجزات بشق البحر ، لكن يكلِّم قلب الإنسان حتى يصبح هو الأداة التي تحرر نفسها[١] .

يرى الحكماء أن هذه المرحلة تشبه مرحلة إنجاز الخلْق . أشار (Léon Askénazi) إن هذا العصر يماثل أيضاً ولادة الفلسفة في اليونان ، وتنمية الحكمة في الشرق الأقصى . كانت أستير وأسدراس تقريباً معاصرين لسقراط وبوذا[٢] .

واحدة من أشهر قصص التلمود تتميز بالبلاغة ، لأنها ذكرت هذا الوصول الإنساني لسن الرشد . تجادل الربي العازر مع حكماء آخرين لمعرفة ما إذا كان أحد الأفران ، المصنوع من الطوب والرمل ، يخضع لقواعد الطهارة والنجاسة .

وفي لحظة قال الربي العازار :

– « إذا كنت أنا على حق ، فلتثبته هذه الشجرة » .

وعندها بدأت الشجرة التي في فناء بيت الدراسة في الاقتلاع ، وتحركت لمسافة مئة ذراع .

– قال الحكماء : « هذا لا يثبت شيئاً »

– أصرَّ الربي العازار قائلاً : « ليثبت هذا المجرى المائي إني على حق » . فبدأ جدول الماء في صعود المنحدر .

– قال الحكماء « لا يثبت مجرى الماء شيئاً » .

– « إذن فستكون حوائط المبنى التي ستثبته » .

---

(١) حسب تقليد آخر ، أُعطيت المعجزات بسبب عدم النضج وصغر الإيمان ، لكن عندما تبلغ الإنسانية إيماناً حقيقياً وعميقاً ، فلن تكون ضرورية .

(٢) Léon Askénazi, ***La parole et Lécrat 1: lenser la tradition juive aujourd'hui,*** Albin Michel 1999, p. 37.

– فبدأت الحوائط في الانحناء . وكانت ستسقط عندما وبخها الربي يوسف قائلاً :

– « بأي حق تتدخلين في حديث الحكماء ؟ »

وهنا تثبتت الحوائط ولم تسقط احتراماً للربي يوسف ، لكنها لم تعتدل أيضاً احتراماً للربي العازار . وفي محاولة أخيرة ، قال الربي العازار .

– « إذا كان رأيي صحيحاً ، فلتؤكده السماء » .

وفجأة أعلن صوت سمائي :

– « ماذا لديك لتعارض الربي العازار ؟ إنه على حق ! » .

عند هذه الكلمات قام الربي يوسف وقائلاً :

« ورد في المكتوب ليست هي في السماء »[٣] لقد أراد القول هنا بأن التوراة أُعطيت على جبل سيناء وأن تطبيقها لا يظهر من صوت سمائي ، بل من الحكماء » .

وانتهى التلمود بالقول : « بعد ذلك الوقت بقليل حدث أن تقابل شاهد لهذا النزاع مع النبي إيليا وسأله كيف تفاعل الله في لحظة معارضة الربي يوسف » ؟

– قال إيليا : « تعجب الله وضحك وقال : « غلبني أولادي ، غلبني أولادي »[٤] .

من هذه النادرة ، يؤكد التقليد الربيني أنه منذ تأسيس المجمع الكبير في وقت أسدراس ، إذا كانت أغلبية الحكماء في الجيل قد أخذت قراراً ، فهي بذلك تعارض كل شيء . . . حتى الله .

عاش الربي العازار ، في القرن الأول والثاني لعصرنا . إذن فهذه القصة معاصرة لأوائل التدابير المسيحية . عندما دبرت الكنيسة عقيدة الثالوث الأقدس ، كانت تقول بطريقة ما إن الله الآب عارض جزءاً من ألوهيته ليصبح الابن الساكن في وسط الإنسان . يوجد مبدأ المسئولية الموضوعة بالأمثال الربينية توازياً في النتائج الأدبية للتجسد . عندما يقول يسوع في إنجيل يوحنا : « أنا والآب واحد »[٥] ، فإنه يعلن أن ، في اللاهوت المسيحي ، لا نستطيع أبداً إيجاد الله خارج رجل الناصرة . ولكي ننصت لهذه المسئولية فإننا سننهي موضوعنا بالتذكرة بالخمسة آراء الموجودة في الأصحاح الثاني من التكوين ، والتي ترسم الآثار العظمى لعلم الإنسان اليهودي المسيحي .

الإنسان هو ثمرة تراب الأرض ونفخة (روح) الله

هذان العنصران ، الروح والتراب ، هما مكونان للإنسان . بحث كل الشموليين بطريقة جافة وشديدة ، عن محو واحدة من تلك الأبعاد وحصر الإنسان أن يكون حيواناً متطوراً ، أو روحاً نقية .

---

(٣) تثنية ٣٠ : ١٢ .

(٤) Talmud de Babylone, Traité Baba Métsia, 59.

(٥) يوحنا ١٠ :٣٠ .

دلّت قراءاتنا للتكوين أن الخليقة لم يكن يمكنها الانتشار إلا في المقابلة والاتزان بين كل المتنوعات. اكتشاف وانسجام بين ستة أيام الأسبوع والسبت، الرجل والمرأة، الرحالة والمستقرون (قايين وهابيل)، سام، حام ويافث، . . . النموذج الذي يرتكز عليه سلام الله هو قوس قزح. تلمع الألوان كل واحدةٍ ببريقها، لكن بإجماعهم يكونون علامة عهد الله مع الأحياء. وفي مقابل اللاهوتيات التي تتناسى التراب الموجود في البشر، فباسم نفخة روح الله من الجيد تذكُّر أن البطن الفارغة ليس لها أذان. فحتى تكون نبوة الإنجيل مسموعة، يجب أن يقف العالم في تماسك، وعدالة، وصلابة، فإذا تقاذفه الطوفان، يصبح إعلان الخلاص لا فائدة منه[٦]. وبالعكس، نحن نعرف أيضاً أن عالمنا مات من نسيان هذا الطموح نحو واحدٍ أكثر بعداً، والذي نجده في روح (نفخة) الله. مع الشاعر، نستطيع القول إن الإنسان جائع للخبز، وأن هذا الجوع يمكن إشباعه، لكنه جائع أيضاً للجمال، وأن ذلك هو جوع شره. عندما قال (Bernanos) : « لا نفهم شيئاً في الحضارة الحديثة إذا لم نقبل أولاً بأنها مؤامرة عالمية ضد الحياة الداخلية للإنسان[٧] »، فهو يصف عالماً مخنوقاً، (بنقص الروح).

الإنسان موضوع في جنة ليزرعها ويحفظها

على عكس الصور التي تصور آدم وحواء وهما يعيشان بالحب والماء الجاري في وسط طبيعة ساذجة، يذكر الكتاب المقدس أن الإنسان موضوع في الجنة ليزرعها ويحفظها. زراعة الجنة، هي جعلها مثمرة ونامية. إذا استخدمنا صورة المزارع، فإننا نفكر في كل الأعمال التي يقوم بها : فيجب عليه حرث الأرض، عزقها، بذرها، زراعتها، استئصال الحشائش الطفيلية (الضارة)، ريها، وصرفها . . . والصبر قبل حصادها. لقيام عمل المزارع، يكفي التفكير في أن الحقول التي نشاهدها اليوم قد خططها الإنسان، وليس هناك مقارنة بما كانت عليه (الحال) منذ ألفي سنة مثلاً.

يجب على الإنسان زراعة الجنة، وعليه أيضاً أن يحفظها ويحميها. هذا الفعل الثاني، والذي لم نعطه أهمية لمدة قرنين، قد أخذ معنى خاصاً منذ بضع سنوات بين سيادة الذرّة، وتنمية المصانع الكيماوية، الغازات الضارة والمخلفات الصناعية، فالإنسان اليوم له قدرة إفساد جدية، ونظرة تدميرية للجنة. وقد أكسبته حديثاً هذه القدرة مسئولية جديدة وهو ما قاد الفيلسوف (Hans Jonas) لتعريف مبدأ المسئولية كمطلب حازم جديد للعصر الحديث. ويُعلن هذا المبدأ هكذا : « تعلم التواضع، لترْك عالم قابل للعيش لأولادك »[٨]. ويغري هذا المبدأ بالرجوع لموضع الإنسان في وسط الخلْق، إذا كان في القرن السابع عشر، أعلن (ديكارت) بهدوء : « الإنسان هو سيد ومالك الطبيعة »، فإن الكتاب المقدس يذكرنا بأنه حسب الخلْق، فالإنسان ليس في عالم يعود إليه ويمتلكه، والذي ليس هو ثمرة رغبته ولا إبداعه. عاش الزوج الأول في عالم معطى بالخالق، كجنة يجب أن تُزرع ويتم حمايتها. ويُحمّله هذا العمل الإدراكي مسئولية خاصة. وعرّفها اللاهوتي (ليوناردو باف) هكذا :

---

(٦) Jean Ansaldi, polycopie, ***Jésus l'Église et l'étranger***.

(٧) Cité par François Mauriac, Bloc-notes II, Seuil Points ess ais 270, p. 306.

(٨) Hans Jonas, ***Le principe responsabilité, vue ethique pour la civilisation technologique*** Cerf, 1997.

« يجب أن يرتب النظام الأدبي الجديد حول محور مركزي ، يجب أن يوجه نحو اتزان المجتمع الأرضي .

إنه إعادة بناء العهد الذي تم تدميره بين الرجل والطبيعة وكذلك بين الأشخاص والشعوب حتى يصبحوا متحدين بروابط أخوّة ، وعدالة ، ووحدة ، إنه لمسة أساسية(٩) .

الإنسان يحصل على وصية الله

يوجّه الله الكلمة للإنسان بإعطاءه وصية . قبل التعمق في معنى هذه الكلمة ، يجب معرفة أن الله يتكلم ، إذن فالإنسان « مُكلَّم » . إنه ليس جسداً بيولوجياً حيث يجب إشباع الاحتياجات ، إنه مدعو بكلمة ، مسجَّل في لغة .

الكلمة الموجهة إليه هي وصية في جزئين : « من كل شجر الجنة تأكل » و « من شجرة معرفة الخير والشر لا تأكل » .

الجزء الأول هو سماح : « لك الحق في العيش ، لك الحق في الاستفادة من ثمار الأرض ، لك الحق في أن تكون سعيداً ، الأرض ليست مقدسة ، لقد أُعطيت لك كحديقة (جنة) . . . . والحديقة المزروعة جيداً هي مقبولة وكريمة ، ومثمرة . لا يمنع الله الإنسان من الدخول في الخلْق كطفل في متحف ، حيث ليس له الحق في اللمس إلا بالأعين ، لدرجة أنه لم يحصل فقط على دعوة بحفظ ما هو موجود ، بل بأن يكون مثمراً ، مخصباً ، ويملأ الأرض ، وينمي قدراته ، ويستثمر خياله . إذا كان الله قد أتعب نفسه بخلْق عالم مليء بالحياة ، الألوان ، والإطعام ، والموسيقى والرخاء ، وإن كان قد طلب من الإنسان السكْنى ، فهذا لكي يستثمر هذا الأخير كل طاقته . الفن والحلم ، التخيل والإبداع ، الفكاهة والحب كلها أشياء تنتمي إلى اتساع وجمال خلْق الله .

يضع الجزء الثاني من الوصية حداً ، فهي تميز حدوداً تمنع الإنسان من الضياع : « لتذكر أنك لست الخالق ، أنت لست الله ، أنت لست سيد الخير والشر » . الهدف من التحريم ليس لتفريق الإنسان – كل الأشجار هي أكثر من كافية لإعطائه الثمار التي يحتاجها –إنها للتذكير بأن العيش يحتاج لحدود ، لمواجهة رغبة قد تكون غير محدودة .

أثبتت العلوم الإنسانية أنه يوجد تحريمان عظيمان في كل المجتمعات الإنسانية : القتل والزنا . وقد تغير تطبيقهما حسب الوقت والأماكن ، لكن يذكر طابعهما الكوني أن لا أي مجتمع يستطيع الحياة ، ولا أي رابط اجتماعي ممكن إذا لم يضع الإنسان حداً لهذا التدفق البطيء للعنف والثأر ، وإذا لم ينظم اختيارات الرغبة الجنسية الغريزية دون حدود .

---

(٩) Léonardo Boff, ***La terre en devenir***, Albin Michel, 1993, p.53.

بوضع تحريم الشجرة في منتصف الجنة ، يذكر التكوين بأن بعض المحرمات ضرورية حتى تكون الحياة في المجتمع ممكنة . . . . حتى في جنة الله .

الإنسان هو كائن يتميز بالاتحاد

واحدة من الإعلانات الكبيرة لنصوص الخلْق هي أن الإنسان خُلق فرداً في اختلافه مع الحيوانات التي خُلقت كأجناسها . خلق الله الحيوانات ، التماسيح ، الناموس ، الجمال ، والسيد قشطة ، لكنه خلق « الإنسان » في تفرُّد . كانت الكلمة الأولى التي قيلت عنه هي : « ليس جيداً أن يكون آدم وحده »[١٠] . وسيثبت بقية النص أن قطبية رجل –امرأة هي إجابة الجزء الأول من القول (ليس جيداً) ، لكن قبل الوصول إلى ذلك ، يجب فهم أن الوحدة تصف الإنسان . الإنسان هو كائن وحده ، شخص له إدراك وتفرُّد .

إن العلماء الذين يهتمون بأجدادنا يقولون إن الاختلاف بين سلالة القرود العليا والجنس البشري يرتكز على ظهور القبور المعدة . الطقوس الجنائزية هي من خاصية الإنسان . إنها تشهد على تساؤل عن معنى الموت ، وبالتالي الحياة . يبعث هذا التساؤل عن التفرد بتعريف الإنسان كمثل حي يتساءل عن وجوده ، والذي يعلم أنه وحده يعيش حياته وأن لا أحد يستطيع أخذ مكانه . فهو مميز بالوحدة ، كل إنسان فريد . هذا التفرد أيضاً له بُعد أخلاقي (أدبي) ، فالإنسان قادر على الاختيار : لا ينحصر سلوكه على غريزة وإشباع لاحتياجات طبيعية . وحده ، قادر على تكريس نفسه من أجل حب واحد آخر .

وحده ، قادر على الانحناء أمام ضعيف ليصبح سامرياً ، وأيضاً وحده ، له القدرة على القتل ، والتدمير ووضْع مستقبل الخلْق في خطر .

ويرجع باسكال نسيان الوحدة إلى إنكار إنسانية الإنسان . وهكذا نجد باسكال يصرح هذا التصريح الذي يتميز بالشفافية : « لقد اكتشفت أن مأساة البشر تأتي من شيء واحد ، هو عدم معرفة البقاء في راحة داخل غرفة »[١١] إنه في المواجهة مع الذات ، وحيداً في الغرفة ، تترابط الاتجاهات أو تؤخذ القرارات التي تصنع ألوان الوجود » .

الإنسان مخلوق رجلاً وامرأة

إذا كانت الوحدة تكوِّن الإنسان ، فإن التكوين يقول إنه مدعو لعبورها . في الأصحاح الثاني ، ظهر الجنس الذي وضع نهاية للوحدة .

وها نحن نتذكر المقطع : أنزل الله سباتاً على الإنسان ، وانتزع واحداً من أضلاعه ، أو واحداً من جوانبه ، ليصنع منه امرأة . عندما استيقظ الرجل واكتشف المرأة ، صاح : « هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي .

---

(١٠) (تك ٢ : ١٨) .

(١١) Pascal, *Les Pensées,* No°139.

هذه تدعى امرأة لأنها من أمرء أخذت »[١٢] . بمعنى : « ها هي أخيراً من ستضع نهاية لوحدتي » . منذ ذلك اليوم ، في كل مرة يقع رجل أو امرأة في الحب ، فهو يشعر بإحساس أن الآخر هو الذي يأتي ليملأ كل نقص موجود فيه . عاطفة الحب هي انصهار يولّد إحساساً بالكمال ، لكن يأتي وقت يجب فيه الخروج من الوهم وفهم أن الآخر هو الآخر ، فهو مختلف عن الصورة التي نرسمها له ، فإنه إن كانت المرأة قد أُخذت من ضلع آدم فهي لا تشبه الضلع فيما بعد ، فهنا قطعة البازل لا تشبه الثقب المتروك من أثر العملية الجراحية ولكنها تصطدم معه ، واللقاء بينهما يتم في إطار الجرح .

في بداية الأصحاح الخامس يذكّر كاتب التكوين بالفاصل بين الإنسان والقطبية الجنسية : « يوم خلق الله الإنسان على شبه الله عمله ذكراً وأنثى خلقه » .[١٣] حسب علم الإنسان الكتابي ، الفرد الذي يعيش في عزلة هو كائن عاجز (مقعد) ، غير كامل ، الذي ينقصه قطعة ضلع . إنه مدعو ليواجه هذا العجز بالذهاب لمقابلة الآخر والذي بجانبه يصبح إنساناً من بين كل الآخرين الذين يقابلهم الإنسان . فالرجل للمرأة والمرأة للرجل ، هما في التزاوج ، الأكثر قرباً من الأقربين ، ويصبح التزاوج علامة لهذه المواجهة . وقد رأينا أن في التقليد الربيني يكون الشخص في حالة نقاء يوم زواجه إذ في ذلك اليوم ، يربط حياته مع واحدة مختلفة عنه ، فهو بذلك يدرك رمزياً السؤال الكبير الذي لم يكفّ الله عن وضعه للإنسان : المقابلة مع المتغيّر .

عبر القطبية الجنسية ، لا يستطيع الإنسان أبداً أن يعيش منعزلاً في حكمه الذاتي ، فهو مأخوذ في شبكة علاقات . هذا الإثبات يجمع المعطيات المادية الحديثة التي تترك خطة للكون ، حيث ستكون العوامل المتباينة ملتحمة الواحدة مع الأخرى ، لتقدم عالماً عبارة عن شبكة معقّدة تماماً من الاتصالات في كل الاتجاهات وكل الطبائع . كل شيء ديناميكي ، كل شيء يهتز ، كل شيء في حركة ، ولا يوجد شيء خارج العلاقة . إذا كان (داروين) قد أسس نظرية الصراع من أجل البقاء (struggle for life) مثل مبدأ النخبة الطبيعية ، فإن العلماء في أيامنا حددوا المبدأ الذي يؤكد إنقاذ جنس لا يتميز بالقوة المادية ، وإلا لكانت الديناصورات قد عاشت . لكن يتميز بالتساؤل ، المشاركة ، التبادل . في هذا المجال ، ليس الإنسان إلا عامل في الطبيعة .

أمام هذا الوصف فإن الإنسان في علاقة ، هو كائن مثمر ومسئول . يستطيع قارىء المكتوب أن يشعر بالتهديد (والخجل) ، لأنه يعلم جيداً أن هذا التصوير لا يماثل حقيقة ذاته . علاقاته مؤلمة وعنده دائماً صعوبات في ترك مكان لآخرين في عالمه الشخصي . ويميل أحياناً إلى الانطواء على عاداته . وتأكيداته عن اكتشاف طرق جديدة . إنه يتصرف جنباً لجنب بالطبيعة مثل طفل فاسد يريد في الحال . . . في الحال . ويصنع التجربة التي يدعوها اللاهوت المسيحي بالخطية الأصلية .

---

(١٢) (تك ٢ : ٢٣) .

(١٣) (تك ٥ : ١) .

لكن الخطية الأصلية هي أيضاً نبأ كبير وجيد حيث يعلن أن الكسر الذي يوجد في قلب ذواتنا ، المقاومة التي نضعها أمام دعوة الله ، والريبة التي نتشاركها جنباً لجنب مع الآخر ، ليست نتائج لخطأ أو حماقة اقترفناها ، إنها ترجع لطبيعتنا . إنه عبر إنسانيتنا المشتركة نستطيع سماع كلمة إله ينتظرنا ويستقبلنا كما نحن ليدعونا للدخول في طريق جديد ، مصنوع من علاقات غير منتظرة ، إبداعات مثمرة ، ومسئولية مجددة .

* إذا كانت الخليقة الأولى قد صنعها الله وحده فهل اكتملت الخليقة؟!

* قابين وهابيل، الطوفان، برج بابل وغيرها من القصص... كيف يمكننا أن نتعامل معها الآن في واقعنا المعاصر؟

* وقائع أيام الخليقة رحلة في أعماق التاريخ تأخذنا إلى أيام الخليقة لنتعرف عليها يوماً بعد يوم في استعراض شامل لكل الأحداث وتطورها.

* ويطوف بنا الكاتب بين الأنماط الدينية التقليدية والأساطير والتفاسير والدراسات العلمية الحديثة لإعادة قراءة التاريخ وما نستخلصه من أحداثه في الحاضر.

١٠١٠٤٥٠٣

